محمد فريد ابو حديد

مع الزّمانِ

محمد فريد أبو حديد

مع الزمن



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه لمحات من صور النفس البشرية فى مغامرتها الطويلة على مدى القرون جيلا بعد جيل، نرى فيها أشباهاً لأنفسنا إذ نسعد أو نشقى، وإذ نندفع مع عواطفنا التى تسف بنا تارة وتسمو بنا أخرى . وما تزال الإنسانية تكتب قصصاً جديدة فى كل يوم وكل ساعة، ومن مجموع هذه القصص الإنسانية نستمد عقائدنا ومثلنا العليا ونواميس حياتنا الاجتماعية . وما من قصة قديمة إلا وفيها عرق نابض متصل بحياتنا الحاضرة، وما من خلجة من خلجات نفوسنا فى عصرنا هذا إلا وفيها عرق متصل بمنابع الإنسانية الأولى. وأنا إذ أقدم هذه المجموعة إلى أبناء هذا العصر إنما أهدى إليهم جانباً من نفسى وعصارة من فيض قلبى ، وقد زدت على القصص التى ظهرت فى الطبعة الأولى عدة قصص أخرى تصل خطوات الزمان فى أحداثه الكبرى إلى وقتنا هذا الذى نعيش فيه ، وما يكون أسعدنى إذا وجد القراء فيها بعض لحظات سعيدة أو بعض خطرات تبعث على التأمل .

فنان طيبة

« الحب أزلى والكبرياء أزلية »

كان « أمنكارع » بقية عصر قديم كاد الناس ينسونه ، فقد عاشر الملك «أمنحتب» الكبير جد الملك «أمنحتب» المجيد، وكان أهل طيبة ينظرون إليه كما ينظرون إلى التماثيل الخالدة التى تحف بمعبد أمون . ولكنه كان مع ذلك فتىّ الروح وسيم الوجه برغم التجاعيد الكثيرة التى تعلو جبينه العريض . وكانت عيناه ما تزالان تلمعان ببريق الشباب وتشع منهما أنوار تنم عن طيبة قلبه، ولا سيما إذا تبسم وهو ينظر إلى ابنته الشابة الجميلة « نفرتويا » ، أو إلى تلاميذه الأعزاء فى « حصن طيبة » .

وكان الأمراء الشبان الذين يتعلمون فى حصن طيبة يحبونه كصديق بقدر إجلالهم له كأستاذ ، ويلتفون حوله كلما رأوه ليستمعوا إليه وهو يحدثهم عن الأيام الجليلة التى شهدها فى أيام شبابه ، وما كان أكثر ما يدخره فى ذاكرته من القصص العجيبة عن مغامرات الحروب عندما كان يصحب « تحوتمس » الكبير فى غزواته ببلاد لبنان وسوريا ، وفى زحوفه المظفرة على شواطئ الفرات أو جبال الشمال حيث دك حصون « الحيتا » ؛ وكثيراً ما كان يقص عليهم كذلك قصص مغامراته فى صيد

فرس البحر والتمساح والأسود والفيلة عندما ذهب مع تحوتمس العظيم إلى ما وراء جنادل النيل فى بلاد « كوش » ، فإذا ما فرغ من أحاديثه ذهب هو وتلاميذه إلى حجرة الرسم وأخذ يكشف لهم عن أسرار الفنون الخالدة ويبهر عقولهم ببراعته فى بعث الحياة فى الحجارة الصماء . ولم يكن علم أمنكارع بالتواريخ القديمة أقل من وعيه لذكريات شبابه ، فكان يتحدث عن آثار « أون » و « منف » كما يتحدث عن معابد طيبة نفسها . فإذا وصف الدول الماضية منذ آلاف السنين ملأ القلوب خشوعاً لعظمتها وإجلالاً لمجدها . لأنه كان يكشف لتلاميذه عن آيات الإبداع فى آثارها العظيمة كأنه قد شارك فى بنائها وعرف كوامن أسرارها . وكان من عادته إذا بدأ أحاديثه أن يشخص ببصره فى الفضاء وينطق بصوت هادئ كأنه يناجى نفسه ، فيخشع تلاميذه من حوله ويسبحون معه فى صور القرون الماضية كأنهم قد انتقلوا إليها وعاشوا فيها بسحر ساحر ، حتى إذا أمسك عن الحديث تنفس التلاميذ أنفاساً عميقة ونظروا إليه بعيون ملؤها العطف والإجلال . وقد اختاره فرعون أمنحتب العظيم الثالث ليكون أستاذاً للفن والتاريخ للتلاميذ الأمراء الذين كانوا يتعلمون فى « حصن طيبة » ، لأن فرعون أمنحتب كان حريصاً على أن يتلقى هؤلاء التلاميذ علومهم من أفذاذ العلماء والحكماء ، حتى إذا ما كبروا وعادوا إلى بلادهم كانوا أهلاً لوراثة الملك عن آبائهم الذين يحكمون الأقطار المنضوية تحت لواء فرعون صاحب التاجين .

وكان أمنكارع مع كبر سنه لا يتخلف يوماً عن دروسه ولم يبد عليه يوماً ما يدل على فتور أو ملال ، بل كان دائماً يفيض بالبشر والنشاط.

وكان من تلاميذه الأعزاء فى حصن طيبة أبناء ملوك كثيرين من كل جهات الأرض . فمنهم من جاء من بلاد الحيتا فى الشمال ومنهم من أتى من أقصى بلاد كوش فى الجنوب ومنهم أمراء من أبناء ملوك النهرين فى الشرق ورؤساء ليبيا فى الغرب ، ولكن أحبهم إليه كان « دوشرى » ابن ملك المتانى على حدود سوريا الشمالية ، وهو من أكثر تلاميذه حباً له وإعجاباً به ، لا يكاد يفارقه إلا عندما يغادر الحصن عائداً إلى بيته قبل حلول المساء.

وكان الشيخ أمنكارع إذا خرج من معهد الحصن ذهب إلى بيته الصغير على شاطئ النيل ليقضى سائر يومه مع ابنته الوحيدة الباقية له فى الحياة نفرتويا ذات الشعر الأسود وأجمل فتاة فى طيبة . ولم يكن له فى الحياة غيرها ، وقد جمع فيها كل ما بقى له من الآمال ، بعد أن غادره أبناؤه جميعاً وبعد أن سبقه الأصدقاء والأحباب إلى جوار «أوزيريس».

ولكن الشيخ كان يخرج فى بعض الأيام للنزهة فى الأرياف المحيطة بالمدينة ، أو إلى الصحراء الفسيحة ذات الرمال الذهبية فى أيام الشتاء ، ويستصحب فى هذه النزهات تلميذه العزيز دوشرى مع ابنته نفرتويا ويقضون الوقت بين تأمل مناظر الطبيعة وبين مدارسة أسرار الفن والحكمة ،

فإذا تعب الشيخ من السير الطويل جلس ليستريح عند جانب النهر أو ليتمدد على الرمال الناعمة ، وينطلق دوشرى ونفرتويا فى جولتهما الطويلة ثم يعودان إليه بعد أن يكون كل منهما قد رسم أجمل ما وقع عليه بصره ، من صور الطير والنبات أو مناظر النهر والصحراء . وقد تعود أهل طيبة أن يروا الشيخ مع ابنته وتلميذه حتى صار من المألوف عندهم أن يقرنوا بين اسم نفرتويا ودوشرى ، وأطلقوا عليهما اسم « إيزيس » و « أزوريس » لأنهما كانا مثالين للجمال والوداعة والكمال .

ولكن بنات الأعيان فى طيبة كن يتحدثن دائماً عن نفرتويا فى سخرية لأنها لم تكن من بنات الأمراء أو الأعيان ، فهى ابنة فنان صانع تماثيل وإن كان فرعون يقربه ويثق فيه ويجعله أستاذاً لأبناء الأمراء . وكثيراً ما دفعتهن الغيرة إلى إنكار نبوغ أمنكارع والبخس من عظمة فنه ، كما كن يوجهن أشد اللوم إلى الأمير دوشرى لأنه تنازل حتى اختار فتاة مثل نفرتويا ولم يلتفت إلى واحدة من بنات كبار الموظفين أو الأمراء أو سدنة المعابد .

ولكن دوشرى ونفرتويا كانا لا يعيران التفاتاً إلى هذه السخرية التى كانت تصل أحياناً إلى سمعهما ، لأنهما كانا سعيدين وحدهما فى عالمهما الصغير مع الشيخ العزيز ، ولا يعبآن بقصور طيبة ولا بمن يمرح فيها .

ولكن الأميرة الملكية «تادوخيبا» زوج ولى العهد ، وابنة ملك المتانى

وأخت دوشرى ، كانت تنظر إلى هذه الصداقة بين أخيها وبين نفرتويا فى كثير من القلق . حقاً إنها كانت تعجب بالفتاة وتجل الشيخ العالم الفنان أمنكارع ولكنها لم تنس أن أخاها أمير ملكى ، وأنه وارث عرش (المتانى) ولا ينبغى له أن يختار عروسه إلا من قصور الملوك . ولماذا لا يلتفت دوشرى إلى إحدى بنات فرعون أو إحدى بنات الأسرة الملكية على الأقل ؟ فكانت كلما رأت الصداقة تتوثق بين أخيها والفتاة زادت خشية وتوجساً من أن ينتهى الأمر بينهما إلى الكارثة ، وأى كارثة أشد من أن يتزوج الأمير من إحدى بنات الشعب وإن كانت تلك الفتاة نفرتويا ؟ ولم تستطع آخر الأمر أن تمتنع عن إظهار مخاوفها لزوجها ولى العهد واستأذنته أن تفاتح فى الأمر فرعون العظيم نفسه حتى يحول بين الفتاة وبين دوشرى . ولكن ولى العهد لم يوافق الأميرة تادوخيبا ، بل إنه صارحها بأنه يفضل نفرتويا على كل بنات الأمراء اللاتى يعرفهن جميعاً ، وحاول أن يبين لها أن سعادة الشاب تتوقف على اختيار قلبه وأطال فى التحدث عن فضائل نفرتويا . فلما لم تقدر تادوخيبا على إقناع زوجها ولى العهد برجاحة رأيها ، ذهبت إلى فرعون نفسه لتضرع إليه أن يساعدها .

وكان اليوم الذى توجهت فيه إلى فرعون من أيام الخريف الجميلة والمدينة تستعد للاحتفال بفتح السد الذى يفصل بين النيل وبين البحيرة الكبرى فى القصر الغربى .

كان يوماً من أحلى أيام الخريف وأصفاها سماء وأرقها نسيما وقد أخذت طيبة كل زينتها استعداداً للعيد الذى اعتادت أن تحتفل فيه كل عام بتدفق الماء إلى البحيرة. كانت السفن فى ميناء النهر ترفع الأعلام الملونة، وقد انتشر النوتية فوق الساحل يغنون ويشربون الجعة ويرقصون، وهم من ألوان مختلفة جاءوا من جميع أطراف الأرض ليحملوا خيرات بلادهم إلى عاصمة فرعون. كان فيهم نوتية من أهل فينيقية بشعورهم المضفورة ولحاهم الطويلة، وبشرتهم البيضاء وعيونهم السوداء، وفيهم بحارة من جزائر البحار الشمالية من الشردن والشكلش وأهل قبرص ورودس وهم لا يسترون أبدانهم إلا بقطع من الجلد تتدلى من أعناقهم إلى ظهورهم وصدورهم. وأما بحارة كوش فكانوا يلفون أرهاطاً حول أوساطهم من جلود النمور ويرقصون فى حلقات صاخبة لا يعبأون بضحكات الجمع الملتف حولهم، وخرجت طيبة كلها منذ الصباح، فى زينة الاحتفال الأنيق، الرجال فى ملابسهم الكتانية البيضاء ونعالهم الملونة، وشعورهم المستعارة التى تتدلى على أكتافهم، والنساء فى ملابسهن المزركشة بالألوان تصف محاسن أجسامهن الدقيقة. وتزاحمت الجموع على الشاطئ تتنافس على القوارب للعبور إلى البر الغربى لكى تدرك الاحتفال منذ الصباح، حتى لا يفوتها منظر فرعون وهو يقطع السد بيده المجيدة، وينزل فى القارب الذهبى إلى البحيرة العظيمة مع ماء الفيضان الأحمر.

وخرج أمنكارع فى ذلك اليوم مع نفرتويا ودوشرى لمشاهدة مناظر العيد ، فاستقلوا قارباً ملكيًّا ، وضعت حوله الحشايا فوق الطنافس الوثيرة وبلغوا الشاطئ الغربى قبل أن يصل موكب فرعون . وكانت البحيرة صافية اللون مثل البلور تحيط بها أشجار الجميز والحور والصفصاف والسنط ذى الزهرة الصفراء الفاتنة . ومالت نفرتويا على فرع فاقتطفت منه زهرتين صغيرتين وضعت إحداهما على صدرها والأخرى على صدر دوشرى .

وكان دوشرى يلبس حلة زاهية اللون من صنع فينيقية ذات أكمام واسعة حليت أطرافها بخيوط ذهبية ، وجعل فى قدميه خفًّا أنيقاً من الجلد الأصفر المموه بالذهب . على حين لبست نفرتويا حلة من الكتان الشفاف عليه وشى مختلف الألوان حول الصدر والعنق . وكان خفها الأحمر اللين منقوشاً بصور صفراء من رسم زنبق الماء . وأما الشيخ أمنكارع فكان ما يزال محتفظاً بزيه الساذج الذى عرفه منذ شبابه وهو ثوب طويل يربطه حول وسطه حتى يصل إلى ركبتيه ، ويلقى فضلته على كتفيه حتى يغطى ظهره ، وصدره . ولم يجعل فى قدميه إلا نعلا من الجلد مربوطة حول قدمه بسير دقيق .

وساروا فى الشارع الأعظم المؤدى إلى معبد الملك ،وكان أمنكارع يسير الهوينى متأملا تماثيل بنات آوى التى على الجانبين ، ويقف بين



حين وآخر ليتأمل أحد التماثيل ويهز رأسه فى صمت ثم يستأنف سيره . وسبقه دوشرى مع نفرتويا حتى بلغا المعبد قبله ، ووقفا حيناً يتأملان صرحه الرائع والمسلتين الشاهقتين اللتين تحفان به عند المدخل ، ثم ذهبا إلى التمثالين الجديدين الهائلين — وقد أقيما لفرعون أمنحتب العظيم الثالث منذ سنتين ، ولم يسبق لملك أن اتخذ تمثالين مثلهما فى العلو والضخامة . وخشع قلباهما عندما رفعا رأسيهما إلى أعلى التمثالين ليتأملا وجهيهما الصارمين وهما يشرفان على النيل من أقصى السهل كأنهما عملاقان جباران . وقال دوشرى لنفرتويا فى صوت متهدج :

ــ وددت لو ذهب سيدى المبجل أمنكارع إلى بلادى ليصنع تمثالا مثل هذا لوالدى .

فقالت نفرتويا :

ــ إنه لا يرفض لك أمراً يا دوشرى .

فتبسم الفتى قائلا :

ــ أتذهبين معه يا نفرتويا ؟

فتبسمت نفرتويا قائلة :

ــ لعل أبى يفضل أن يصنعه ها هنا .

فقال دوشرى :

ــ وكيف يصنعه هنا وهو لم ير أبى ؟ إننى أتمنى لو كان للملك المتانى تمثال مثل هذا ليخلد ذكره ، إننى أرى ذلك التمثال وكأننى أنظر إلى وجه سيدى الملك المقدس وهو يشرف علينا من علو سبعين قدماً .

وكان أمنكارع قد بلغ موضع الشابين ووقف ينظر إلى التمثالين فى تأثر ظاهر وقال :

ــ لقد تفنى الأجساد وإن بالغنا فى تحنيطها ، ولكن خلجات نفوسنا تبقى مع الفن إلى الأبد فى هذه الصخور الصماء .

وعاد ينظر إلى التمثالين حيناً ثم قال :

ــ وددت لو كان هذان التمثالان واقفين وليسا قاعدين هكذا يادوشرى .

إنهما فى جلستهما هذه يكذبان النظر ولا يقعان فى القلب كما ينبغى لهما . لقد رسمت تصميما لهما واقفين ، ولكن الملك المقدس اختار تصميم هؤلاء الذين يملأون الأرض ادعاء ويظنون الفخامة عنوان المجد .

فقال دوشرى فى صوت متردد :

ـ كنت أقول لنفرتويا إننى أتمنى لو صنعت لأبى مثل هذا التمثال أيها السيد المبجل .

فهز أمنكارع رأسه قائلا بصوت هامس :

ـ لو كنت شاباً !

ووضع يده على كتف دوشرى وأضاف قائلا :

ـ لو كنت شاباً لذهبت إلى المتانى من أجلك، وصنعت لأبيك تمثالا يرضينى .

فأخذ الشاب يد الشيخ فى رفق ورفعها إلى فمه يريد أن يقبلها فبادر الشيخ وقبض يده وانحنى على الفتى فقبل جبينه . وقال له بصوت متهدج :

ـ لئن شاء آمون أن يمد فى أجلى ، فسأصنع لك أنت صورة من حجر الجرانيت الأحمر ، صورة لك إذ تمرح مع نفرتويا فى الحقول أو تصيد معها البط والسمك من النهر .

فتهلل وجه الفتى ونظر إلى نفرتويا مبتهجاً ، ولكنه رأى على وجهها سحابة من الوجوم . ونظر إليها كالمستفهم ولكنه لم يتكلم. وأدركت نفرتويا معنى نظرته

وحاولت أن تبدو مرحة ولكن قلبها لم يساعدها فظهرت ابتسامتها مترددة تنم عن جزعها .

فصرف دوشرى نظره عنها حتى لا يحرجها ، وعلت عند ذلك ضجة عالية من ناحية النهر فاتجهت أنظارهم جميعاً إلى هناك وقال الشيخ :

ـــ هلموا إلى المعبد فقد أقبل موكب فرعون .

وجذب دوشرى نفرتويا برفق من ذراعها واستأذن الشيخ أن يذهب معها مسرعين حتى لا يفوتهما شيء من مناظر الاحتفال . وسألها دوشرى وهما يهرولان :

ـــ رأيتك تغيرت منذ حين يا نفرتويا .

فترددت الفتاة حيناً ثم قالت فى صوت خافت :

ـــ لست أدرى ماذا أزعجنى .

فقال دوشرى فى لهفة :

ـــ لعلنى لم أكن سبب ذلك الانزعاج .

فبادرت نفرتويا قائلة :

ـــ لا . لا يا دوشرى . إنها حماقة من حماقات الطفولة بغير شك . لست أحب لوحات الجرانيت الأحمر . كانت دائماً تحمل إلى ذهنى صوراً حزينة . كنت أفضل لو قال أبى إنه سيصنع لنا تمثالا من الحجر الجيرى أو من الصوان الأسود . أقول تمثالا وليس صورة على صفحة من الجرانيت الأحمر . هذا ما أزعجنى .

فضحك دوشرى ضحكة عالية وقال فى دفعة مرحة :

— لقد ظننت الأمر أخطر من مثل هذا الوسواس يا نفرتويا . سأقول له أن يجعله تمثالا لا لوحة ، ولن يبخل السيد المبجل بأن يجعله من المرمر بدلا من الجرانيت الأحمر . لقد تأخرنا يا نفرتويا وهذا هو الموكب قد بدأ . أرجو ألا يعرقل هذا الحذاء الضيق سرعة حركتك .

وأسرعا حتى بلغا سور المعبد فظهرت أمامهما الساحة الكبرى التى تمتد وراءها البحيرة الفسيحة . ثم بدت لهما صورة الملك من بعيد مع زوجته الملكة الجميلة « تى» ذات الشعر الأصفر الذهبى وكانا يتجهان فى موكبهما نحو الساحة. وبعد حين جاء أمنكارع وهو ينهج من جهد السير . وكان فرعون قد اقترب فى موكبه فلما وقعت عينه على الشيخ حياه باسما . فاقترب الشيخ وسجد حتى لمس الأرض برأسه ثم رفع رأسه وجهر بالدعاء . فمد إليه فرعون يده عاطفاً وأمره أن يكون قريباً منه حتى ينزل إلى البحيرة فى أقرب السفن المحيطة بموكبه الملكى .

وبلغ فرعون البحيرة ونزل إلى قاربه الذهبى تحيط به زوجته الحسناء والأميرة تادوخيبا . وتلفت الشيخ ليرى أين ابنته فرآها مع تلميذه دوشرى ينزلان وحدهما إلى قارب ولى العهد . ولم يكن عجيباً أن يغيب ولى العهد نفسه عن حضور الاحتفال فقد كان معروفاً بأنه لا يؤمن بآمون ، ويعكف على عبادة إله غريب لا يعرفه أحد يسميه « آتون» ويسبح له بالترتيل

والأناشيد . فلم يجد الشيخ بدًّا من النزول فى أحد قوارب البلاط الملكى ليكون قريباً من فرعون إطاعة لأمره .

وكان الموكب رائعاً أظهر فيه أمنحتب العظيم من أبهة الملك والجود والبر والسطوة ما هو جدير بابن الآلهة المقدس .

وتعطف على الأميرة تادوخيبا فأجلسها عن يساره كما أجلس الملكة إلى يمينه .

وكانت تادوخيبا موضع رعاية خاصة حتى إنه قضى أكثر الوقت فى الحديث معها والاستماع إليها .

ولما انتهت الجولة على البحيرة اتجه فرعون نحو المعبد العظيم الغربى ليقدم القرابين الجديرة بمجده إلى كبير كهنة آمون . ولم ينس أن يتكرم على الفنان الشيخ أمنكارع فدعاه ليسير قريباً منه واتجه إليه بحديث طويل حتى تهامس رجال البلاط قائلين إن أمنكارع قد بلغ ذروة من المجد لم ينلها أحد رجال الفن من قبله .

وتخلف أمنكارع عن مسايرة فرعون عندما بلغ باب المعبد الكبير وسار فى صفوف رجال البلاط متباطئاً وأخذ يتلفت حوله ليرى ابنته التى غابت عن عينيه منذ سار إلى جانب فرعون . ولكنه كان يبدو عند ذلك أصفر الوجه مضطرب النظرات يكاد وجهه ينطق بأنه حزين .

واستمر الاحتفال رائعاً جليلا تتخلله الأناشيد التى تملأ القلوب ابتهاجاً

وبدا فيه فرعون فى كمال أبهته يجمع بين عزة الملك وخشوع التقوى. ونال بركة مضاعفة من كبير الكهنة الذى أهدى إليه رمز الحياة الخالدة مصنوعاً من خشب شجرة سقيت دائماً بالماء المقدس .

ورجع أمنكارع مع ابنته وتلميذه بعد انفراط عقد الموكب فركبوا القارب إلى الجانب الشرقى من النهر وساروا صامتين حتى بلغوا المنزل الصغير على الشاطئ . واستأذن دوشرى ليعود إلى حصن طيبة ليقضى الليل فيه كالعادة المتبعة . وكان يحس فى قلبه انقباضاً عجيباً بعد ذلك اليوم المرح البهيج ، ولم يقدر أن يسرى عن نفسه ذلك الشعور وذهب إلى مخدعه لعله يهدئ من قلقه فى هدوء الوحدة ، ولكن صورة الشيخ كانت تتمثل له دائماً وهو يسير بطيئاً مطرقاً حزيناً .

وخيل إليه أن حديث فرعون هو الذى بعث فى الشيخ ذلك الحزن الشديد الذى غمره فجأة ، بعد أن كان فى الصباح نشيطاً كأنه شاب مرح .

ولم يستطع دوشرى البقاء فى مخدعه طويلا فخرج ليفرج عن قلقه ، وذهب إلى ركن مطل على النهر وجعل يسرح بصره فوق صفحة الماء وعلى جوانب الشطئان وخلال السماء الصافية التى يغمرها ضوء البدر، ولكن صورة وجه الشيخ الحزين لم تفارقه وصورة نفرتويا لم تستطع أن تهدئ من سورة وساوسه . ماذا قال له فرعون حتى أزعجه هكذا ؟ ثم ماذا قالت تادوخيبا لفرعون فى ثنايا ذلك الحديث الطويل الذى كان بينهما على طول الجولة

فوق البحيرة ؟ أتكون قد أعادت على فرعون ما سمعها تقوله فى يوم من الأيام عن مخاوفها من تعلقه بابنة الشيخ ؟ أيكون فرعون قد حدث أمنكارع عن ابنته وعلاقتها به ؟ لم يفق الشاب من وساوسه إلا عندما شعر بوقع أقدام تقترب منه ، فالتفت إلى ورائه وسمع صوتاً يناديه وكان صوتاً مألوفاً . وقال له رئيس الحصن :

— لقد بحثت عنك فى أركان القصر يا دوشرى .. . لم تخلفت عن مائدة العشاء ؟ .

فأجاب دوشرى :

— حقًّا لقد نسيت يا سيدى .

ونهض متكلفاً النشاط حتى لا يثير فضول رئيس القصر ، ولم يلبث أن استعاد مرحه عندما صار بين أصحابه فى حلقة السمر بعد أن فرغوا من العشاء . ولما عاد إلى مخدعه بعد أن مضى صدر الليل كانت كل الظلال قد انقشعت من قلبه كأن لم يعكر صفاءه شىء فى ذلك النهار .

ولكن الصباح التالى حمل إليه نبأ كان أشد عليه من كل ما مر به من القلق والوساوس ، فقد جاء إليه قائد الحصن فى الصباح ليبلغه أمر فرعون أن يسافر إلى « أون » فى ذلك اليوم نفسه ليتم دراسته فى معهدها العظيم بعد أن نال بغيته من الدراسة فى حصن طيبة . وكان عليه أن يأخذ أهبته للسفر من ساعته بغير إبطاء .

وأظلمت الدنيا فى عينيه وتهالك على كرسيه ولم يجب بكلمة .

وثارت فى نفسه غضبة شديدة لذلك الأمر المفاجئ ، ولكنه تذكر أنه أمر فرعون ولا حيلة لأحد فيما يأمر به فرعون . وجاهد أن يمنع نفسه من البكاء لشدة شعوره بالعجز أمام الإرادة التى لا تقاوم ، وذهب صامتاً ليستعد للسفر فى المساء .

ولما أقبل المساء كانت السفينة فى انتظاره تحت أسوار الحصن فصعد اليها بغير أن ينظر إلى الوراء، وبادر فمسح الدمعة التى فرت من عينيه ثم ذهب إلى مؤخرة السفينة واتجه ببصره نحو بيت أستاذه حيث تقيم نفرتويا . ولما اختفت طيبة عن عينيه وراء ثنية النهر ارتمى فى موضعه وأسلم نفسه للبكاء .

وأخفى أمنكارع عن ابنته سر الحديث الذى دار بينه وبين فرعون يوم احتفال الخريف ، ذلك الحديث الذى أمره فيه أن يقطع الصلة التى ما كان لها أن تجمع بين دوشرى الأمير الملكى وبين فتاة من عامة الشعب، وإن تكن نفرتويا الحسناء وابنة الشيخ المبجل أمنكارع . ولكنه لم يستطع أن يخفى عن نفسه ألم الطعنة ومرارة الإهانة . لقد بلغت تلك الطعنة من الشدة أنه كاد يندفع إلى الرد على أمنحتب العظيم قائلا له إن القلوب لا تعرف الفروق التى يقيمها المتكبرون ، ولكنه لم يجرؤ أن يخاطب ابن الآلهة إلا قائلا : سمعاً وطاعة ياMولاى . وخطر له عندما سمع أمر فرعون أن يقول له :

« إنك أنت يا صاحب الجلالة تزوجت من إحدى بنات الشعب

عندما أحببت الملكة تى الحسناء » ولكن الكلمات تعثرت فى حلقه قبل أن ينطق بحرف من حروفها . ومهما يكن من الأمر فإن غضب أمنكارع وشدة وقع الإهانة عليه لم يكونا شيئاً إلى جانب الكارثة التى ألمت به عندما رأى ابنته تذبل وتفقد سعادتها بعد أن فارقها دوشرى .

ومرت الأيام بطيئة ولكنها توالت مظلمة حزينة ، وكانت نفرتويا لا تنطق باسم دوشرى تسأل أباها عنه أين غاب ولم غاب . قضت أيامها صامتة هادئة وديعة كأنها لم تفقد شيئاً ولم تجزع من شىء ، كالزهرة المفردة التى تتفتح وحدها فى الصحراء ذات صباح ثم يتبدد عبيرها وألوانها الزاهية فى وحشة القفر . ولم يلحظ أمنكارع أن ابنته تذبل وتفقد نضرتها يوماً بعد يوم حتى رآها ذات يوم وقد أصبحت ذاوية .

وجلس دوشرى فى أون على سور معبد الشمس الشاهق ينظر إلى الشمس وهى تهبط إلى أفق الغرب . وكانت الأرض تمتد تحت عينيه مثل صفحة مرآة لا يقطع سطحها سوى نقط منثورة من آجام النخيل . وكان السكون يخيم على الكون وماء الفيضان يغمر الحقول إلى آخر ما تصل إليه العين . وكان الهواء ساكناً فى ذلك الوقت من شهر مسرى الحزين ، كما كان قلب دوشرى . لم يكن له فى معبد الشمس صديق كما لم يكن له فى أون كلها أليف . وأحس بأنه قد أصبح وحيداً غريباً فى بلاد بعيدة

غريبة لا يؤنسه شيء فى ذلك الفضاء الفارغ الرهيب الذى يحيط به . وعادت إليه وهو جالس هناك ذكريات جولاته مع نفرتويا فى أرياف طيبة وعلى ضفاف نيلها وفوق أمواجه الوديعة . كان كل شيء هناك ينبض بالحياة والأمل ، حتى تلك التماثيل الرابضة على جانبى الطرق ، إذ كان الشيخ أمنكارع يبعث فيها الحياة كلما تحدث عنها . فأين تلك الحياة المليئة فى طيبة من حياته فى معبد الشمس الشاهق فى مدينة أون العظمى ، التى لم تكن فى نظره سوى سجن مظلم . وخطر له أن يتسلل من المعبد حتى يصل إلى النهر ، فيلتمس قارباً يصعد فيه إلى طيبة مرة أخرى ليستعيد أنفاسه الحارة وصدره المبتهج ونفسه المرحة. ولكن كيف يقدر على التسلل من المعبد الضخم الذى توصد عليه الأبواب المتينة ويحيط به الحراس فى الصباح والمساء .

وفيما كان جالساً هناك تتنازعه أشجانه الثائرة جاء إليه كاهن يحمل إليه رسالة من أخته تادوخيبا ، وهى أول رسالة تلقاها منذ فارق طيبة فى أول الخريف . وفتح الرسالة بقلب مضطرب وكانت لفافة من البردى عقد عليها شريط من الكتان الأنيق . ولأول مرة فى حياته تمنى لو كان له جناح فيطير به ساعة حتى يبلغ طيبة ليرى نفرتويا ، لأن الرسالة أنبأته بأنها مريضة وتريد أن تراه قبل أن تبدأ رحلتها الأخيرة إلى عالم أوزيريس . لم يدر ماذا يستطيع أن يفعل ولا ماذا يستطيع أن يقول ، فلم يكن أمامه إلا أن يصبر نفسه حتى تحمله السفينة كما تشاء لها رياح الخريف الفاترة.

وسافر من ليلته نحو الجنوب بقلب واجف وعين دامعة وصدر كئيب .

وهناك فى طيبة . ذهب إلى بيت الشيخ أمنكارع آخر الأمر ، ولكن الدار كانت خالية . وكان الشيخ بعيداً فى الجانب الغربى لا يقيم فى المدينة منذ فارقته نفرتويا فى رحلتها الأبدية . وأسرع دوشرى إلى الغرب حتى رأى الشيخ وكان عاكفاً على جدران المقبرة التى يعدها لابنته لتكون مثوى لجسدها بعد أن يتم الكهنة تحنيطها . كان الشيخ يطمع أن تقف نفرتويا على مقبرته مع دوشرى يقدمان القرابين من أجل سلامة روحه فى عالم الظلام ، ولكن الأقدار قست عليه مرة أخرى ونزعت منه أمله الأخير .

ولما رأى الشيخ تلميذه مقبلا رمى مطرقته وإزميله ومد يده ليصافحه صامتاً . ولم ينطق دوشرى بكلمة عزاء بل نظر إلى الرجل فى صمت ثم ترك يده وحول عنه وجهه وأجهش بالبكاء . وأسرع مبتعداً ليتدارى وراء جدار المقبرة ثم ارتمى على الرمال وترك دموعه تتدفق ليخفف عن قلبه المحترق وصدره المختنق . وعاد أمنكارع إلى جدار المقبرة يضرب فيه بمطرقته وإزميله فى عنف وهو صامت ، وكان أمامه لوح من الجرانيت الأحمر فيه نقش صورة ما تزال تحتاج إلى المزيد والشيخ يضرب بمطرقته وإزميله بغير توقف كأن فى داخله ثورة عنيفة .

وقام دوشرى بعد أن استطاع أن يتماسك ، فذهب إلى الشيخ ووضع يده على كتفه مترفقاً . فرفع الشيخ رأسه ورمى بالمطرقة ورفع يده فمسح عرقه

المتصبب من جبينه ، وتنفس نفساً عميقاً وهو ينظر نحو دوشرى ، ثم استرخى وخر متهالكا . وبعد حين رفع رأسه فى فتور وقال :

— هذا أنت يادوشرى . لقد وعدت أن أصنع لك صورة فوق الجرانيت الأحمر . ها هى ذى صورتك يابنى ولكنها صورة باكية .

ثم قام وترك الفتى ينظر باكياً إلى الصورة ، وانطلق يسير فى طرق مدينة الموتى المتعرجة حتى اختفى .

وأما دوشرى فقد عزم على أن يعود إلى أون من ساعته وأن يذهب إليها فى هذه المرة ليكون كاهناً راهباً .

وقد عرفت طيبة فيما بعد كاهنها الطيب الوديع دوشرى ، ذا البشرة البيضاء والعينين الزرقاوين ، الذى يقال إنه كان من قبل أميراً جميلا ثم جذبته محبة آمون فآثر خدمة الإله على أن يكون ملك المتانى .

وقد عرف عن الكاهن دوشرى أنه كان فى كل يوم يعبر إلى مدينة الموتى فى الغرب ليذهب إلى قبر نفرتويا وقبر أمنكارع الذى فى جواره لأنهما كانا حبيبين لآمون .

وكان دوشرى كلما ذهب إلى المقبرة وقف حيناً ينظر إلى الصورة البديعة التى فى اللوحة الحمراء الجرانيتيّة ثم يتمتم قائلا كأنه يتلو صلاة .

« قد نزول نحن عن الأرض ، ولكن خلجات نفوسنا تبقى مع الفن إلى الأبد فى هذه الصخور الصماء » .

حبيب آمون

«كان السلطان والعقل يتنازعان منذ آلاف
السنين كما لا يزالان يتنازعان إلى اليوم .
وقليلون هم الذين يرفضون السلطان
طاعة للعقل . »

كان يوماً رائعاً من أيام الشتاء فى طيبة التى لايشبهها شىء فى بهائها ولألاء نورها وزرقة سمائها ، وكانت المدينة فى ذلك اليوم هادئة على غير عادتها . كانت قصورها الواسعة لاتشتمل إلا على بعض الأتباع والخدم ، وكانت معابدها نفسها خالية لاتتردد فيها أصداء الأناشيد ، كأن أعمدتها الباسقة وأبوابها العالية ونقوشها الرائعة قد أصبحت آثاراً عملاقية من مدينة غابرة بقيت بعد زمانها . وكانت الطرق ساكنة راكدة كأنها المسالك المهجورة بين المقابر التى يقيم فيها الأبرار إلى الأبد . لم تكن هناك حياة إلا على شواطىء النهر المزدحمة بالسفن التى أتت إليها من أركان البحار السبعة ، تحمل خيرات الجزائر وشواطىء البحر الشمالى وأخشاب بونت وخزف كنوسوس ، وعطور اليمن ، وعاج كوش .

خرج أهل المدينة فى ذلك اليوم لشهود الاحتفال بعودة آمون إلى الكرنك بعد أن حرمت العاصمة العظمى منذ سنوات كثيرة من مواكب الإله آمون منذ أيام « أخناتون » أمنحتب الرابع ، صاحب البدعة الجديدة التى دعا فيها إلى عبادة آتون إله الشمس ، وفى سبيله فارق عاصمته واتخذ له عاصمة جديدة فى الشمال ، مدينة أخناتون .

وخرج الناس منذ الصباح الباكر ليتمتعوا بالنظر إلى فرعون الصغير « توت عنخ » زوج الأميرةالملكية ابنة أخناتون، لأنه سوف يداوى الجراح ويعيد إلى طيبة بهجتها ومرحها ورونقها ، ويرجع بركة آمون إلى أهل المدينة مرة أخرى .

واصطف الشعب على جانبى الطريق خارج المدينة ، من قصر الملك الشرقى حتى مدخل طريق الكباش الذى زينه أمنحتب الثالث الكبير ، وجعل على جانبيه صفين من تماثيل الكباش رمزاً « لآمون » . وهناك وقف الحراس يمنعون الناس من اجتياز مداخل المعبد ، إلا العظماء الذين كانوا يستطيعون الاقتراب من فرعون .

ولما علت الشمس فوق أفق الشرق أقبل « توت عنخ »الشاب زوج الأميرة الملكية راكباً عربته الحربية يجرها اثنان من الجياد البيضاء، ووقف فيها يمسك بأعنة الخيل بيمناه ، ويقبض على عصاه الذهبية بيسراه ولم

يلبس تاج القطرين الذهبي المزدوج ، بل وضع حول رأسه إكليلا يمثل الحية الملكية ترفع رأسها من أمام . وعلى مدخل طريق الكباش وقف كهنة الهيكل بملابسهم الكتانية البيضاء ينشدون الأناشيد بأصوات تملأ القلوب خشوعاً .

وكان « توت عنخ » نحيل الجسم ، تعلو وجهه صفرة مثل صفرة النرجس الذابل ، وتعترى جبينه بين حين وآخر سحابة من العبوس ، وتختلج عيناه فى قلق يحاول أن يخفيه تحت ستار من الوقار والهدوء . كان مظهره ينم عن معركة خفية تثور فى حنايا صدره ، ولكن الناس لم يلتفتوا إلى شيء مما بدا عليه ، لأن تيار الحماسة جرفهم ، وخلعت بهجة العيد ورونق الموكب على فرعون نوراً وضاء فلم تقع منه العيون إلا على صفاء وسناء وبهاء .

وسار الملك بعربته بين صفى الكهنة تحف بهم التماثيل البيضاءالبراقة حتى دخلوا إلى فناء المعبد ، فسجد من هناك جميعاً من أعيان وأمراء ، ومضى الموكب فى سبيله والكهنة منأمامه حتى بلغ صدر الفناء الكبير ، ونزل من عربته متجهاً نحو العرش الذهبي القائم تحت مسلة تحوتمس العظيم .

وكانت ساحة المعبد مثل غابة من الأعمدة الباسقة والمسلات ذات الرءوس الذهبية ،التى تشير إلى كبد السماء حيث يلمع ضوء حوريس ،

وزادها كهنة المعبد رونقاً بما جعلوه بينهما من أشجار ثمينة نقلت إلى هناك من أقاليم بونت البعيدة ، تتخللها الأعلام وسعف النخيل والزنبق المائى فى أوعية من المرمر الشفاف . وكان الهواء عطراً بما يفوح من مجامر البخور من عبق الند والعود والمر واللبان .

وجلس توت عنخ على العرش ووقف حوله القواد والأعيان على ما رسم لهم من المواضع ، وطاف الكهنة بتماثيل آمون حول الساحة ، والكاهن الأعظم يسير أمامهم يحمل تمثالا ذهبيًّا وهم ينشدون آيات من الدعوات والصلوات . وما زالوا حتى بلغوا مكان العرش ، فوقفوا ووقف الأمير الشاب ليحيي صورة الإله المنتصر . فأشار الكاهن الأعظم إليه بالتمثال الذهبى ، واتجه به نحو حرم المعبد ، وخر الناس جميعاً ساجدين . حتى إذا بلغ الكاهن قدس الأقداس فتح الباب ودخل ، وتبعه الملك وأغلق من ورائهما المصراع . وخيم الصمت رهيباً من الموقف العظيم فى الخلوة الخاصة التى لا يطلع على سرها إلا من يتجلى لهم آمون : الكاهن الأعظم وفرعون .

وكانت حجرة قدس الأقداس مظلمة ، لا تضيئها إلا ذبالة ضئيلة فى قنديل من الذهب ، لا يكاد أحد يتبين فى ضوئها شيئاً سوى ظلال متحركة يلقيها اللهيب الخافت المتراقص فى الأركان .

ولما صار الملك وحده مع الكاهن استلقى خائراً على كرسى فى جانب المذبح ، ورمى عصاه الذهبية ، وأن أنة ضعيفة بصوت لا يكاد يسمع ،



فقال له الكاهن بصوت رقيق :

– أى بنى شملتك رحمة آمون . .

وكأن هذه الكلمة قد نفست عن مرجل فوار ، فما كاد الشاب يسمعها حتى انفجر قائلا :

– أيها الشيخ ، أمسك عن هرائك . نحن هنا وحدنا لايسمعنا غير الحق . والناس جميعاً من وراء هذا المصراع لايسمعون .

فقال الكاهن فى هدوء :

ـ أعرف أننا هنا وحدنا يازوج ابنة الآلهة ، يا وارث الفراعين ، وأعرف أن الحق يسمعنا . ولذلك أطلب لك رحمة آمون .

فصاح الشاب فى غيظ :

ـ أما كفاك أننى تحملت ما تحملت من الأكاذيب فى ملأ الناس؟ أما كفاك أننى كتمت ما فى نفسى وخالفت قلبى وأحنيت رأسى لهذا التمثال الأصم ؟

فقال الكاهن وفى صوته هزة خفيفة :

ـ إنك يابنى مازلت شاباً ، وقد يغتفر للشاب أن يشك . ولكن هذا التمثال رمز الحق .

فصاح توت فى غيظ :

ـ إننى لا أشك أيها الشيخ . إنما أنطق بعقيدة لن تستطيع أن تزيلها من قلبى . هى عقيدة الحق الذى لم يعرفه سوى الملك الأعظم أمنحتب « أخناتون » الذى تسمونه المجرم .

فتراجع الكاهن إلى الوراء وقال فى صيحة مكتومة :

ـ أما زلت تذكر المجرم أخناتون ؟ ألم توافق على نبذ إلهه المزيف ؟ ألم تتزوج من الأميرة « عنخ سنب » ؟ أما سميت نفسك « توت عنخ آمون» ورضيت أن تلعن المجرم فى ملأ من الناس ؟

فصاح « توت » غاضباً :

– نعم رضيت وهذا ما يجعلنى أمقت نفسى . رضيت لأننى لم أجد بدًّا من الرضا . إننى هنا لا أنطق إلا بالحق لأن كتمانه يعذبنى . أتريدنى على أن أخادع نفسى وأنا فى خلوتى هنا ؟

قل الحقيقة سافرة أيها الشيخ . قل إنك تطلب منى أن أطيعك أنت . قل إن « آى » الكاهن الأعظم قد انتصر ، وإنه يأمر « توت » الصغير أن يذعن له . ليس هو آمون الذى يريد منى الإيمان به ، بل هو أنت الذى تطلب منى أن أخضع لك . أنت « آى » الذى تطلب منى أن أعبدك وليس آمون ذلك التمثال الأصم .

وكان الشيخ يسمع هذه الصرخات الغاضبة وهو فاتح عينيه فى حنق يحاول أن يخفيه . فلما انتهى الشاب قال الكاهن بصوت خافت :

– ثم ماذا ؟ . .

فقال « توت » :

– لاشىء إلاأن تكون صريحاً معى هنا . لقد كنت أنا صريحاً مع نفسى ومعك عندما رضيت بتغيير اسمى وتركت اسم « آتون » ، فقد قلت لك عند ذلك إننى أذعن من أجل التاج . فأرجوك إذا خلوت معى ألا تطلب منى أن ألغى عقلى وأعبد تمثالا لكبش صنعته أيدى النحاتين .

فلم يقو الكاهن على تمالك نفسه وصاح غاضباً :

ـ حسبك يابن الشعب ! !

* * *

فوثب (توت) على قدميه صائحاً :

ـ بل أنا الملك المقدس . أنا زوج الأميرة عنخ سنب .

فأجاب الكاهن بصوت أجش :

ـ إنك لاتمت إلى الملوك بنسب فما أنت إلازوج ابنة قد تموت غداً .

فرفع الملك رأسه ووقف منتفضاً ، ثم أخذ صوبحانه من فوق المذبح وأراد أن يتكلم ولكنه غص بريقه من الغيظ فلم ينطق . ونظر الكاهن الشيخ إليه فاتحاً عينيه الواسعتين فى ثبات وسيطرة . وبقى « توت » لحظة ينظر إلى عينى الكاهن لايستطيع منهما فكاكا ، ثم تخاذل واضطرب وتهالك على مقعده وتقدم نحوه الشيخ حتى صار لايفصل بينهما إلا قيد شبر ، فطرفت عينا الشاب وأن أنة تشبه صيحة مكتومة ، فقال له الكاهن فى صوت هادئ :

ـ المجد لآمون .

ثم وضع يده عل كتفه وهو لايزال يحدق فى عينيه ، واستمر قائلا :

ـ سألقى عليك قصة قصيرة قد تكون سمعتها من قبل فى دروسك . نحن نحتفل اليوم بعيد «أوبت » تذكاراً لليوم الذى اختار فيه الإله « آمون » جد زوجتك الملكية تحوتمس الكبير . كان تحوتمس كما

تعلم كاهناً لاأمل له فى الحكم ، لأنه لم يكن سوى ابن جارية لاتجرى فى عروقها دماء الملوك . وكانت أخته « حتاسو » هى الأميرة الملكية الشرعية . ولكن آمون رضى عن تحوتمس ، واختاره فى مثل هذا اليوم للملك لأن تمثاله الذهبى وقف أمامه فى أول دورة من دورات الاحتفال . ومن ذلك اليوم صار تحوتمس الكاهن ملكاً لمصر وسيداً للقطرين .

هذا هو فرعون الذى لم تعرف البلاد سيداً مثله ببركة آمون . أماسمعت بهذه القصة من قبل ؟ . .

فحدق « توت » فى عينى الكاهن لحظة ثم ألقى برأسه فى عنف على يديه واهتز جسمه فى نشيج صامت. فوضع الكاهن يده على رأسه ومر عليه فى عطف وقال بصوت رقيق :

ـ شملتك رحمة آمون ياولدى . عندما تخرج من هنا سيدور تمثال الإله دورته فى الساحة الكبرى . وستكون جالساً على العرش المقدس . وسأقول كلمتى على مسمع من رجال الدولة والأمراء والكهنة . وسينصت الجمع كله ليسمع ماتجيب به . فإذا أجبت وقف تمثال آمون أمامك كما وقف أمام تحوتمس ، وإلا . . .

قال هذا ثم سار رافعاً رأسه متجهاً نحو الباب ، ففتحه ووقف ينتظر حاملاً التمثال الذهبى . فقام توت فاتراً من مقعده وسار وراءه مطاطئ الرأس ، وكانت على وجنتيه بقعة حمراء واسعة تتقد فى وسط صفحة وجهه

الأصفر . وسار الكاهن عائداً إلى الساحة والملك يسير من ورائه ، وخر الجمع المحتشد سجوداً ، حتى بلغا موضع العرش ، وجلس الملك عليه . ثم قام الكاهن الأعظم بين يديه فألقى فى المجامر حفنات من العود والند والمر ثم رفع يديه فى هدوء وأخذ يرتل نشيداً وهو يدور بتمثال آمون الذهبى حول فناء المعبد ، ثم صاح بأعلى صوته :

ــ « المجد لآمون » !

فقام « توت عنخ » عن عرشه وأجاب بصوت ضعيف «المجد لآمون» !

فتقدم الكاهن إلى الملك فوضع يده على رأسه فمسحه بالعطور وقال له :

ــ أيها الملك المقدس انهض . وتلق بركة آمون .

فسجد الجميع مرة أخرى ؛ وقام الملك مترنحاً ثم أحنى رأسه وقال مرة أخرى :

ــ « المجد لآمون ! »

وعلت عند ذلك ضجة عظيمة من الجمع العظيم : « توت عنخ حبيب آمون » وعلت أناشيد الكهنة تدوى بين جدران المعبد العظيم ، ولم يلحظ أحد ما اعترى الملك من اضطراب ، ولم يسمع أحد تلك الأنة العميقة التى ترددت فى صدره تشبه الحشرجة ، وهو يقول فى ألم :

ــ أواه ! !

شاؤول بن شمويل اللاوى

« مازال المستعبد يحن إلى الحرية وينطق
بالأمل فيها ، ولكنه قلما يقوى على أعبائها ! »

كان لى ولع بالتجوال فى الصحراء منذ الصبا ، ففيها كنت أملأ صدرى من الهواء الصافى الذى لا تعكره أنفاس هذه الإنسانية المزدحمة ، وكنت أجد فى سمائها جلاء لبصرى ، وفى عمق سكونها سلاماً لنفسى . كنت أنقل عينى بين رمالها الصفراء فأجد راحة لا أجد مثلها بين الحقول الخضراء أو على شاطئ اللجة الزرقاء ، فإذا سرت فيها يوماً من أيام الشتاء وقد غسل القطر رمالها ، كان من أبدع المناظر عندى منظر حصبائها تلمع مختلفة الألوان فى قيعان الجداول الصافية ، تزرى باليواقيت واللآلئ .

وقد جمع حب التجوال فى الصحراء بين قلوب مختلفة الميول متباينة الطباع ، ألفت الصحراء بين قلوبهم لأنها كشفت لكل منهم مخبوء طبع صاحبه ، إذ لا شىء يكشف حقائق الناس مثل البعد عن زخارف المدينة وغشاواتها الخادعة. فهناك فى الصحراء يقابل الإنسان أخاه وجهاً لوجه ، ويقابل الحياة صريحة لا تمويه فيها .

وكان صديقى الذى أوثر صحبته فى هذه الجولات صديقاً قديماً منذ أيام الطفولة ، وكنا كلما خرجنا معاً إلى قلب الصحراء تبينت لنا تفاهة الحياة المتكلفة التى نحياها بما فيها من حدود وأوضاع وعادات ورسوم وعقائد . كان كل منا يرى فى الآخر أخاً من بنى الإنسان ، لايحتاج معه إلى رباط أوثق من علاقة الإنسانية .

ولقد طالما تساءلنا فيما بيننا إذا ماخلونا إلى النجوى تحت النجوم المتلألئة السرمدية عن جوهر تلك الحدود التى يخلقها الناس فيما بينهم . وكثيراً ما كنا نعجزعن الجواب .

وقد قصدت مع صديقى هذا إلى برية سيناء فى بعض أيام الشتاء ، وكنا نسير يومنا كله على هينة فى سيارتنا ، حتى إذا أدركنا المساء ملنا إلى أقرب وادٍ فقضينا فيه الليلة ، حتى يطلع الصباح فنستأنف السير معرجين على كل ما نمر به مما يسترعى أنظارنا . وكنا نجد فى ذلك كله مجالا فسيحاً للتأمل والدرس .

وفيما كنا نسير فى أصيل اليوم الثالث من رحلتنا ، سمعت صاحبى يصيح فجأة :

— اسمع . . .

فنظرت إليه فوجدته يحدق بنظره فى ناحية عن يسارنا بها مدخل وادٍ ضيق ، وقال وهو يوقف السيارة :

– انظر إلى هذا الموقع . إن شيئاً فى مظهره يأخذ بنفسى .

فتأملته لحظة فإذا هو يشبه فناء بيت من تلك البيوت التى يصفها علماء آثار ما قبل التاريخ . عند ما كان الإنسان يتخذ من الكهوف منازل قبل أن يعرف سر البناء ، وشعرت بشىء يجذبنى إليه . فقلت لصاحبى وأنا أنحدر إلى الوادى :

– إن التمتع بالصحراء لا يتم لمن يسير على مثل هذه السيارة السريعة.

فأجابنى صاحبى فى ابتسامة عابرة :

– حقاً إن السيارة هنا دخيلة ، إنها تدنس أرضاً خلقها الله لتكون وادعة مطمئنة راضية بسير إبلها .

وكان يسير إلى جانبى ويحدثنى وأنا متجه بكل اهتمامى نحو مدخل الوادى . ولو كانت الجان تتخذ بيوتاً لما كانت تختار إلا مثل هذا المكان.

وبعد جولة قصيرة فى الوادى ، بدا لنا أن نقضى الليلة هناك ، فقد كان منزلا طبيعياً لمن يمر بذلك الجانب من الصحراء . وجلسنا بعد ساعة إلى جانب صخرة قائمة فى وسط الفناء الفسيح الذى ينفرج من وراء المدخل الضيق وأعددنا عليها طعامنا وجعلنا نضرب فى شعاب الحديث ، كأننا على مائدة فى فندق عظيم فى عالم مسحور .

وقلت لصاحبى :

– كم من الناس أتوا قبلنا إلى هذا المكان وجلسوا حول هذه الصخرة

كما نجلس ؟ وكم من أجيال من البشر مرت من مدخل هذا الوادى إذا عرجت لقضاء ليلة هنا فى أسفارها الطويلة ؟

فقال صاحبى :

ــ لعل هذه الصخرة كانت مذبحاً مقدساً تنحر عليه القرابين للآلهة التى لم يفهم الناس سرها ؟

والحق أننى فطنت عند ذلك إلى سر الرهبة التى أحسستها منذ دخلت إلى ذلك الفناء الفسيح.

وجلسنا لحظة فى صمت ننظر فيما حولنا ، وخطر لى أن هذا المكان البعيد ينطوى فى صمته على أسرار عميقة .

وقلت لصاحبى :

ــ ألسنا نشبه بنى إسرائيل وهم يغادرون مصر هرباً من طغيان فرعون؟ ألست تضيق ذرعاً بالإقامة فى المدن المزدحمة وبين المجامع المنافقة ؟ ألست تحس هنا لوناً من الحرية لاتجدها فى ربوع المدينة ؟

فأجاب :

ــ هذا ما كنت أفكر فيه منذ لحظة .

وجعلنا نتذاكر بعض ما تردده الكتب المقدسة من قصص موسى وقومه حتى فرغنا من الطعام ، وقمنا نمشى رويداً فى أطراف المكان الساكن .

وكانت لى منذ صغرى عادة سيئة أن أخبط بقدمى ما يعترضنى من

حجارة ، فجعلت — كلما مررت بحصاة — أدفعها كما أدفع الكرة ، وما كان أشد عجبي عند ما خبطت قطعة مستديرة فرأيتها تتدحرج خفيفة كالكرة فتبينتها فإذا هى عظام جمجمة آدمية .

فصحت بصاحبي :

— إذن لقد شهد ذلك الموضع حادثة إنسانية !

فقال بتهكمه الهادئ :

— أتقصد أن كائناً بشرياً مات هنا ؟

فقلت فى شيء من الاهتمام :

— أقصد أنه قد وقف هنا بعض إخواننا فى الإنسانية الذين مضوا قبلنا ، وكانت العواطف تهزهم كما تهزنا وتعصف بهم وتدفعهم وتؤدى بهم إلى المآسى كما تفعل بنا . ونحن اليوم لانستطيع إلا أن نشعر بآلامهم ونرحمهم مع أننا لا نعرفهم . أتنكر العلاقة القوية التى تربط أجيال البشرية ؟

فتبسم وهز رأسه وسار يتأمل جوانب التلال ويميل بين حين وآخر إلى بعض حجارتها فيفحصها ويبقى منها فى يديه قطعاً يريد أن يحتفظ بها كما كان يفعل دائماً فى جولاتنا .

فقلت له لأنتقم من تهكمه :

— إنك لاتعبأ إلا بهذه الحجارة ياصديقى . ألا يهمك كل هذا العالم السحرى الذى يحيط بنا ؟

ولكنه مضى فى سبيله يميل هنا أو هناك كأنه لم يسمع منى شيئاً، وملت على العظمة المستديرة لأفحصها فإذا بى أرى عظمة أخرى قريبة منها قد غمر الرمل أكثرها ، فتناولت حجراً وجعلت أحفر ما حولها حتى استخرجتها فوجدتها تتصل بهيكل آدمى كامل مدفون هناك . فاعترانى انقباض شديد واسترجعت وجمعت العظام المنثورة التى وجدتها قريبة منى ، وجعلت أعيدها إلى مدفنها وأجمع عليها الرمال مما حولى حتى لا أزعجها فى مقرها الذى ثوت فيه تلك السنوات الطويلة . وفيما أنا فى ذلك بدا لى سطح من الخشب تحت طبقة الرمل التى أزلتها بيدى لأسويها فوق العظام ، فثارت دهشتى مرة أخرى وتركت ما كنت فيه ، وأقبلت على ذلك السطح الخشبى فكشفته وأخذت أحدق فيه بنظرى . فوجدت عليه نقشاً غريباً . فدفعنى ذلك إلى أن أحفر ما حوله حتى أخرجته ، فوجدته صندوقاً صغيراً طواه نحو نصف متر فى عرض أقل من ذلك بقليل وعمق أقل من عرضه . وكان صديقى قد عاد يسير نحوى حتى اقترب منى ، فلما رأى الصندوق أمامى أقبل يسعى نحوى فى اهتمام عظيم ، وقال :

— أراك قد كشفت شيئاً يستحق الاهتمام .

ثم أخذ يساعدنى على تنظيف الصندوق مما عليه من الرمال ، ونزعنا عنه غطاءه فوجدنا فيه مجموعة من الجلود الرقيقة وقد دب إليها شىء من الفساد ، وكان عليها خط بقلم غريب يميل لونه إلى السواد فنظر صاحبى إلىّ وقال :

ـ إنها لقية ثمينة !

فقلت له :

ـ حقاً إنها كذلك ، ولاشك فى أن لهذا الصندوق شأناً مع هذا المقيم فى الحفرة إلى جانبه .

وأشرت إلى الحفرة التى دفنت فيها بقية العظام . وقضينا الليلة التالية فى حديث متشعب عن هذه الإنسانية القديمة التى كانت منذ ألوف السنين كما هى اليوم تضطرب ولا تعرف السلام . ولما عدنا إلى القاهرة كان أول همنا أن نذهب إلى صاحب لنا من علماء الآثار ليساعدنا على كشف السر الذى تنطوى عليه الكتابة الغريبة .

وقضى هذا العالم حيناً فى فك تلك الكتابة حتى نسيت أمرها أو كدت أنساه ، لولا أن جاء صاحبى إلىّ ذات مساء وهو يلوح فى وجهى بلفة من الأوراق قائلا :

ـ ألا تذكر رحلة سيناء؟ لقد أتم صاحبنا فحصه واستطاع أن يفك رموز الكتابة الغريبة .

كانت الجلود كلها مكتوبة بالخط الشعبى الذى كانوا يكتبون به فى دواوين مصر القديمة فى عصر الإمبراطورية .

فتذكرت رحلة الصحراء والصندوق والجلود البالية المنقوشة بالخط الغريب . وسألته :

– وما هذه الأوراق فى يدك ؟

فقال : هى ترجمة عربية فصيحة .

وجلس إلى جانبى وفتح الأوراق وأخذ يقرأ :

« أنا شاؤول بن شمويل بن شمعون من عشيرة اللاويين سادة إسرائيل » .

ثم رفع وجهه إلىّ وقال باسماً :

أليس هذا اسماً جميلاً ؟

وكان شوقى إلى سماع الترجمة عظيما ، فقلت فى لهفة :

– هذه الشينات لا تعجبنى ، ولكن استمر . .

فاستمر يقرأ :

« كنت بمصر مع قومى وكنا فى أرض جاشان مهد أبى وجدى ، وكنت فى أول الأمر صاحب خاتم الأمير " راحا ترع "، ولكنى عزلت من خدمته عقب الحوادث المشئومة التى جرها النزاع الدموى بين الكهنة وبين " أخناتون" . فطردت من خدمتى ، لأننى مثل سائر قومى آمنا بالإله آتون ، الإله الواحد الذى تدين له الخلائق جميعاً . آتون الذى يشرف على الكون من سمائه ويحييه بأنواره ذات الأسرار العميقة .

« ثم وضعت بعد ذلك حول رقابنا أغلال العبودية ، وحشرنا فى البرارى لنعمل اللبن من الطين لبناء مدينة بيتوم ، تسوقنا سياط المقدمين ورؤساء العمل ذوى الأيدى الصلبة والقلوب التى تشبه خشب السنط .

« وكانت مشقة العمل تزيد من يوم إلى يوم ، وكلما مر علينا شتاء جاء شتاء آخر أشد منه برداً ، حتى امتلأت قلوبنا غيظاً وحقداً .

« ودفعنا اليأس والألم أخيراً إلى أن نضرب ونقاوم . وأخيراً تحرك رجل امتلأ قلبه بالرحمة علينا فكان يزورنا فى الليل ويواسينا . ولكنه دافع يوماً عن أحدنا فقتل رجلا مصرياً واضطر إلى الهرب .

« وكاد اليأس يغلب الأمل فى قلوبنا ، لولا أن عاد الرجل الطيب إلينا بعد غيبته ، وأخذ يدعونا إلى ترك مصر والخروج معه إلى الصحراء . وكان يجمعنا فى الليل خفية ويؤكد لنا أن وراء البرية أرضاً فسيحة ، يستطيع الناس أن يعيشوا فيها أحراراً ويعبدون الإله الذى يريدون عبادته .

« ولكن الناس كانوا يخافون من البرية ، ولا يجرؤون أن يخرجوا من أرض مصر لأنهم كانوا فى الحقيقة يخشون الجوع أكثر من حبهم للحرية. نعم ، فالناس دائماً يفضلون أن يشبعوا بطونهم على أن يعيشوا أحراراً .

« وأخيراً أمرنا الرجل الحكيم بالاستعداد للرحيل ، فخاطرنا وعزمنا جميعاً على أن نسير وراءه إلى الصحراء .

« وطلع علينا الفجر يوماً من أيام عيد الربيع ونحن نغطى وجه الأرض فى قافلة لا أول لها ولا نهاية ، وسرنا وراء الحمير التى حملنا فوقها كل ما كنا نملك من المتاع ، ولست أنكر أننا قد خدعنا جيراننا المصريين وأخذنا نحاسهم وذهبهم مدعين أننا سنردها إليهم بعد العيد . وهذا العمل سرقة

بغير شك ، ولكنه كان انتقاماً منهم لشدة غيظنا .

« وقابلنا فى هجرتنا صعاباً وشدائد، وتعرضنا لأخطار جمة نجونا منها ببركة إلهنا الذى هاجرنا من أجله ، وكان الرجل الطيب يصلى لله من أجلنا كل صباح وكل مساء لأن موسى — وهذا هو اسمه — كان محبوباً من الله . ولكنا وجدنا بعد قليل أن زادنا قد نفد ، ولم نجد حولنا زرعاً ولا صيداً . وكان الماء فى الآبار ملحاً ، فعادت الحيرة تملأ قلوبنا ، لأن الحرية التى طلبناها كانت تهددنا بالموت جوعاً وعطشاً . وصرخنا إلى موسى نطلب منه أن يعطينا خبزاً وماء ، وأعطانا موسى كل ما بقى معه فلم يكفنا إلا قليلا وصرنا ننظر إلى أولادنا وهم يبكون من الجوع والعطش وتتحرق عليهم قلوبنا جزعاً . حتى انتهى بنا الأمر إلى أن صحنا بموسى :

” أعدنا إلى مصر . فالإنسان قد يحيا مع العبودية ، ولكنه لا يحيا وسط الصحراء بالحرية وحدها “ .

« وغضب موسى وظهر عليه الاضطراب ، وصاح بنا يؤنبنا ولكن لغته كانت سقيمة لأنه لا يحسن لغتنا وكنا لا نفهم منه إلا بعض ألفاظ ، عندما كان يتكلم بلسانه المصرى .

« وجعل هرون أخوه يترجم لنا أقواله لأنه كان يجيد لساننا ، فلم نستمع إليه لأن الجوع كان يقرص أمعاءنا وبكاء أطفالنا يوجع قلوبنا . وصحنا نطلب العودة إلى مصر لنأكل من فولها وعدسها وبصلها . وفى الصباح

ذهبنا إلى موسى لنخبره بأننا سنعود إلى جاشان . فوجدناه يصلى فانتظرنا حتى فرغ من الصلاة وأقبل علينا بوجهه متهللا وقال :

" اذهبوا إلى ذلك الوادى ".

« وأشار بيده إلى جهة مشرق الشمس . ثم قال لنا :

" هناك تجدون على الأرض حباً يشبه القمح فاطحنوه واعجنوه بالزيت وكلوا منه ".

«ثم أشار إلى السماء وقال :

"انظروا إلى هذه الطيور الكثيرة التى تأتى من البحر . إنها رزق طيب فكلوا من لحومها تغنكم عن فول مصر"

« ولكن السلوى والمن لم يكونا مثل الفول والعدس ، والحرية كانت تكلفنا أن نسعى وأن نفكر . كانت الحرية ثقيلة على أكتافنا لأن الذين اطمأنوا إلى العبودية يفزعون من التفكير لأنفسهم .

«وأخيراً وصلنا فى سيرنا إلى الجبال العالية التى تغطيها الثلوج فى الشتاء وألقينا رحالنا فى " ريفيديم" وكان البرد شديداً لم نقو على تحمله بعد السير الطويل . فتساءل الناس: "هل هذه هى الحرية التى خرجنا نطلبها ؟ " ولكن موسى كان رجلا مهيباً لم يجرؤ أحد على الصياح فى وجهه .

« فما كاد يصعد إلى الجبل العالى ليناجى ربه حتى اجتمعنا ، وجعلنا نوقد النيران ونرقص وصنعنا بعض الشراب من بلح واحة " ريفيديم " ،



وصنعنا لأبييس تمثالا من الذهب الخالص وأقمنا لأنفسنا عيداً . نعم فإن العبيد ينسون ذل العبودية وهم يرقصون . ولا أستطيع أن أصف ما كان من موسى عند ما عاد إلينا ورآنا على تلك الحال . لقد غضب وحطم التمثال وأوقع بالرؤساء وجثا هرون على ركبتيه يعتذر ويتنصل من ذنبنا .

«وأمرنا موسى بالتأهب لغزو أرض " مواب " كأنه أراد أن يعاقبنا على خطئنا . فوقع علينا ذلك الأمر مثل الصاعقة . وصاح الناس :

" هل خرجنا من مصر لكى نحارب ؟ هل معنى الحرية أن نحارب ونموت ؟ "

« فانفجر موسى غاضباً وقال :

" إن الحرية أغلى ما يملك الإنسان فى الحياة ، فحاربوا لكى تكونوا أهلا لها " .

« ولكنا لم نفهم أقواله . وقعدنا على الأرض عازمين على العصيان. وقال بعضنا له فى وقاحة :

" اذهب أنت وربك فقاتلا " .

«فغضب موسى غضباً لم يسبق له مثله ، وصاح بنا :

" أيها العبيد ، إنكم قد نشأتم فى الذل فلا تعرفون الكرامة ، وعشتم فى الخسف فلا ترون فى الحياة ظلماً تأبونه . إن دمكم لايحمى ولايعنيكم إلا الطعام . فعودوا إلى مصر وارجعوا إلى فولها وبصلها وعدسها وإلى عبوديتكم فيها . لن يفهم جيلكم هذا للحرية معنى ، لأنه لايعبأ إلا بالطعام. فهأنذا سائر إلى الأمام ولمن شاء منكم أن يرجع إلى مصر . ستبقون حيارى حتى ينقرض هذا الجيل وينشأ جيل من بعده يستطيع أن يدرك قيمة الحياة الحرة وعند ذلك يستطيع الأحرار غزو أرض مواب "

«ولما انتهى موسى من قوله سار مسرعاً وأمر بالرحيل ضارباً فى البرية على غير هدى .

«ولقد كنت أحب موسى وأجلّه ، وكنت من أكثر الناس عطفاً عليه وتقديراً لآرائه ، ولكنى شعرت عند ذلك بالغيظ يملأ قلبى . فقد كنت من

بنى لاوى سادة إسرائيل فكيف يصبح بنا هكذا ؟ ولما رأيت الناس يسيرون خلفه ثارت ثائرتى عليهم وصحت فيهم :

ـ "إنكم عبيد حقا".

« وعزمت على مفارقتهم .

«وجاءت إلى امرأتى ليلا فرأتنى أتململ ولا يجد النوم سبيلا إلى جفنى ، فسألتنى عن سبب اضطرابى فأعلمتها السبب وأخبرتها أنى عزمت على مفارقة موسى . وكانت المرأة حاقدة على موسى لأنه لم يعد إليها حليها التى وهبتها لتكون زينة لتمثال أبيس يوم العيد المشئوم ، فما كادت تسمع قولى حتى أخذت تشجعنى على مفارقة موسى والعودة إلى مصر ، وجعلت تتدفق بعبارات حانقة على من كان السبب فى خروجنا إلى الصحراء .

« فما طلع الفجر حتى كنا فى الطريق إلى أرض جاشان .

«ولكن أواه ! إننى أستحق كل ما وقع علىّ من عقاب الله . لقد تركت موسى ، ودفعتنى الكبرياء إلى مفارقة الرجل الذى كان يريد لى الحرية والكرامة فماذا وجدت عند فرعون ؟ لقد قبض على حراس فرعون هنا .

« إننى الآن فى هذه الحجرة المظلمة ، أجلس فى انتظار كلمة من فم الظالم الذى قبض على ، ويمر فى خاطرى كل ما وقع لى فى الشهور الثلاثة الأخيرة ، كما تمر حوادث الماضى أمام عين الغريق . لقد أخذوا امرأتى

وأبنائى وساقوهم إلى حياة الذل ، ليكونوا عبيداً وإماء ، وأما أنا فلست أنتظر سوى العقاب العادل الذى قدره على " أدوناى " الإله المنتقم ، لأنى لم أفضل الجوع والخوف على العبودية .

«الموت آت بلا شك ويا ليتنى بقيت حرًّا وقابلت الموت حرًّا .

«إننى أسمع ضجة عندباب حجرتى ، وها هو ذا المفتاح يصر فى ثقبه . »

وإلى هنا انتهت القصة ونظر إلى صديقى متأثراً ونظرت إليه صامتاً وعدت بخيالى إلى ذلك الوادى البعيد فى الصحراء حيث وجدنا الصندوق والجثة وسبحت فى عالم بعيد أتصور ذلك السجين المسكين وهو يستقبل الداخلين عليه فى حجرته المظلمة ، التى لم يبق منها أثر فوق الرمال .

المعجزة

« الإيمان دائماً يهب السلام للقلوب ،
وإن كان بمعبود مزيف »

كان القارب يشق ماء النيل الصافى الضارب إلى الخضرة وينزلق مسرعاً مخلفاً وراءه خطاً أبيض من الرشاش فوق رءوس الأمواج المضطربة ، وكانت أغانى النوتية تناغم ضربات المجاذيف وتتماوج على الهواء الهادئ الذى يخفق فى أذيال العلم الأصفر المرفوع فوق المظلة البيضاء فى مؤخر القارب .

وجلس « ستنامر » تحت المظلة صامتاً ، وقد وضع ذقنه على يده متكئاً به على ركبته اليمنى ينظر نظرة جوفاء إلى الماء ، وإلى المجاذيف التى تشق سطحه . ولكنه لم يكن فى الحقيقة ينظر إلى الماء ، ولا إلى المجاذيف . ولم تكن أغانى النوتية المتكررة تسترعى انتباهه ، لأنه كان غارقاً فى تأمله تسرح أفكاره نحو الدار التى مازال يقطع نحوها الأميال واحداً بعد واحد منذ ركب القارب من قصر فرعون رمسيس الثالث فى شرق الدلتا .

هناك فى الجنوب كانت أمه «حاتاسو» سليلة بيت «رمهات» العريق وهو بيت أنجب سلسلة مجيدة من الأبطال الذين رفعوا أعلام مصر فى أركان

العالم ، وكان آخرهم جده القائد المظفر «رمهاتى » الذى شتت شمل الشردن فى غرب الدلتا فى أيام «رمسيس» الكبير «الثانى» : كان ستنامر يحس حنيناً عميقاً إلى هذه الأم الكريمة ، التى لم يكن لها فى العالم سواه ، وهى مع ذلك تقيم وحدها فى قصرها المنعزل فى ضواحى طيبة راضية بفراق وحيدها ، وتدعو آمون صباحاً ومساء أن يمهد له سبيل المجد كما مهده لأجداده من قبل ، حتى يحفظ علم بيت « رامهاتى » خفاقاً على تعاقب الأجيال .

ولكن أفكار ستنامر كانت أيضاً تحوم حول صورة « تويا » فى الأصباح والأمسيات ، فى اليقظة والحلم ، تويا الجميلة سليلة بيت فرعون أمنحتب العظيم .

نشأت تويا معه منذ الصبا عند ما كانا يمرحان معاً فى الحديقة اليانعة المحيطة بقصرى أسرتيهما العريقتين المتجاورتين ، وطالما تجولا معاً فى حقول البرسيم أو القمح ليترصدا للسمان أو ليصطادا الفراش العجيب الألوان .

وقد بقيا على مودتهما العميقة حتى اضطر ستنامر إلى مغادرة طيبة ليشارك فى حروب مليكه رمسيس الثالث تاركاً أمه وعزيزته تويا وقضى بعيداً عن وطنه ثلاث سنوات طويلة لم يجد فى خلالها من الوقت ما يتيح له الفرصة لزيارة وطنه والإقامة فيه حيناً بين ظهرانى أهله ورفقاء صباه .

لقد مرت هذه السنوات الثلاث وما كان أطولها عليه وأقصرها ! كانت تطول عليه كلما خلا بنفسه فى الليالى وتذكر أحبابه الذين فارقهم ،

وكانت تقصر وتمضى سراعاً عليه وهو يضرب فى الأفاق لايكاد يستقر فى مكان . فكان إذا أرخى الليل سدوله وأوى إلى خيمته يطلق العنان لخياله فيحمله إلى أحبابه فى عالم الوهم . وكانت صورة تويا الثاوية فى صدره تسعده بنجواها وتعلله بحلو الأمانى . فكم أزالت هذه الصورة وحشته وهو فى الصحراء الغربية البعيدة عند « جبل قرون السماء » .

وكم آنسته هذه الصورة وهو فى خيمته عند جبال « حوران » بالشام أو فى أودية فلسطين .

كان ستنامر إذا اطمأن فى خلواته يخرج من جعبته تمثال إيزيس المقدسة ويتأمل جمالها البارع بقلب خاشع خافق . ويصلى لها طالباً أن تحمل السلام والسعادة إلى قلوب أحبابه حيث يقيمون . وكانت صورة تويا ، تلوح له دائماً فى ملامح تمثال إيزيس فتملأ روحه بهجة وأملا .

جلس ستنامر فى مؤخرة القارب يفكر فى تلك السنوات التى مرت به وكان بين حين وآخر يتنفس نفساً عميقاً ويفيق إلى نفسه فيبتسم ابتسامة ضئيلة ، ويقول لنفسه :

– ماهى إلا أيام قليلة أخرى ثم أجتمع بالأحباب .

ومضت الأيام بطيئة ثم ظهرت له أخيراً عند الأفق قبل المساء جزيرة كأنها تسبح طافية فوق الماء . وكان النخيل الباسق يصعد من سطحها

ضارباً فى السماء برءوسه ويتمايل فى رشاقة مع هبات النسيم . وكان ستنامر يعرف هذه الجزيرة منذ الصبا ، فلقد طالما اصطحبه أبوه الأمير « أمنمرى » للصيد فيها بعد هبوط مياه الفيضان .

وجعل يتأمل حسن منظرها وقد كساها العشب والشجر الملتف وعادت إليه ذكرى الصبا الحلوة كأنها ذكرى الأمس القريب .

وفيما كان غارقا فى تأمل صور ذلك الماضى سمع ضجة النوتية وهم يصيحون : « معبد آمون » !

فأسرع خارجاً من تحت المظلة ووقف ينظر إلى المعبد المشرف على النهر وخشع قلبه عندما اتجه بالصلاة إلى آمون .

وكان البدر يقترب من كبد السماء عند ما وصل ستنامر إلى قصر أمه وألقى نفسه بين ذراعيها .

وأخذت الأميرة « حاتاسو » أم ستنامر تقص عليه أخبار السنوات الثلاث التى مضت ، وكانت الأخبار كلها تثير نفسه ، فما أعجب تقلب أمور الحياة وأسرعها ! كان بعيداً يذرع الأرض من المشارق إلى المغارب ، وكان الأهل والصحب جميعاً مقيمين فى العاصمة الكبرى ، ولكن اضطرابه فى الآفاق لم يكن بأعظم من اضطرابهم مع صروف الأيام . أما الصغير فقد كبر وأما الكبير فقد مضى عن الأرض ، وأما المال فقد تداولته الأيدى كما يتلقف الصبية الكرة بعضهم من بعض . كل شىء يتبدل ويتغير سوى

« رع » الخالد «حورماخيس» ، فهو دائماً يشرق كل صباح على الأرض ، ويغرب كل مساء ذاهباً إلى العالم الآخر فى إقليم « يارو » . وأخيراً سأل ستنامر أمه عن تويا ، لأن أمه لم تذكر شيئاً عنها .

ونظرت الأم نحوه فى فزع عندما سمعته يسألها عن الفتاة فى لهفة يشوبها شىء من الضجر . كان ذلك السؤال صدمة أصابت الأم فجأة على غير انتظار فزعزعتها . . فسكتت لحظة وأرادت أن تحول عينيها عن نظراته ، ثم قالت بصوت خافت حاولت أن تمسك زمامه :

ـــ تويا بخير يا ولدى .

ولكن ستنامر أعاد سؤاله فى إلحاح قائلا :

ـــ كيف حالها يا أماه؟ خبرينى ! هل من شىء أصابها ؟ إنك بغير شك تخفين شيئاً من أخبارها عنى .

فبادرت الأم ومدت يدها إلى رأسه تمسحه وقالت فى تردد :

ـــ بل هى بخير يا ولدى . . .

فقال فى ضجر :

ـــ عزمت عليك يا أماه أن تحدثينى طويلا عن تويا !

فأخذت الأم تقص عليه قصة طويلة . . . كانت تويا بغير شك كريمة النفس لا تزال باقية على مودته حافظة عهده وتبكى ليلا ونهاراً فى خلواتها حتى اعتراها السقم . وقد أصبحت طريحة الفراش فلا الدواء يشفيها ولا مباهج الحياة تسليها . كانت تنحدر إلى الموت ولكنها لم تستطع أن

تقاوم إرادة أبيها ؟ وهل كان أبوها يجرؤ على رفض مصاهرة السيد العظيم « مرِي » الذى كانت البلاد تهتز إذا ذكر اسمه ؟

ولما انتهت الأم من قصتها مرت بيدها على رأس ولدها المطرق لتواسيه ، وكانت تتمنى لو استطاعت أن تبلغ بيدها شغاف قلبه فتمسحها من ذلك الحب الذى لا أمل فيه . ولم يتكلم ستنامر ولم ينطق بشكوى ، ولكن أمه كانت تستطيع أن تقرأ ما فى أعماق قلبه من شعور الخيبة والحنق . كان موعد زفاف تويا على القائد الكبير « مرِي » بعد أسبوعين اثنين ، وكان رئيس الكهنة نفسه يشرف على دقائق رسوم الاحتفال فى معبد أمنحتب الرشيق القائم على الشاطئ الشرقى من طيبة . وقد أعد الزوج النبيل لذلك اليوم مهرجاناً رائعاً يليق بمكانته الكبرى . وهل كان هناك من هو أمجد من قائد الكتيبة اللاوبية فى جيش الملك ؟ لم يكن فى الجيش كله من هو أقرب منه إلى قلب الملك العظيم رمسيس الثالث حتى لقد ائتمنه على إقليم العاصمة الكبرى وجعله حاكماً عامًّا عليه .

وكان « مرِي » عملاقاً يرفع رأسه كالمسلة الباسقة ، فإذا لبس سلاحه كان مثل إله الحروب . وكان يسير أحياناً فى طليعة كتيبته اللاوبية ليعرض هيبة الملك على رعاياه من أهل طيبة . فإذا رآه الناس خشعوا وتذكروا بأس فرعون العظيم .

وكان مرِي يوقع الرعب فى القلوب بهيبته وبعينيه الزرقاوين اللتين تشبهان عينى الفهد .

وكان أحياناً يبتسم إذا سمع تحية من بعض المتزلفين الذين كانوا يتقربون إليه بالهتاف والدعاء ، ولكن الابتسامة كانت تلوح على فمه مرعبة كأنها على وجه نمر تظهر من تحتها ثناياه البارزة إلى الأمام ، على حين تبقى عيناه الزرقاوان ناظرتين إلى الأمام فى جمود مخيف .

وذهب ستنامر عقب سماع القصة المحزنة إلى مخدعه فاعتكف فيه ، ولم تستطع أمه أن تخفف من وقع النبأ عليه برغم عطفها ومواساتها . حقاً إنه لم يجهر بالشكوى ولم يظهر الجزع ولكن منظره كان ينم على ما فى قلبه من اليأس. ولقد ضاقت الحياة أمامه وخيل إليه أن الآفاق تريد أن تنطبق عليه من الشرق والغرب ، فلا تدع لأنفاسه متسعاً فيما بينها . وغمر الشقاء أمه « حاتاسو » واتهمت نفسها بأنها كانت السبب فى يأس ولدها الحبيب ، وجعلت تحاسب نفسها حساباً عسيراً على أنها لم تخف عنه النبأ القاسى حتى لا تحطم قلبه ، وأنها صدمته صدمة شديدة هدمت آماله فى مثل لمح البصر. وأخيراً لم تجد الأم حيلة لتخفف بها من آلام نفسها وآلام ولدها إلا أن تذهب إلى معبد أمنحتب للصلاة عند محراب « آمون » .

وكان الكاهن « أمنميس » رئيس المعبد شيخاً مباركاً يعرف الجميع أنه حبيب آمون وأنه قديس يوحى إليه بالرؤيا الصادقة ويكشف له الغيب فى لمحات واضحة .

ولما قضت حاتاسو صلاتها عند محراب المعبد ، جلست حزينة تناجى

الإله الرحيم فى حرارة ، وتناشده أن يلطف بولدها فى غمرة حزنه . وفيما هى فى نجواها أقبل نحوها الشيخ الكاهن كأنه قد جاء يلبى نداءها . وما كادت تراه حتى أحست كأن نوراً ينبعث إلى قلبها. وأفضت إليه بآلامها وآلام ولدها وسألته أن يهديها إلى سبيل الخلاص بوحيه الميمون . وأخذ الشيخ يعبث بلحيته البيضاء ، وهو يستمع إلى حديثها فى هدوء ، فلما أكملت شكواها أطرق ساعة ، ثم رفع رأسه فى بطء ونظر نحوها مبتسماً وهو صامت .

فمدت الأم يديها مبسوطتين نحوه فى لهفة وضراعة ، وأحست أن الشعاع الذى أضاء قلبها قد أخذ يسطع ويزهر . وقالت وقلبها يخفق :

— أيها الشيخ المقدس ! هل من أمل فى الخلاص ؟

فهمس لها قائلا :

— انتظرى معجزة آمون .

وأشار بإصبعه إلى شفتيه يأمرها بالتزام الصمت ، ثم مضى عنها فى هدوء ، وكانت حاتاسو مؤمنة طيبة القلب ، فخرجت مسرعة تكاد تثب فى سيرها ، واخترقت الحديقة الفسيحة التى حول المعبد ثم سارت فى الطريق مهرولة حتى وصلت إلى بيتها ، وذهبت إلى مخدع ولدها فوجدته على سريره حزيناً مثلما تركته . فأسرعت نحوه باسمة ، وارتمت عليه وضمته إلى صدرها قائلة فى صيحة مكتومة :

– « انتظر ياولدى معجزة آمون » .

ثم رفعت إصبعها إلى شفتيها تأمر ولدها بالانتظار والصمت .

واقترب يوم الزفاف قبل أن تحدث المعجزة، ثم تمت رسوم الاحتفال بالعقد المقدس الذى سوف يربط مربى وتويا ، وتحركت طيبة تستعد للاحتفال الباهر ، وأعد علية القوم من رجال ونساء أبدع الملابس الزاهية من الكتان الملون ، استعداداً لمشاركة السيد العظيم مربى فى احتفاله ، ولم تستطع حاتاسو نفسها أن تمتنع عن الا ستعداد لإجابة الدعوة . وحل يوم الزفاف آخر الأمر وذهب الجمع إلى المعبد وكانت حاتاسو تحس كأنها تحمل فى صدرها عبئاً ثقيلا عندما تركت ولدها ستنامر فى فراشه حزيناً ، لتذهب إلى الاحتفال، وهى تكاد تكفر بآمون الذى وعد بالمعجزة ولم يستطع الوفاء بوعده .

ومالت الشمس نحو الغرب وصبغت أرجاء الأفق بألوان القرمز والذهب واللهيب . وسار مربى فى موكبه العظيم إلى المعبد ، وكان يركب عربته الحربية فى الطليعة ، وقد لبس سلاحه كاملا ، ووقف ممسكا بأعنة الجياد ناظراً إلى الأمام جامداً ، فاتحاً عينيه الزرقاوين الباردتين ، لايلتفت إلى يمين ولا إلى يسار . وكانت العامة من الشعب مصطفة على جانبى الطريق تنظر إلى الموكب الباهر فى صمت ووجوم .

ودخل مربى أخيراً إلى المعبد رافعاً رأسه فى كبرياء وذهب نحو قدس



الأقداس ليلقى الكاهن الأعظم، ولكنه ما كاد يبلغ الباب المؤدى إلى المحراب حتى اعترضه رسول فرعون ومد إليه يده بطومار من ورق البردى ، ثم انحنى ووقف ينتظر فى خشوع حتى يقرأ القائد العظيم خطاب فرعون . وفض مربى ختام الطومار الذهبى ، ثم قرأ مافيه وكانت عيناه تريدان اتساعاً وقسوة كلما قرأ سطراً بعد سطر . حتى إذا فرغ من قراءة الخطاب ارتعشت

يداه وسقطت من بينهما لفافة البردى إلى الأرض . فانحنى الرسول ورفعها ووضعها عند رأسه ، ثم دسها فى منطقته الفضية .

ثم بسط يده مشيراً إلى مخدع قدس الأقداس وقال مخاطباً مربى :

ــ هل لسيدى القائد العظيم أن يتقدم مطيعاً أمر فرعون ؟

فنظر إليه مربى نظرة ثائرة ، والتفت حوله لفتة سريعة ، ثم تقدم فى حنق سائراً نحو المخدع المظلم الذى فيه قدس الأقداس .

وذهب رسول فرعون وراءه حتى دخل ، ثم أغلق خلفه الباب قائلا .

ــ لن تغيب عنك أوامر فرعون العظيم يامولاى .

ثم ضم الرتاج النحاسى الثقيل ومضى عائداً نحو ساحة المعبد حيث كان الضيوف ينتظرون . فقال لهم بصوت هادئ :

ــ إن مربى ينتظر أمر فرعون . إنه خائن يستحق العقاب !

وكأن صاعقة قد انقضت على الجمع عند ذلك ، وعلت ضجتهم صاخبة ، واضطربوا واختلطوا وتزاحموا على الأبواب يلتمسون الخروج كأنهم يهربون من كارثة . وتعالت أصوات من بينهم قائلة :

ــ إنه خائن بلا شك ، إنه يتآمر على مولاه .

وذهبت حاتاسو إلى الكاهن « أمنميس » الطيب لتقبل يده فى خشوع وتشكره على صدق نبوءته ، ولتصلى عنده للاله آمون بقلب مفعم بالإيمان .

فوجدت عنده رسول فرعون فى خلوة ، فلم تطل وقوفها وعادت إلى البيت لتحمل البشرى إلى ابنها السعيد .

وذاعت فى طيبة بعد حين قصة القائد الليبي الجرىء، الذى أراد أن يتزوج تويا سليلة بيت أمنحتب العظيم ، كى يصير أهلا للملك ، بعد أن يزيح الدخيل فرعون رمسيس الثالث عن العرش . وكاد يبلغ مشتهاه لولا أن أفسد الكاهن المخلص أمنميس مؤامرته قبل أن تستحكم حلقاتها .

ولكن حاتاسو كانت كلما سمعت تلك القصة هزت رأسها فى صمت وتبسمت بسمة خفيفة . وكانت فيما بعد لاتنسى أن تذكر ولدها وزوجه تويا بالذهاب إلى معبد آمون ، لكى يؤديا واجب الصلاة عند محرابه ، شكراً له على المعجزة البارعة .

مينا الأثريبي

« الكبرياء المحطمة تستطيع أن تنتقم
ممن حطمها »

كان الضوء يؤلم عيني السجين كلما فتح باب سجنه المظلم ، لطول ما أقام في تلك الحجرة الصغيرة الرطبة ، كانت الحجرة أشبه شيء بجحر أو جب لافتحة له إلا ذلك الباب الضخم العتيق الخشبي ، الذى كلما فتحه السجان صرّ صريراً عالياً . فإذا فتح تدفق منه نور يهوى إليه من كوة فى أعلى البرج الذى فوقه ، وكان ذلك النور يطعن عيني مينا بن حنا ، فيضع يده عليهما ، فلا يرفعها إلا شيئاً بعد شيء .

كانت السنوات الخمس التى قضاها مينا فى سجنه بحصن بابليون قد غيرته ومسخت هيئته. كان قبل أن يدخل ذلك السجن شاباً تمتلئ الأعين من حسن منظره وروعة هيئته ، فإذا ما جاء من قصره الريفى فى أثريب إلى مدينة مصر الكبرى رج الأسواق بما يبيع فيها وما يشترى منها . فإذا ماركب بغلته الشهباء الفارهة خارجاً من الأسواق ، قام له أصحاب المتاجر وأحنوا له الرءوس وتطلعوا فى أثره إلى قامته الدقيقة الفارغة وهو رافع الرأس فى ثيابه

الكتانية الموشاة بالذهب . وكان لعينيه بريق خاطف كأنه وميض البرق فى حاشية السحاب .

ولكن ذلك الجمال قد خبا وذبل كما يذبل العود الأخضر تحت لفح رياح الخماسين ، وأصبح مينا يلوح كهلا أصفر اللون أشعث الشعر طويل اللحية غائر العينين ، وانحنت قامتة المعتدلة وثقلت رجلاه ، وضعف صوته المليء حتى صار إذا نطق بكلمة تلفت حوله فى فزع كأنه يسمع صوتاً غريباً منكراً .

ولم يعرف مينا الأثريبى سبباً لقذفه فى ذلك السجن الفظيع ، لأنه لم يكن معادياً للسادة الروم حكام البلاد ، ولم يكن ممن يحبون الفضول فى أمور السياسة ، ولم يكن ممن تؤخذ عليهم المآخذ فى مشاحنات الحزبين الأخضر والأزرق ، ولا فى مناقشات المذهبين الدينيين اللذين فرقا أهل البلاد وأوقعا بينهم العداوة . وقد عجب الناس أشد العجب عندما سمعوا بنكبته المفاجئة ، ولكن لم يجرؤ أحد أن ينطق باسمه خوفاً من بطش الحاكم الصارم قيرس المقوقس الذى كان لا يعرف الهوادة فى معاملة من تتجه إليهم شكوك جواسيسه .

وكان يوماً من أيام الشتاء الباردة عند ما فتح باب الحجرة على مينا ، ودخل الضوء إليه . وكانت نفسه فى ذلك اليوم خائرة ، فلم ينهض من مكانه على الأرض الرطبة ، بل أغمض عينيه وأدار وجهه عن الباب ،



وانتظر لحظات ريثما يتحمل بصره الضوء فى بطء وحذر . ولكنه سمع السجان يناديه :

ــ قم معى يامينا بن حنا . قم وأسرع فإن الأمير ينتظرك .

فتمتم الرجل فى ضعف :

ــ أما من رحمة فى قلوبكم ؟ إننى لا أكاد أقوى على الوقوف أيها المسيحى .

فصاح السجان الرومى :

ــ قم سريعاً . أما تسمع ؟

فتحرك مينا حركة قلقة فى مكانه ، ثم نهض واقفاً وهو يترنح ، ومد يده إلى الجدار يتوكأ عليه حتى استقام ، ثم التفت إلى السجان وقد فتح عينيه وتغير مظهره فجأة ، فاحمر جبينه ومد عنقه كأنه يريد نضالا ، ثم نطق بصوت أجش فقال :

ــ لن أذهب إلى العذاب بقدمى مرة أخرى . اذهب إلى أميرك ، فقل له إننى أمقته . فليحمل آلات العذاب إلى هنا على عاتقه إذا شاء .

وكانت لحيته الغبراء التى صبغها السجن شيباً تهتز فى عنف ، وعلا صدره بالأنفاس وارتفع رأسه حتى كاد ظهره المقوس يعتدل . فوقف الرومى حيناً صامتاً ينظر إليه فى دهشة ثم قال بصوت حانق :

ــ ماذا تقول أيها الأحمق ؟ إن الأمير يدعوك .

فصرخ مينا :

ــ اذهب إليه فأبلغه أننى أمقته . لن أذهب إليه على رجلى . قل له إننى أود لو استطعت أن أمزق أعضاءه !

فقال السجان رافعاً صوته :

ــ ماذا حدث بك يا مينا بن حنا ؟ هل ذهب عقلك ؟ أتريد أن أقول للمقوقس إنك تمقته وإنك تريد أن تقطع أوصاله ؟ !

فصرف الرجل وجهه عن السجان ، ثم سار خطوتين يهتز فى مشيته متجهاً نحو ركن الحجرة .

فاقترب السجان منه ووضع يده على كتفه برفق ، وقد دبت فى قلبه هزة من الشفقة وقال له :

– هلم معى وكن هادئاً . فإن الأمير الأعظم قيرس يريد أن يراك .

فالتفت مينا إليه لفتة مترددة وقال له :

– يريد أن يرانى ؟

فهز السجان رأسه وقال له :

– نعم . لقد قلت ذلك مراراً فلم تسمعنى !

فأطرق مينا لحظة وهو صامت ، ثم رفع رأسه وتنفس نفساً عميقاً وهو يغمض عينيه ، كأنه يريد أن يبعد عن نظره صورة كريهة . وسار وراء السجان وفى قلبه شجون مضطربة يدفع بعضها بعضاً .

* * *

وكان المقوقس فى حجرته الفسيحة فى أعلى الحصن ، يشرف على النهر وقد فاض ماؤه الأغبر على الحقول التى حوله إلى أطراف الأفق ، فصارت الأرض كأنها بحيرة عظيمة لاتظهر فيها من المعالم إلا قرى منثورة ، كأنها نقط سوداء تجرى بينها جسور سوداء ، تبدو من بعيد مثل الخطوط المستقيمة رسمها مهندس فوق صفحة بيضاء .

وكان القلق بادياً على وجهه ، ويتحرك بين حين وآخر حركة مضطربة متجهاً بنظره إلى الجزيرة الطويلة الممتدة إلى الشمال من وراء مجرى النهر .

وقد ضربت عليها خيام مختلفة الألوان بين سمراء وغبراء وبيضاء وحمراء ، موزعة مثل الأكواخ بين حشائش الجزيرة وأشجارها . ودخل عليه جورج قائد الحصن مسرعاً فحياه ووقف حياله حتّى أذن له بالجلوس ثم سأله :

ــ هل آن له أن يجيء ؟

فقال جورج جاهماً :

ــ نفذت أمر مولايِ فهو الآن يستعد للمثول بين يديك .

فتنفس قيرس وقال فى نغمة حزينة :

ــ ألم تغير رأيك بعد يا جورج ؟

فحرك القائد رأسه متردداً وقال :

ــ لم أغير رأيي ولا أظنه يستطيع أن يصفو لنا بعد ما ناله من أذى على أيدينا . إنه من هؤلاء المصريين ذوى الرؤوس الصلبة الذين أتمنى لو استطعت أن أشنقهم جميعاً .

فقال قيرس :

ــ لست أنكر ما فى قولك من حق . إنه مصرى عنيد مثل قومه ، ولكن ماذا عساه يفعل إذا أنا خاطرت فأرسلته ؟

فقال جورج :

ــ إذن يزيد أعداؤك واحداً فى خارج الحصن .

فعبس قيرس وقال فى حقد :

ـ لو استطعت أن أفنى هؤلاء المصريين جميعاً لفعلت كما تريد يا جورج ،ولكنى لا أستطيع ذلك ويا للأسف. سأخاطر لأننى لا أتوقع ضيقاً أشد مما نحن فيه . سأخاطر فأخرجه معى هذه الليلة ، ولا أظنه يجرؤ على مخالفتى مادامت أمه وزوجه رهينتين هنا .

فطرفت عينا جورج طرفاً سريعاً ولم يجب . وأحس قيرس أن ذلك الجندى الخشن الذى أمامه مايزال يخالفه فى الرأى . ولكنه ملك نفسه وتبسم قائلا فى لهجه مرة :

ـ إنكم معاشر الجنود لاتعرفون إلا حسم الأمور بالعنف ،ولكنى قد وجدتكم لاتستطيعون أن تهزموا هذه الشراذم الضئيلة من العرب .

قال هذا وأشار إلى الخيام المنثورة بين الحشائش والشجر فى الجزيرة. فانتفض جورج واحمر وجهه ، ولكنه لم يرد بكلمة .

واستمر قيرس قائلا :

ـ سأذهب الليلة إلى لقاء وفدالعرب فى الجزيرة. سأحاول أن أصرفهم عن البلاد بالحيلة أو بالرشوة ولكنى أحب أن يكون الأمر سرًّا فإياك أن يتسرب الخبر إلى خارج الحصن . أسرع بإحضار مينا فليس أمامنا من سبيل آخر. سأرسل مينا إلى بنيامين لنواجه العرب صفًّا واحداً .

فحيا جورج وخرج من الحجرة مسرعاً .

وبعد قليل جاء مينا وكان وجهه نحيلا حائل اللون ناتئ الوجنتين

غائر العينين كأن وجهه المعروق عظام جمجمة . فاستقبله قيرس واقفاً مرحباً وأجلسه على مقعد وثير مغطى بالكتان المزركش على مقربة منه ، وأخذ يلاطفه فى الحديث معتذراً إليه عما أصابه من الأذى ، وصرح له بعزمه على إيقاع العقوبة بالوشاة الذين سعوا به ورموه بالأكاذيب . وقال له :

ـ سيعوضك قيصر عن كل ما أصابك فى مالك ونفسك ، وأنت ما تزال شاباً والأيام واسعة أمامك تنسيك كل الآلام .

فتنفس مينا نفساً عميقاً ولمعت عيناه بومضة براقة ، والفت رأسه لفتة سريعة ، ولكنه لم يجب بل عاد وأطرق صامتاً وصدره يضطرب بأنفاسه .

فقال له المقوقس :

ـ لقد آن لهذه البلاد أن تتحد وتعرف فى داخلها السلام . أنت تعرف يا مينا بن حنا أن هذا الانقسام الذى نعانى آثاره اليوم هو الذى يجرئ علينا هذه الوحوش التى جاءت تجوس خلال ديارنا .

فرفع مينا رأسه ببطء وقال :

ـ لست أفهم شيئاً . .

لقد قضيت خمس سنوات فى السجن المظلم ، وكأنى منطوٍ فى قبر لاصلة لى فيه بالأحياء . لست أفهم ياسيدى ما تقول .

فقال المقوقس معبساً : هذه المنازعات التى بيننا قد أطمعت فينا أضعف الشعوب وأفقرها . ألا تعجب أن يأتى العرب إلينا يطلبون غزونا ؟

فقال مينا فى دفعة غضب :

ــ وماذا تريد من جثة هامدة ؟ ماذا تريد من هيكل محطم ؟ ماذا تريد بتوجيه هذا الحديث إلىّ ؟

قال قيرس ملايناً :

ــ نحن الآن أمام هؤلاء الأغراب الذين يهددوننا جميعاً .

فقال مينا بصوت ضعيف :

ــ يهددوننا ؟ أيهددوننا بالسجن ؟ أيعذبوننا بالسياط والنار والعقارب ؟

فقال قيرس وهو يحاول الهدوء :

ــ هذه بلادك يامينا بن حنا . وقد جاء هؤلاء الجياع ليأكلوا طعامكم ويسكنوا مساكنكم ويزيلوا عقيدتكم .

فاندفع مينا قائلا :

ــ من أجل عقيدتنا نسجن ونعذب . وأما الطعام والمساكن فلم يبق لنا ما نحرص عليه ياقيرس . قل لى ماذا تريد بإحضارى إلى هنا ؟

فصمت قيرس واحمر وجهه ولكنه تماسك وقال فى هدوء :

ــ هذه الأحقاد القديمة فرقت بيننا وجعلتنا أعداء يا مينا بن حنا. نحن الآن أمام عدو مشترك يريد أن يقضى علينا جميعاً . أليس الروم أقرب إليكم من هؤلاء الذين لايعرفون المسيح يامينا ؟

فأطرق مينا صامتاً وكان وجهه النحيل يشبه وجه جثة محنطة . ولما رفع رأسه بعد حين نظر إلى قيرس بعينين تلمعان ببريق خاطف وارتد

شيء من اللون إلى وجهه وقال :

ــ أريد أن أعرف ماذا تريد مني ياسيدى ؟

فقال المقوقس :

ــلا أريد منك إلا خدمة قومك ووطنك. أعرف أنك من أشرف أهل هذه البلاد وأكرمهم وأشجعهم . ولولا أكاذيب الوشاة لما أقدمت على شيء يضرك يامينا بن حنا . إننى آسف ومتألم لأننى اضطررت إلى أن أقبض عليك وأحتفظ بك هنا . السلام والأمن والاستقرار لاتسمح بالتساهل . ولكن الظروف تغيرت والمصلحة العامة تقضى علينا جميعاً أن ننسى الماضى وننسى كل شيء إلا الدفاع عن هذه الأرض من أجل المسيح .

فقال مينا فى هدوء :

ــ وماذا أستطيع ؟

فأسرع قيرس قائلا :

ــ أشكرك على سؤالك هذا يامينا بن حنا . هكذا كنت أعتقد فيك عندما دعوتك إلى هنا . أنت تستطيع أن تؤدى لوطنك خدمة جليلة، لأنك من أشراف القبط ، ولأنك فوق هذا صديق لبنيامين .

فاندفع مينا قائلا : من هو بنيامين ؟ أتقصد الأب المبارك البطريق ؟

فقال قيرس متماسكاً :

— نعم البطريق اليعقوبى بنيامين . بنيامين الذى كان السبب فى كل ماحدث من الاضطراب والاصطدام ، ولولا مخالفته وإصراره على العناد لما وصلنا إلى هذا الذى وصلنا اليه .

ولكن دعنا من الماضى . يجب أن يعود السلام إلى صفوفنا إذا أردنا مقاومة هذا العدو المخيف .

وكان مينا ينظر إلى يديه النحيلتين وهو صامت ويقبض أصابعه وينشرها فى شىء من الاضطراب .

واستمر قيرس قائلا :

— لست أشك أنك تقدر على الوصول إلى بنيامين . أنت من أقرب أصحابه إليه ولن تجد صعوبة فى معرفة مكان اختبائه. ولست أطلب منك إلا أن تحمل إليه نبأ ساراً فيه خير له وللجميع . هذا كتاب قيصر إليه بالعفو عن كل ما سلف . فما رأيك فى إيصال هذا الكتاب إليه ؟

ومد يده إلى منضدة فأخذ قرطاساً ملفوفاً بقطعة من الحرير المذهب ورفعها نحو مينا .

ولكن نظرة مينا الجامدة لم تتغير وبقى ثابتاً فى مكانه .

فاستمر قيرس قائلا فى ابتسامة متكلفة :

— أنت ما زلت شاباً يامينا بن حنا . سنرد كل أملاكك إليك ، وكل الأموال التى صودرت تعود إليك . وأنت تعلم أن قيصر يعرف كيف

يكافئ أصدقاءه . ولكن الأهم من كل هذا أننا فى ساعة حاسمة تحتاج إلى أن نقف جميعاً صفًّا واحداً. وإذا عاد بنيامين إلينا ووضع يده فى أيدينا لم يجد هذا العدو ثغرة يطعننا منها ويقضى على استقلالنا . أظنك لن تتردد فى الذهاب إلى بنيامين . . .

فانتفض مينا قائلا :

ــ أهكذا تتحدث عن الأب المقدس . أهكذا تعيد علىّ اسمه قائلا بنيامين ؟ ألا فاعلم أنه هو الأب المقدس بطريق القبط ياقيرس .

فاستمر قيرس قائلا فى جمود :

ــ هذا خلاف لفظى بسيط يامينا بن حنا . هو إذا شئت الأب المقدس البطريق . وأحب أن أضيف إلى ما قلت لك إنك إذا نجحت فى مسعاك وعدت إلينا مع البطريق ستجد السعادة فى انتظارك .ستجد هنا زوجتك وأمك يفتحان لك أذرعتهما .

فصاح مينا فى فزع :

ــ أمى وزوجتى ؟ . .

فقال قيرس فى صرامة :

ــ نعم هما تقيمان هنا فى انتظارك . ستبقيان هنا فى حفظى وصونى حتى تعود إلينا .

فأطرق مينا واضعاً رأسه بين كفيه واضطرب اضطراباً ظاهراً ثم رفع رأسه قائلا :

ــ أأستطيع أن أراهما ؟

فقال قيرس مرتاحاً :

ــ تراهما الساعة حتى تطمئن على أنهما بخير .

وصفق بيديه يدعو حاجبه ثم قال :

ــ قد أعددت لهما حجرة فسيحة فيها كل ما تحتاجان إليه من الراحة والخدمة ، فلا تقلق من أجلهما .

فهب مينا واقفاً وقال :

ــ لقد غيرت رأيي وخير لى أن أراهما بعد عودتى . خير لى أن أذهب بغير أن أراهما .

وكان صوته متهدجاً وعيناه الغائرتان تلمعان ببريق شديد .

فقال قيرس مبتهجاً :

ــ هذا خير لك ولهما ، وهو أدعى أن تعود إلينا سريعاً .

فأجاب مينا فى صوت عميق قوى :

ــ سأعود بأسرع ما أستطيع .

ودخل الليل وكان الظلام دامساً ، ونزل مينا بن حنا من الحصن فى صحبة القائد جورج ، ففتح لهما الحراس الأبواب المؤدية إلى المقابر

فوق الخنادق المحيطة بالحصن ، ثم أعادوا إغلاقها وراءهما ، وما زالا سائرين حتى صارا تجاه الجزيرة المستطيلة فنادى القائد قائلا :

— تيودور !

فخرج من ظل الشاطئ رجل يسعى حتى وقف تجاه القائد وحياه . وأخذه جورج من ذراعه وانتحى به جانباً وأخذ يهمس له حديثاً طويلا ، ثم أشار إلى مينا أن يتبعه إلى النهر . وبعد دقائق كان قارب سريع يشق الماء فى الظلام الساكن متجهاً إلى الشمال نحو ميناء النهر فى العاصمة الكبرى ، يحمل مينا بن حنا .

ومضى شهر بعد شهر وأخذ ماء النيل فى الهبوط ، حتى كاد الخندق المحيط بالحصن يجف . وكان قيرس يزداد فى كل يوم يأساً ويزداد صدره فى كل ليلة ضيقاً ، لأنه خاب فى كل مادبره واحتال فيه ، خاب فى محاولته مفاوضة العرب على مال يأخذونه منه ويعودون أدراجهم إلى الصحراء ، وأرسل إليه قائدهم عمرو إجابة جافة طعنت كبرياءه فى الصميم . ولم يفلح فى إثارة أهل مصر معه إلى الحرب ، ولم يفز بمساعدة قيصر عند ما طلب إليه إرسال الأمداد . وكانت مخاوفه تشتد كل يوم ، إذ كانت الأنباء تتوارد اليه بأن أتباع بنيامين لا يزالون يعادونه ويقاطعونه ، ولم يصل إليه نبأ من مينا بن حنا .

وكانت آخر الأنباء أن العرب أرسلوا كتيبة منهم إلى الريف ، ففتحت منوف وأثريب وأوشكت أن تهزم « تيودور » فى سمنود .

وكان قيرس جالساً فى شرفة من شرفات سور الحصن فى ليلة من ليالى القمر الباهرة فى الخريف ، وكان خياله يسبح فى الآمانى حيناً ،وفى المخاوف حيناً ناظراً إلى السماء الصافية ، وإلى الأفق البعيد ، ولاتزال بقية من مياه النيل تغمره من أقصاه وأدناه . وتذكر مينا بن حنا الذى تركه منذ ثلاثة أشهر ، ولم يبعث إليه كلمة ، فثقل قلبه على صدره من الشعور بالخيبة ومن الحنق ، وأحس إحساساً عميقاً بالخطأ الذى وقع فيه عند ما آمن لهذا العدو القبطى وأخرجه من السجن راجياً أن يساعده على إعادة الوئام بين المصريين والروم فى تلك الساعة العصيبة .

وفيما كان قيرس يسبح فى همومه، ارتفعت صيحة من جانب النيل ، ثم تلاها صوت اصطدام ، وارتفع من أسفل الحصن صليل السلاح ، ولمعت أنوار وهاجة سمع لها عجيج وزفير . فقام ينظر فى جوانب النهر ،ولكن التواء المجرى كان يحجب عنه ماوراء الثنية، فلم ير إلا وميض النار كأنه برق سحابة عند الأفق . فبعث إلى جورج قائد الحصن يستدعيه ليعرف منه مبعث تلك الصيحة ، وجعل يذرع أسوار الحصن مضطرباً لايدرى من ذا الذى يلقى النار الإغريقية على سفن الحراسة وأبواب الحصن ، فإن تلك النار سر لم يتعلمه بعد أهل الصحارى .

ومضت ساعة طويلة قبل أن يجىء إليه جورج ، يهرج فى مشيته ، والسلاح يقعقع فوق جسمه الضخم . فبادره المقوقس سائلا فى لهفة :

ــ من هؤلاء الذين يقذفون علينا اللهيب ؟ هل عرف العرب سر القذائف الإغريقية ؟

فأجاب القائد لاعناً :

ــ ليسوا سوى هؤلاء القبط الذين يظهرون فى هذه الأيام ما فى قلوبهم من الغل . هى سفنهم التى اعتادت فى الليالى الأخيرة أن تهوى إلى الحصن فى مثل هذه الساعة لتعترض السفن الآتية إلينا بالمؤونة .

فقال قيرس فى غيظ :

ــ وأين جنودى ؟ أما تستطيع ياجورج أن تطحن هؤلاء ؟ حتى هؤلاء القبط لاتقدر عليهم ؟

فقال جورج فى غيظ :

ــ لقد كدت أقبض عليه بيدى ، ولكنه فر قبل أن أدركه . الشيطان والنار والجحيم ! لقد فر قبل أن أدركه .

فقال قيرس فى لهفة :

ــ من هو ؟

فقال القائد فى حقد :

ــ مينا بن حنا . ! اللعين مينا !

فصاح قيرس :

ــ مينا !

ثم غص بريقه فلم يستطع أن يواصل صيحته .
واستمر جورج فى لعنه وصخبه . .
وصاح ڤيرس من بين أسنانه هو الآخر :
ــ اللعنة ! اللعنة ! هاتوا أمه وأخته ! العذاب لهما !
ثم مضى وهو يلهث مما فى صدره من الضيق .

آكل المرار وهند

« العاطفة الثائرة لا تعرف الاعتدال فى حبها
كما لا تعرفه فى قسوتها »

لم يكن حجر بن عمرو بالرجل الذى يعرف التّردد . كان وجهه ينم عن أنه كان بين الرجال مثل نمر الغابة ، قاسياً صلباً يعرف الغرض الذى يرمى إليه ثم يسير نحوه فى سرعة وخفة واحتراس ، حتّى إذا أتت اللحظة الحاسمة وثب على فريسته فصرعها ثم أخذ يقضم لحم أكتافها فى شره . وكان الناظر إليه يحسب أنه يتحفز دائماً للوثوب ، فقد كانت شفتاه تنفرجان عن ثناياه مثل وحش يكشر عن أنيابه ، وكانت عبسته الجاهمة لاتفارق جبينه ، وتخط فيما بين حاجبيه أخدوداً عميقاً مظلماً .

وكان الشتاء قد أوشك أن يمضى ، وتنفست فى الغدوات نسمات الربيع ، واستقر عزم حجر على أن يسير إلى الغزو مع أتباعه من شيوخ القبائل ، الذين اجتمعوا له من نجد وأطراف اليمامة . كان كل شيخ يظل تحت علمه قبيلته وحلفاءها ، ثم يسيرون جميعاً وراء حجر بن عمرو

حيث سار واثقين من أنهم سيفوزون معه بالنصر دائماً . ولم يكن هؤلاء الشيوخ سوى صور مكررة من حجر ، وإن كانوا قد أذعنوا له ، واتخذوه زعيماً . كانوا جميعاً من المغامرين الذين لا يعرفون التردد ولا يخشون الموت . وكانت عادة حجر إذا عزم على غزوةٍ بيّت أمرها مع أصحابه، فأعدوا لها الرواحل والخيول فى حذر وكتمان ، حتى إذا تم لهم ما أرادوا لم يطيقوا صبراً عن السير . فكان حجر يسارع إلى الرحيل بهم فى أول الليل أو فى وسطه ، والظلام ضارب أطنابه فى أطراف الفلاة ، حتى يأخذوا عدوهم على غرة قبل أن تبلغه الأنباء عن الخطر الزاحف إليه .

ولكن حجراً عند ما بيّت مع أصحابه غزو البحرين، كان على غير ما اعتاد من قبل فى غزواته ، فإنه بعد أن أعد عدته وأتم تدبير خطته ، جعل يتردد ويطاول ويؤجل . وتهامس أصحابه فيما بينهم فقال بعضهم لبعض إنه قد تغير ودب إلى قلبه الخوف من الحروب . وأفضى بعض أصحاب حجر إليه بما يتهامس به الناس عنه ، فغضب وثار وهدد ، وهاله أن يتهم بالخوف من الحرب وهو حجر بن عمرو ، ودفعه الغضب إلى أن يعزم على السير إلى الغزوة من ساعته . وكان الليل قد تصرم وبدت فى الشرق أضواء الفجر ، ودبت الحياة فى الفضاء الساكن الفسيح عند ما بدأ السير .

كانت أنفاس الربيع تهب على منازل كندة من مروج نجد ،

تحمل معها عطور الخزامى والشيح والعرار ، وخرج حجر من خيمته ونادى في أصحابه أنهم سائرون من ساعتهم إلى الشرق نحو البحرين . ولكنه كان مع ذلك موزع القلب ثائر الشجن ينازعه قلبه إلى البقاء . وخرج الفرسان سراعاً من خيامهم حتى ملأوا رحاب الأودية ، ولكنه عاد إلى خيمته ليودع امرأته قبل أن يسير .

لم يعرف حجر الحب إلا منذ تزوج تلك الزوجة الحسناء ، ومنذ عرف الحب عرف الحنين والرقة . ومن أجل ذلك الحب كان يطاول أصحابه ويؤجل يوم الغزوة الأخيرة يوماً بعد يوم .

وكانت هند الجميلة واقفة عند باب الخباء مثل الأقحوانة الرطبة التي تفتحت في الصباح ، وخيل إليه أن الهواء قد امتلأ منها عطراً ونوراً .

وألقت بنفسها بين ذراعيه وهي باكية ، وأخذت تمزج اللوم بالدعاء وتستعجل عودة اللقاء قبل أن يكون الفراق . وكان صوتها يقع في أعماق قلبه غناء مشجياً ، ونظرات عينيها تنفذ إلى نفسه سحراً يكاد يقعده عن الغزوة مرة أخرى ، ونزع يديها من حول عنقه في رفق ، ووثب على فرسه مستجمعاً عزيمته ، بعد أن ضمها ضمة أودعها حبه الغامر الشديد ، وقال وهو يثب إلى ظهر جواده :

ـ أخلف عندك قلبي فاحفظيه يا هند حتى أعود .

ثم اندفع يعدو نحو أصحابه في عنف ، كأنه يريد أن يبعد عن نفسه



التردد الذى كاد يلوى عنان فرسه نحو الخباء الحبيب .

ولما سار الجيش وراء حجر كانت الشمس ترسل أول أشعتها من وراء الأفق ، طالعة على الفضاء الرحب الذى يسيل بأعناق المطى . فالتفت حجر وراءه إلى أقصى الأفق ، ليتزود بنظرة من معاهد الحب قبل أن يغيب عنها ، واهتز واضطرب وعاودته شجونه ، وثار به وجده ،

وود لو كانت هند تسير معه فيأمن عليها العوادى ، وتكون فى كنفه يدفع عنها بنفسه ويقيها بحياته .

ما زال حجر يحدث نفسه عن هند وفراقها حتّى كادت تعجم على نفسه الوساوس ، لولا أنه أزاحها واثقاً من أنه لن يقضى فى غزوته إلا أياماً ثم يعود إليها فيجدها تنتظره وتفتح له ذراعيها تهنئه بالانتصار .

وسار فى طليعة الجيش ، وأقبل على أصحابه يسمع منهم ويحدثهم ، وينظر فى الأمور يوردها ويصدرها بما تعود الجميع من حزمه وصرامته . وصارت صورة هند إذا عاودته بعد ذلك زادت عزيمته مضاء وقوة . وما زال حتّى انتهى به السير الطويل إلى البحرين ، وبات ليلته قبل الزحف الأخير يدبر الأمر مع أصحابه ليهبطوا على عدوهم من كل جوانبه ، فلا تطلع الشمس حتّى يكون شط البحر جميعاً موطئاً لخيلهم وحتّى تكون خزائن اللؤلؤ كلها غنائم طيبة . . يختار منها ما شاء من الفرائد هدية لهند الحبيبة .

وفيما كان الأمراء يعبئون الجيش ويقسمون كتائبه ، ويشدون ألويتهم فى أطراف الرماح طلع عليهم راكب من الظلام وقد شق قميصه وهو يصيح :

ــ أدركوا منازلكم فقد أحاط بها العدو !

ثم أخذ يحدثهم عن العدو الذى تسلل إلى الديار فى غيبتهم فسلب

الأموال وسفك الدماء . ثم قص عليهم أسر هند . لقد كان أول هم العدو أن يحيط بخباء هند فجعلها أثمن غنائمه ، وأردفها وراءه على فرسه البيضاء ، ونجا بها قبل أن يدركه أحد من آل حجر أو أتباعه المخلصين. ولم يصبر حجر ليسأل طويلا عن حديث الغزوة فقد كان أول همه أن يبادر إلى العدو ليستخلص منه زوجته وحبيبته الحسناء .

وطلعت الشمس على جيش حجر وهو يحث مطاياه عائداً بجيشه نحو الغرب يطلب منازله فى نجد ، لعله يدرك عدوه قبل أن ينجو بما غنمه منها. وكان حجر صامتاً ينفث فى أنفاسه سما ، ويهوى على دابته بالسوط وهى تنهب الأرض ، ولا يزال يستبطئها ويعنف فى القسوة عليها . وبعد أيام بلغ هضاب نجد وطالعته رياحها العاطرة ، ورأى رمالها صفراء ناعمة لا أثر عليها ينم عن الغارة التى شنها عليه عدوه الحانق . ولكن امرأته لم تكن هناك . وكان أول همه أن يرسل رجلين فى آثار العدو يتحسسان أخباره ، ويريان كيف أصبحت هند معه وكيف صارت إليه حالها . وكان قلبه يذوب كلما تصور ذلك العدو القاسى يسومها الذل والعذاب فى أسره .

وقضى أياماً فى عذاب لا يذوق نوماً . وهل ينام من يعلم أن حبيبه يعانى مرارة الأسر ويتجرع غصص الفراق ؟ وعاد إليه رسوله سدوس بعد أيام يحمل إليه الأنباء ، وأخذ يحدثه فى ضوء القمر بين الكثبان

العفراء، وسمع حجر سدوساً يتكلم وكان شاخصاً ببصره فى الفضاء ، يكاد بريق الغضب فى عينيه يلمع فى ضوء القمر الوضاء ، وأخذ سدوس يصف له كيف تسلل إلى جيش العدو فى الليل . وكيف زحف على الرمال حتى صار وراء خيمة هند وسمع حديثها مع العدو الذى اختطفها . وكان كلما أفاض فى وصفه تلوى حجر كأن النار تتقد فى حشاه ، يقبض يده تارة ويبسطها ، وينزع حبوته مرة ثم يشدها ، حتى قال له سدوس :

— ثم دنا زياد من هند !

فصاح حجر مقاطعاً :

— مهيم ! ويحك أتقول إنه دنا منها ؟

واستمر سدوس فى حديثه فقال :

— نعم دنا منها فاستقبلته مرحبة !

فصاح حجر قائلا :

— ويلك أتقول إنها رحبت به ؟

فقال سدوس :

— ثم أهوى إليها بقبلة .

فهب حجر من مجلسه كأن قد لسعته أفعى ، وقبض فى يمناه قبضة من غصن مرار كان فى جواره ، فقطعه بأسنانه وجعل يلوكه وقال وهو يهدر غضباً :

ــ ويل أمه وويل لك ! ماذا تقول يا سدوس ؟

فقال الرجل وقد خشع خوفاً :

ــ إذا شئت أن أمسك عن الكلام أمسكت .

فقضم حجر قطعة من المرار وجعل يحطمها بأسنانه ويلوكها ثم قال بصوت مختنق :

ــ بل امض فى حديثك لا أم لك . .

فقال سدوس فى شىء من التردد :

ــ وقال لها زياد : ما ظنك الآن بحجر ؟ أتودين لو جاء مسرعاً فى أثرى ؟ أتودين العودة إليه؟

ثم توقف سدوس عن الحديث ونظر نحو الزوج الثائر .

فصاح حجر وهو يلوك المرار ويلفظه :

ــ مالك تقف؟ امض فى حديثك لا أم لك . امض لا أب لك! وقل بم أجابت المرأة .

فقال سدوس مطرقاً :

ــ فارتمت هند بين ذراعيه . .

فلفظ حجر عند ذلك قطعة من المرار كان قد حشا بها فمه ، ثم دفع سدوساً فى صدره دفعة ترنح لها . وصرخ قائلا :

ــ أمسك لسانك فما لى قوة على سماعك .

ثم ولى وهو يزمجر بصوت أجش مخيف :

ــ الفاجرة ! الخائنة ! القطع ! الإحراق !

وسار يخبط الأرض برمحه فى عنف ، حتى بلغ خيمته ، وجعل يعبث فى متاعها ، ويقلب ما فى أركانها ، ليجمع منها سلاحه ودروعه . ثم هدأ فجأة وتمالك جأشه ، وخرج حتى كان عند باب الخيمة فوقف شاخصاً إلى الفضاء متكئاً على رمحه ونادى سدوساً وفى صوته رقة وقال له :

ــ أقبل يا سدوس فقد عنفت عليك .

فأقبل الرجل حتى وقف تجاهه ، ونظر نحوه وهو صامت ، فقال حجر يحدثه فى صوت متهدج :

ــ لست تعلم يا سدوس أى طعنة أصبت بها فؤادى بحديثك . إن ضرب السيوف ووخز الرماح لم يزعزعا يوماً جنانى كما زعزعته كلماتك ، وإن كنت لا آلوك شكراً على نصحك .

ثم تخاذل فارتمى على صخرة ووضع رأسه على قبضة يمينه وأطرق قائلا :

ــ قل يا سدوس ما عندك . امض فى حديثك يا سدوس .

فقال سدوس :

ــ لم يبق إلا ماقالته هند وهى بين ذراعيه . .

فقال حجر :

ـــ قل ولا تخف يا سدوس . قل فإن الكى يريح القرحة الداوية .

فاستمر سدوس فى صوت خافت :

ـــ فقالت هند : « لم أبغض شيئاً فى الحياة مثل بغضى له » .

فصاح حجر فى صوت حانق :

ـــ تبغضنى هند كما لم تبغض شيئاً فى الحياة ؟ أقالت هذا وسمعته بأذنيك يا سدوس ؟

فقال سدوس فى تردد ورقة :

ـــ لقد علمت أن الرائد لا يكذب صاحبه .

فتنفس حجر كأنما صدره ينفجر ثم قال :

ـــ أهند من بين النساء ، أم هن كذلك ياسدوس ؟ أتبغضنى هند وتفضى إلى عدوى بذلك وهى بين ذراعيه ؟ أى شىء فى الحياة يحرص عليه الرجل بعد هذا ؟ أهذا مبلغ الوفاء عند هند ؟

وسكت لحظة كأنه يستعيد صوراً ماضية لكى يقرنها بالصورة التى حملها إليه صاحبه . أهذه هند التى أمتعته بأشهى ما يمتع النساء الرجال ؟ أهذه امرأته التى كان يجد السلام فى قربها بعد أن تجهده الحروب ؟ أهذه هى الحبيبة التى ودعها عند باب الخيمة وهى تبكى ؟ أهى التى استودعها قلبه ريثما يعود ؟ أى الصورتين تتمثل فيها الحقيقة ، وأيهما يتدسس إليها الكذب المسموم ؟ أكانت تخادعه وهى تضمه إلى صدرها

أم هى تخدع زياداً وهى بين ذراعيه ؟

واتجه عند ذلك إلى سدوس فى شىء من الريبة ، وقال يمتحن صدقة :

— تقول إنك سمعت قولها يا سدوس ؟ أسمعتها بأذنيك ؟

فقال سدوس خاشعاً :

— نعم سمعتها ولم أشأ أن أعود إليك إلا بالخبر اليقين .

فقال حجر وقلبه يغوص فى صدره :

— إذن فامض فى قصتك ، وقل لى سائر الحديث ، ولا تحجب عنى شيئاً من قولها . قل ما سمعت وإن كان كل حرف منه يطعن قلبى .

ومضى سدوس يتحدث كأنما يهمس لنفسه ، وكلما بلغ موضعاً يظن فيه مثاراً للألم المبرح فى قلب صاحبه تريث وتردد ، ونظر إليه خاشعاً كأنه يخشى منه سطوة الغضب والانتقام ، ولكن حجراً كان سادراً يلوك المرار ويلفظه ، ولا ينطق إلا بزفرات مكتومة كأنها حشرجة المطعون . ثم قال سدوس :

— وجعلت تصفك قائلة : « إنه شديد الكلب ، تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مراراً » !

فلفظ حجر قطعة من المرار كان يلوكها ، وقال كأنه ينفث سماً .

— نعم ما أنا إلا بعير أكل المرار . امض يا سدوس ، امض فى قصتك وأتم لى حديثها .

فاستأنف سدوس ولا يزال فى خشوعه :

— ثم قالت له : « لقد عرفته أحزم رجل نائماً ومستيقظاً . إن كان لتنام عيناه وبعض أعضائه مستيقظ . ولقد رأيته ذات ليلة نائماً وأنا أنظر إليه ، فإذا أفعى تقبل عليه ، فلما بلغت رأسه نحاه عنها ، فمالت إلى يده فقبضها ، فمالت إلى رجله فحركها ، فذهبت الأفعى إلى عس لبن كان إلى جانبه فشربت منه . فقلت يستيقظ فيشربه فيموت . .

فصاح حجر كأن الأفعى قد عضته وقال :

— أمسك أمسك يا سدوس ، هذه آية لا يدخل إليها الريب فى صدقك . نعم إنى لأذكر ذلك وأعرفه . لقد صحوت من نومى فرفعت العس لأشرب منه فوجدت فيه ريح الأفعى ، وسألتها عنها فأنكرت أن ثمة أفعى . لقد رأتها الشقية تنفث سمها فى اللبن ، وودت لو أنى شربته .

ثم اندفع خارجاً من الخيمة كأن خبلا أصابه ، وصاح فى أتباعه يستنفرهم للقتال . .

* * *

وانتهى القتال إلى غايته وهزم حجر جيوش زياد وعاد بعدوه وامرأته الخائنة أسيرين ، وكان أول همه أن يرى هنداً فى الخباء .

* * *

ودخل عليها فقامت إليه تستقبله ، وكأنها لم تر بريق عينيه ولا تقلص شفتيه ، وكأنها لم تسمع فحيح أنفاسه الملتهبة ، ولا دقات قلبه الحانق . ومدت نحوه يديها كأنها تريد أن ترتمى بين ذراعيه ، فاقترب منها جاهماً فوجمت إذ نظرت إلى وجهه ، وشخصت ببصرها إليه ، وثارت فى نفسها كل صور الماضى البعيد والقريب ، ولم تستطع أن تنطق حرفاً ، وترددت ثم أطرقت وردت طرفها عن وجهه هاربة من نظراته الثائرة .

فصاح بها حجر وفى صوته الأجش المخيف تهدج وتقطع :

— هلمى إلى ذراعى يا هند . ما لى أراك لا تقبلين على زوجك الحبيب ؟

فرفعت عينيها إلى وجهه المربد تريد أن تقرأ ما عليه ، فلم تجد إلا دماً وسمًّا ولهيباً ، فعادت إلى إطراقها واضطربت وقالت فى ضراعة :

— هل للأسيرة إلا أن تذكر عارها ؟

فاندفع حجر وقد ملكه الغضب ، فمد يده إلى كتفها فهزها هزة عنيفة وقال فى صيحة مكتومة :

— هل للأسيرة أن تفتح ذراعيها لمن يأسرها ؟هل للأسيرة أنتقبل من سباها ؟ تكلمى يا ابنة ظالم . تكلمى يا دنس الحرائر . .

فرفعت إليه رأسها مبهوتة وقالت صارخة :

— كذبت أو صدقت الكاذب .

فترك حجر كتفها وارتد إلى الوراء قليلا ، وقهقه ضحكة مخيفةوقال :

— انظرى يا هند إلى شفتى . أليستا كشفتى البعير إذا أكل المرار ؟ نعم انظرى إليهما ، فقد بالغت فى أكل المرار ، وهاتان شفتاى مقلصتان أيتها الخائنة !

فأجابت هند وهى تستجمع قوة جنانها :

— ما حديثك هذا الذى تتحدث به ؟ أهكذا تستقبلنى بعد نصرك ؟ لقد كان بودى لو قتلت قبل أن أقع فى يدى هذا اللئيم .

فأعاد حجر ضحكته المخيفة وقال :

— وما الأفعى التى كنت لم تريها ؟ لقد شممت ريحها فى العس ولكنك أنكرت رؤيتها . هل علم بهذا الحديث سواك ؟ أكاذب من يروى هذه القصة عنك ؟ ألم تخبرى بها زياداً وأنت بين ذراعيه ؟ لقد كان سدوس وراء الخيمة يسمعك إذ تحدثينه ويراك وأنت تداعبينه .

وكان غضبه قد ملكه عند ذلك ، فدفعها فى صدرها دفعة ترنحت لها وخرت باكية عند قدميه وقالت بين دموعها :

— ذل الأسر أذهلنى !

فانتفض حجر عند ذلك وخرج مسرعاً من الخباء لا يرى شيئاً أمام عينيه . ثم نادى عبدين وأمرهما أن يعدا له فرسين من أشد خيله عدواً . ولما أحكم رباط هند فى ذيلى الفرسين أهوى عليهما بسوطه حانقاً ،

فوثبا وثبة تطايرت لها الحصباء ، وانطلقا يعدوان على الوادى الوعر ومن ورائهما جثة تتخبط فوق الصخور حتى غابا عن عينيه ، ووقف عند ذلك شاخصاً ببصره إلى الفضاء وقد أمسك بأعلى عمود خيمته ومال برأسه على ذراعه الممدودة ، وقال لسدوس يحدثه فى صوت متهدج حزين :

– كانت يا سدوس إذا نظرت إلى كأن الفجر يتنفس فى الظلماء . وإذا أقبلت كأن نفحات الصبا تهب فى أعقاب القطر ، وإذا تنسمت ريحها كأن الربيع يفتح أكمام الخزامى والعرار ، وإذا تحدثت إلى كأن الطير يغنى عند الأصيل وإذا ضممتها إلى صدرى . . أف يا سدوس ، أبعد عنى ، فإنى أكاد أحترق ! . . .

ولوى عند ذلك وجهه ، ومسح بيديه دمعة فرت من عينيه ، ثم تهالك على جذع نخلة إلى جانبه ، وقال يحدث نفسه :

إن من غره النساء بشىء　　　بعد هند لجاهل مغرور
حلوة العين والحديث ومرٌّ　　　كل شىء أجن منها الضمير

ثم تمالك نفسه بعد لحظة ، وقام وقد عاودته ثورته ، وقال مقهقهاً وهو يندفع خارجاً إلى الفضاء :

كل أنثى وإن بدا لك منها　　　آية الحب حبها خيتور

ثم أسرع ووثب على جواد وألهبه سوطاً ، واتجه نحو الخيمة التى بها أسيره زياد ، ليتم انتقامه لقلبه المفجوع .

العقد المبارك

« الإيمان والحب هما شطرا الإنسانية »

ودخل عمرو بن هشام متجهماً على أبى العاصى وهو فى فناء داره بعد أن أذن له ، وكان من ورائه جمع لا يقل عنه تجهماً وتحدياً ، واستقبلهم أبو العاصى قائماً ينظر فى وجوههم ثابتاً ومد إليهم يده مصافحاً وهو صامت.

وقال عمرو بن هشام :

ـ أظنك تعرف ما جئنا له يا أبا على .

فقال أبو العاصى :

ـ هلا جلستم أولا !

فقال عمرو فى جفاء :

ـ لم نجىء لنجلس يا أبا على فقد تطاول الحديث بيننا بغير طائل . لم نجىء إلا لنسمع منك الكلمة الأخيرة .

فقال أبو العاصى :

ـ يعز علىّ أن أجيبك بما فى نفسى وأنت فى بيتى يا أبا حنظلة . فهل جئتم إلىّ منذرين إذن ؟

فتدخل الوليد بن عتبة قائلا :

– نعم جئنا إليك منذرين يابن الربيع . فأنت تخرج على قومك وتخذلهم ، ولا ترضى أن تستمع إليهم . نعم جئنا إليك مع صديقك هذا الذى يردنا ويدافع عنك فى كل موطن وأنت تأبى إلا أن تكون مع عدونا .

فقال أبو العاصى هادئاً :

– إذن فأنت تعرف رأيى يابن عتبة ولاحاجة بى إلى إعادته . وإذا كان ولابد من الحديث ونحن وقوف هكذا فإنى أعيد عليكم كلمتى الأولى . لن أسمح لأحد أن يتدخل فى خاصة أمرى ولن يستطيع أحد أن يفرق بينى وبين أهلى .

فصاح الوليد بن عتبة :

– أما قلت لكم إنه عدو يقيم بيننا ؟ هاهو ذا يقول كلمته الأخيرة ولا حاجة بنا إلى البقاء هنا .

فقال عمرو حانقا :

– فأنت يا أبا على تردنا رداً أخيراً . أنت تريد الإبقاء على ابنة محمد معك وأنت تعلم أننى بدأت ففرقت بين ولدىّ وبين ابنتى محمد رقية وأم كلثوم . ماذا تنتظر يا أبا على حتى تجتمع مع قومك على رأى واحد ؟ ألست تاجراً تخشى على تجارتك ؟ ألست من سادة قريش

فتخشى أن يتخلى عنك قومك . أتحرص على امرأة وتخاطر بجميع أهلك وعشيرتك ؟

فقال أبو العاصى هادئا :

ــ وماذا لكم أنتم فى امرأتى ؟ أينبغى لأحد أن يقول لك اذهب إلى امرأتك فطلقها ؟

فصاح رجل من الجمع قائلا :

ــ أبهذا تجيب سيد قريش يابن الربيع ؟

فنظر إليه أبو العاصى هادئاً وقال :

ــ ومن أنت فى قريش يا أسود ؟ !

فصاح الأسود المخزومى فى شراسة :

ــ وحق مناة ما جئت إلى هنا إلا لأرغم أنفك .

فقال أبو العاصى غاضباً :

ــ والله ما أصبر عليك إلا لأنك فى بيتى .

واتجه إلى عمرو بن هشام قائلا :

ــ ألمثل هذا جئتم اليوم إلىّ فى دارى ؟ ألا فاعلم يا أبا الحكم أن أنفى لا يرغم وأن شوكتى لن تلين . ولو شئت أن أخرج إلى المدينة لألحق بمحمد لفعلت ولم يجرؤ أحد على أن يتعرض لى . ولكنى أقيم ها هنا فى مكة حتى

لا أفارق قومى ولا أخذلهم . فإذا أبى قومى إلا أن يذلونى فإنى أقدر على الانتصاف لنفسى .

فقال عمرو بن هشام فى شىء من السخرية :

– كل هذا من أجل امرأة ؟

فصاح أبو العاصى ثائراً :

– لن أسمح لك أن تعيدها يابن هشام . أنت تعرف من هذه المرأة التى تتحدث عنها ؟ فهى إذا لم تكن ابنة محمد فإنها ابنة خالتى . إذا لم تكن زينب امرأتى وقفت دونها أحميها لأنها من دمى ومن عرضى . لن أطلق امرأتى ولقريش أن تفعل ما تشاء إذا شاءت عداوتى . أترون قولى هذا واضحاً صريحاً .

فتصاعدت من الجميع أصوات حانقة واضطربوا فى غيظ وصاح الوليد بن عتبة :

– ها هوذا يتحداكم .

وصاح الأسود بن عبد الأسد المخزومى :

– إنه مع محمد .

وقال عمرو بن هشام :

– ستعرف يابن الربيع أنك قد أسأت إلى نفسك ، ولن ينفعك محمد إذا نبذتك قريش وخلعت عنك حمايتها . لقد أعذر من أنذر .



وخرج بغير أن ينظر إلى أبى العاصى وسار أصحابه من ورائه يتصايحون غضباً .

ولما انصرف الجمع خرجت زينب من حجرتها وكانت قريبة تسمع أحاديث القوم. فجاءت إلى زوجها حزينة وألقت برأسها على كتفه تبكى بكاء مراً . وأخذها أبو العاصى فى رفق وأجلسها على أريكة فى فناء الدار وجلس إلى جنبها وقال لها :

ـ لا تحزنك هذه الأحاديث يا زينب فلن يجرؤ أحد منهم بعد هذا

على معاودتها . سأجيبهم إذا عادوا لمثل هذا الحديث جواباً شافياً .

فقالت وهى تجفف دموعها :

ـ هذا ما أخشاه يابن خالة . أخشى هذه المصادمات التى لاتنقطع بينك وبين هؤلاء ، ولا آمن أن تثور يوماً فيخرج الأمر من أيدينا .

فقال فى دهشة :

ـ وكيف يخرج الأمر من أيدينا .

فقالت مترددة :

ـ ألست تراهم فى هذه الأيام متحفزين فى كل لحظة ؟ ألست ترى الآباء يسجنون أبناءهم ويعذبونهم إذا داخلهم الشك فى أنهم يميلون إلى أبى ؟ فكيف آمن أن يجتمعوا عليك وأنت تواجه قومك جميعاً حتى لم يبق لك فيهم أحد يأخذ بناصرك ؟

فقال هادئاً :

ـ أتحسبين أنهم يقدرون على تعذيبى أو سجنى ؟ هيهات يا زينب فإنهم يعرفون كيف أقدر على الوقوف فى وجوههم جميعاً . ولست فى مكة وحيداً فإن إخوتى وأبناء عمومتى من بنى عبد شمس لا يتخلون عنى أبداً .

فقالت :

ـ أما نذهب إلى يثرب لنكون فى مأمن هناك مع أبى ؟ ماذا نريد من البقاء هنا بين هؤلاء الذين يصبحونك ويماسونك بما لا تحب

ولا يدعون لك سلاماً . بحق أطفالنا يا أبا العاصى لا تبق هنا وانج بنفسك وأهلك وأبنائك إلى يثرب . ألست تحب أبى وتواجه قومك قائلا لهم إنه أكرم من رأيت؟ ما لك لا تذهب إليه وتكون من أصحابه وتترك هؤلاء الذين لا يشبهونك ولا تشبههم . دعنى أناديك باسمك الذى كنت أناديك به ونحن أطفال فأقول لك هلم بنا يا ياسر فلنخرج إلى المدينة — إلى يثرب كما خرج الذين رفضوا ظلم قريش وكبرياء قريش وجهالة قريش .

وكان أبو العاصى مطرقاً يستمع إليها وعلى وجهه ما يشبه الحزن والتردد، ثم رفع رأسه بطيئاً وقال لها :

— صدقت يا زينب فيما تقولين وما أحب إلى أن أسمع صوتك وأنت تقولين لى يا ياسر كما كنت تنادينى ونحن صبية . إننى أذكر خالتى الحبيبة أمك التى كانت تحبنى مثل ولدها ولا أستطيع أن أنسى عطفها ونبلها وما زال صوتها العذب يرن فى أذنى كأننى أسمعه فى نبرات صوتك .

ومد يديه إلى يدها فأخذها بين كفيه وقال وهو ينظر فى عينيها .

— وما أزال أذكر يوم ذهبت إلى أبيك أسأله أن يقبلنى زوجاً لك ، وكان أسعد يوم فى حياتى . ولو طاوعت نفسى لما فارقته لحظة بل لكنت أول من يخرج معه .

فقالت زينب :

— وماذا يحول بينك وبين ذلك يا ياسر ؟ أيسرك أن تبقى ها هنا

لتسمع هؤلاء كل يوم يقولون لك : « طلقها » .

وأطرقت حزينة . فضغط على يدها بكفيه قائلا :

ــ لن يفرق شيء بيننا يا زينب ما دمت حيًّا ، وهذا أول عهد قطعته لخالتى . ألا تذكرين يوم جاءت بهذا العقد الذى أراه حول عنقك ؟ كانت ساعة لا أنساها وأنت واقفة بينى وبين أبيك مطرقة من الخجل ، فجاءت السيدة النبيلة أمك ووضعت هذا العقد حول عنقك قائلة : « هذا تذكار منى » ، ثم نظرت إلىّ قائلة : « هذا تذكار منى يربط بينكما » . ألا تذكرين ما قلته لها عند ذلك ؟

فقالت زينب بصوت متهدج :

ــ أماه !

فقال أبو العاصى :

ــ لن يفرق شيء بيننا يا زينب ما دمت حيًّا . هذا ما قطعته على نفسى أمام خالتى .

فقالت زينب :

ــ إذن فماذا يمسكنا هنا .

فقال :

ــ أنت تعرفين أنى شاركت فى تجارة أبى سفيان بكل أموالى ، ولو خرجنا الآن إلى يثرب لذهبنا إليها بيد فارغة وفرحت قريش بالأموال

ولم يهمها خروجنا . وماذا نصنع بولدينا هذين : على وأمامة ؟ وماذا نصنع بالجنين الذى سنسعد بوفادته إلينا بعد قليل ؟ لا تقلقى يا زينب حتى يعود أبو سفيان وعند ذلك سنهاجر إلى يثرب كما تشائين . لن يطول غياب أبى سفيان فموعد عودته بعد أيام .

وما كاد أبو العاصى يتم حديثه حتى قرع سمعه صوت يصيح من بعيد صيحة فزع عالية . فقام مسرعاً وقالت له زينب :

– ما لك أنت بهذه المعارك التى تثور كل يوم يا أبا العاصى ؟

فقال وهو يجمع عليه ثوبه :

– ليس هذا صوت معركة . إنه صريخ ينادى بكارثة .

وأسرع خارجاً ، ووقفت زينب ترهف سمعها إلى الصوت فإذا هو يعيد نداءه فى فزع : « الغوث ! الغوث ! أدركوا تجارتكم يا معشر قريش» .

وتهالكت زينب على الأريكة خائرة القوى ، لا خوفاً على أموال زوجها بل خوفاً على الأمنية التى كانت تتمناها . فلن يقعد أهل مكة عن الخروج لمساعدة أبى سفيان ولن يستطيع أبو العاصى أن يتخلف عن الخروج .

وبعد ساعة قصيرة عاد أبو العاصى إلى بيته ايستعد للسير من ليلته مع شباب مكة وكهولها وشيوخها ، فقد تعاهدوا جميعاً على الذهاب لنجدة

أبي سفيان وتخليص أموالهم من العدو الذى يحاول أخذها .

وسألت زينب فى فزع :

ــ ومن يكون ذلك العدو يا أبا العاصى ؟

فقال فى تردد :

ــ أبوك يا زينب .

وصمتت زينب فلم تجبه بكلمة، وصمت أبو العاصى فلم يقل كلمة، وأخذ يستعد بسلاحه ودرعه حتى يخرج مع أهل مكة بعد ساعة .

وبقيت زينب وحدها نهباً للقلق والألم لا تدرى ماذا يطلع به الغد ولا ماذا تستطيع أن تفعل ، فقامت لتتوضأ ثم أخذت تصلى وتدعو الله فى حرارة أن ينجى زوجها وأن يحفظ أباها .

ومرت عليها الأيام بطيئة أليمة وهى لا تدرى ماذا دبرت لها المقادير فى نجاة زوجها وسلامة أبيها . ستكون المصادمة بين المسلمين وبين أهل مكة، وهى مصابة فى كل حال إذا أصيب جانب منهما . وكانت فى كل ليلة تقضى ساعة طويلة فى الصلاة تدعو الله أن يحفظ لها زوجها وهى لا تدرى ماذا يكون مصيرها فى تلك المعركة التى نشبت على حين فجأة .

ثم بدأت الأنباء تتوارد على مكة بأن المسلمين انتصروا نصراً عظيما وأن أبطال قريش هلكوا فى المعركة . واضطربت المدينة بمن بقى من أهلها شيوخاً وصبية ونساء فكانوا كل يوم يخرجون إلى الأودية المحيطة بمكة

يتلقفون الأخبار لعلها تحمل إليهم ما يذهب عنهم بعض الخوف الذى خيم عليهم ، ولكن الأنباء لا تزيدهم إلا خوفاً وجزعاً .

وسمعت زينب طرقاً عنيفاً على بابها فى ليلة مظلمة ، وكانت السماء غاضبة ترسل أمطارها غزيرة والسحب السوداء تغطى وجه السماء ، والرعد يقصف بين البروق التى تشق كبد السماء القاتمة . وقامت زينب متوجسة فسألت :

ـ من الطارق ؟

فأجابها من الخارج صوت أجش :

ـ أنا عمرو بن الربيع .

فصاحت فى فزع مكتوم :

ـ عمرو !

وفتحت الباب فإذا عمرو أخو زوجها يقف أمامها ثابتاً ووجهه ينطق حنقاً وحزناً . وكانت قوسه معلقة فوق كتفه وسيفه معلقاً فى حمائله بعنقه وفرسه يحمحم مضطرباً من ورائه .

فقالت زينب :

ـ ماذا حدث لياسر ؟

فقال عمرو :

ـ تركته أسيراً عند محمد .

فصاحت فى صوت مضطرب :

ــ معاى ؟

ثم استندت إلى الباب خوفاً أن تسقط على الأرض من الدوار الذى ألم بها .

فقال عمرو :

ــ سأعود إليك فى الصباح بعد أن أضمد جراحى .

وسار يجر فرسه وهو يعرج حتى بعد قليلا عن الباب ثم تحامل فركب وغاب عنها فى الظلام تحت المطر المنهمر .

وقضت زينب ليلها ساهرة بين الصلاة شكراً لله على نجاة زوجها وبين الحيرة فى أمر أسره . فماذا تستطيع أن تفعل حتى تفك أسره ؟ وماذا يقول أبوها إذا هى أرسلت إليه تسأله أن يمن عليه بالحرية ؟ بماذا تستطيع أن تعتذر عنه لأبيها وقد ذهب إليه مع الأعداء ليحاربه ؟ وهل حقًّا رضى أبو العاصى أن يجرد سيفه لحرب أبيها وهو يقول إنه أكرم من عرف ؟ وأخذت تسائل نفسها كيف تستطيع أن تفتدى زوجها وهى لا تملك من الأموال شيئاً . فالتجارة مع أبى سفيان وهى لا تدرى هل وقعت فى أيدى المسلمين غنيمة أم استطاع ذلك الداهية أن ينجو بها . وما زالت تعيد فى ذهنها مئات من الأسئلة التى لم تستطع أن تهدأ عنها مع كل الصلوات التى كانت تحاول أن تهدئ بها مخاوفها .

وطلع الصباح آخر الأمر وهدأت ثورة السماء وصفا الجو ولمعت الشمس فى الأفق وكانت طرق مكة زاخرة بالجموع المتزاحمة التى لا حديث لها إلا عن الهزيمة الشنيعة التى أصابت القوم . وكان المنهزمون يعودون أفراداً وفى جماعات صغيرة ويسرعون إلى بيوتهم ليداروا وجوههم عن الأبصار وليضمدوا الجراح التى أصابتهم فى المعركة الدامية . وبدأت الأصوات تتعالى من أركان المدينة بالنواح على القتلى من أبطال قريش وسادتها . وجاء عمرو بن الربيع يطرق باب زينب زوجة أخيه ، وكانت زينب تنتظر قدومه فى قلق . فما رأته حتى بادرته قائلة :

– كيف السبيل إلى خلاص أبى العاصى ؟

فنظر إليها عمرو صامتاً ولم يحر جواباً .

فقالت زينب :

– متى تعود القافلة بالتجارة ؟

فقال عمرو وقد فطن إلى قصدها :

– وماذا تفيدنا القافلة أو التجارة ؟ لقد وهبها أهل المدينة للاستعداد لمعركة جديدة . قد تعاهد الجميع على أن ينزلوا عن أموالهم فى تلك التجارة ليستعدوا للانتقام من محمد وأصحابه .

فوجمت زينب وخاب أملها فى تخليص صاحبها وبقيت لحظة صامتة ثم رفعت يدها تلمس جانب صدرها . تلمس العقد الثمين الذى وهبته لها أمها .

ووقفت تفكر حيناً وتسأل نفسها ماذا تستطيع فى تخليص زوجها ؟ أيليق بها أن تتخلى عن عقدها الثمين ليكون فداء له ؟ لقد أهدته الأم النبيلة إليها ليكون رباطاً بينها وبين زوجها ، وها هى ذى تحتاج إلى فداء ليعيد إليها زوجها . أليست هذه مكرمة من مكرمات الأم بعد موتها ؟ ونظرت إلى عمرو بن الربيع فقالت له :

— كم يساوى هذا العقد يا عمرو ؟

فقال فى دهشة :

— وماذا تقصدين بسؤالك هذا ؟

فقالت :

— أقصد أن أبيعه لأفتدى به زوجى .

فقال عمرو وهو ينظر إليها فى دهشة وإجلال :

— أتريدين بيعه ؟

فقالت :

— إذا كان يستحق ثمناً .

فقال عمرو :

— إنه لؤلؤ نفيس لا أظن أحداً فى المدينة يعرف له ثمناً .

ومن ذا يشترى هذا العقد فى مثل هذا اليوم ؟

فقالت زينب :

ـ أما تسومه يا عمرو ؟

ثم خلعته ونظرت إليه فى حنين وهى تمد به يدها إلى عمرو .

فقال عمرو :

ـ ولم نبيعه يا أم على . ألا أذهب به إلى أبيك لأقدمه إليه فداء ؟

ففتحت عينيها مدهوشة وخطر لها خاطر سريع . فإن أباها سيعرف العقد إذا رآه .

وهناك فى يثرب ذهب عمرو بن الربيع يطلب فداء أخيه . وبقيت زينب فى دارها تنتظر عودة عمرو فى قلق ، وزادها حزناً وخوفاً أنها تحققت من عزم قريش على جعل ثمن التجارة التى أفلتت من المسلمين وقفاً على الإعداد للحرب المقبلة ، وماذا يجديها أن يعود ياسر زوجها ليستعد مع قومه مرة أخرى للمعركة الجديدة ؟

وكانت مكة كلها فى حداد لا يكاد يخلو بيت من بيوتها من النواح على فقيد أو أسير ، كل أسرة مشغولة بما أصابها والمدينة كلها تتقد من الغيظ وتتحرق للانتقام . فألح على زينب القلق ولم تجد إلى جنبها من يدخل عليها شيئاً من الأنس ، وقضت أياماً طويلة فى عزلة مظلمة . ولكنها كانت تجد العزاء والصبر كلما فرغت من الصلاة وتمثلت زوجها عائداً إليها ، وكلما تمثلت أباها فى المدينة آمناً منتصراً . وبدأت تتجلى لها الحقيقة

(٨)

أن الله قد استجاب لها فأنقذ لها زوجها وحفظ أباها ، وأن الدين الذى آمنت به قد انتصر نصراً عزيزاً .

وكانت مفاجأة سعيدة أن يدخل عليها ذات صباح زوجها ومعه أخوه عمرو يعيدان إليها العقد الذى بعثت به للفداء ، وأخذا يصفان لها كيف تحرك أبوها رقة عندما رآه فسأل أصحابه أن يطلقوا لها أسيرها ويعيدوا إليها عقدها . وأخذت زينب العقد بين كفيها وجعلت تقلبه صامتة وهى مطرقة . وأخذت تتأمل حباته اللامعة وتمر بأناملها عليها ثم رفعته إلى أنفها فتشممته فى شغف وهى تحاول أن تقاوم الشعور الذى أفعم صدرها . ولم تستطع أن تقاوم طويلا فوضعت وجهها بين يديها والعقد ما يزال فيهما وأجهشت بالبكاء .

الغمرات ثم ينجلينا

« الفتوة والنبل يجتمعان كي تنشأ أمة
مجيدة . »

كان لونه الأسمر الذى لوحته الشمس ينم عن أنه من أبناء الصحراء ، ولكن ملابسه كانت توهم من يراه أنه أحد أبناء الشاطئ الذى يسير فوقه شاطئ فينيقية الذى أنجب جبابرة المحيط منذ آلاف السنين . كان سرواله الطويل ينتهى من أعلاه إلى منطقة جلدية عريضة تدور حول وسطه ويتدلى منها سيفه المقوس . وكانت هامته الضخمة وقامته العالية وصدره العريض تنادى بأنه محارب تخشى سطوته . وكانت نظراته الخاطفة تلمع مثل شعاع البرق إذا تلفت حوله كالصقر الحذر ، وهو يسير الهوينى على الشاطئ ينقل طرفه فى الأفق كأنه يريد أن يستشف ما وراءه من الآفاق المجهولة . وسار فرسه الأبيض من ورائه بغير زمام كأنه كلب أليف أو تابع أمين ، يتابع خطواته عن قرب حتى يكون على مقربة منه رافعاً أذنيه متنبهاً إلى كل حركة من حوله. وهبّ الهواء من جانب البحر رفيقاً لا تكاد نسماته تجعد سطح الماء الأزرق الصافى الذى تنفذ العين فى رفارفه إلى القيعان



الرملية المتلألئة تحت ضوء الشمس فى ساعة الأصيل . كان المنظر يغمر الفتى بالهدوء ويبعث فى نفسه شجناً رفيقاً يساير ما فى فؤاده من الآمال المبهمة ، إذ كان على وشك أن يركب هذا البحر فى سرية من الشجعان ليحملوا لأول مرة لوء العرب إلى أرض الروم البعيدة .

كان عبد الله بن قيس الحارثى يتطلع إلى البراح الأزرق الذى أمامه ويفكر فى الرحلة المقبلة التى عزم على القيام بها بعد قليل مع أصحابه الشبان الذى تعودوا أن يقوموا بالمغامرات الجريئة تحت قيادته ، وإن كانوا لم يركبوا البحر من قبل فى مثل تلك الرحلة . وأخذ يصور لنفسه ما هو مقبل عليه فى مغامرته إذ يضرب فى آفاق تلك اللجة الواسعة مع رفاقه يطلبون المجد

ويرتادون المجهول أو يلتمسون الشهادة ؛ وكلما تمثلت له ضخامة المغامرة بأصحابه زاد شغفه بالمبادرة بها حتى لا يتخلف عن الآخرين الذين سبقوا إلى ميادين المجد والمغامرة والشهادة ، وفتحوا سهول العراق وهضاب فارس وأودية الشام وأرياف مصر .

سار عبد الله ساعة غروب الشمس يتحسس ثنيات الشواطئ شاعراً بأنه سيكون أول عربي يقدم على المخاطرة بغزوة فى البحار ، التى لم يجرؤ عليها أحد من شجعان العرب من قبله ، وكان أصحابه ما يزالون فى خيامهم على سفوح الكثبان الممتدة وراء الشاطئ ، يجهزون لأنفسهم الزاد والعدة لأيام الرحلة الطويلة التى قد تمتد بهم إلى شهور فى أرض غريبة . وكانت السفينة الرشيقة التى اعتزموا المغامرة بها رابضة فى إحدى ثنيات الشاطئ ، ترتفع بصواريها الخمسة فوق الصخور العالية المحيطة بالخليج .

لقد عرف عبد الله البحر منذ كان طفلا يمرح فوق رماله الصفر الناعمة ويسبح بين أمواجه التى كانت تداعبه أحياناً كأنها أرجوحة وتتقاذفه أحياناً بدفعاتها العاتية ، وعرف أسفار البحر فى السنابك الصغيرة التى تسير بين صخور الساحل وتشق مجراها بين شعابها المرجانية ذات الألوان الزاهية .

وكان فى صباه يجد فى البحر مباهج شتى تملأ قلبه سعادة ، كما كان يجد فيه مخاوف تملأ قلبه روعة ، ولكنه كان فى كل حال يحب البحر لما فيه من مباهج ومخاوف . كانت أسفاره فى أيام الصبا تطلعه على

آفاق متجددة ومناظر متباينة لا يشبه أحدها الآخر إلا فى أنها جميعاً مناظر خلابة رائعة ، كان يأنس بالبحر كلما تبسمت شمس الصباح أو تجلى البدر فى الليل أو كلما تلألأت النجوم فى الليالى المظلمة ، وكان يعرف فى أسفاره نشوة الحياة القوية التى لا تعرف الجمود والسكون . فإذا ما صفا نسيم البحر ملأ صدره من عطره القوى وإذا ما هبت غضبته وجد فى هدير أمواجه أنغاماً مثيرة تملأه بالرغبة فى الكفاح . وقد علمه خوض البحر أن الصفاء لا يدوم وأن المآزق لابد تنجلى بعد حين ، قد يتحول صفاؤه إلى إعصار فى لحظة وقد تخبو أعاصيره الشديدة بعد حين وتنتهى إلى صفاء بديع .

سار عبد الله على الشاطئ يحدث نفسه صامتاً بتلك الأحاديث حتى مالت الشمس إلى الأفق وكانت بلونها الأحمر تشبه جذوة النار التى توشك أن تنغمس فى الماء ، وتنبه على صوت أذان المغرب ينبعث من ورائه خافقاً بين تلال الشاطئ متردداً فى الهواء الساكن — حى على الصلاة ! فالتفت إلى فرسه وكان ما يزال يخطو من ورائه ، حتى إذا ما صار إزاءه وثب عليه وهمزه فى رفق فوثب به كالوعل البرى نحو خيام المعسكر ليدرك رفقاءه ويؤمهم فى الصلاة .

ولما فرغوا من أداء الفريضة اتجه عبد الله خاشعاً إلى السماء وجعل يدعو الله أن يرزقه العافية فى أصحابه وأن يجعله فداء لهم إذا قدر لأحد أن

يصاب فى الغزوة المقبلة . ثم قاموا يستعدون للرحيل من ليلتهم متى اعتدلت الريح فى تجاه بر الأناضول .

وسارت السفينة تحمل الكتيبة الصغيرة حتى غاب عنها الشاطئ ومن كان هناك من قواد الجيش الذين أرسلهم معاوية بن أبى سفيان أمير الشام ليشيعوا أول سفينة محاربة . وبعد أيام لاحت للسفينة شواطئ الروم . ووقف عبد الله يقلب بصره فى السماء يشكر الله على سلامة أصحابه فى تلك الرحلة الأولى . ولكنه رأى عند الأفق نقطة سوداء تلوح من بعيد كأنها سحابة غبار قاتم ، ووقع فى نفسه أنها من تلك السحب القاتمة التى تنذر باقتراب عاصفة . ولم تمض بعد ذلك إلا لحظات حتى انتشرت النقطة السوداء وارتفعت من حولها سحابات كأنها نفثات هائلة من الدخان تمتد فى أنحاء السماء ، وبدأ الهواء يضطرب وأخذ وجه الماء يتجعد ، فما هى إلا ساعة حتى اشتدت الرياح وجعلت تتقاذف بالسفينة . فنظر عبد الله إلى أصحابه وكانت وجوههم تنطق بما فى قلوبهم من الثبات ولكنها كانت أول مرة يواجهون فيها السماء الغاضبة فى لجة الماء. فصاح بهم عبدالله صيحة مرحة واندفع يعالج القلوع ويديرها بيدين ماهرتين وبادر أصحابه يساعدونه وهو يشير عليهم بما يفعلون والسفينة فى وسط الأمواج كأنها ريشة فى مهب الهواء .

ومضت ساعة طويلة والعاصفة تزأر والمياه تفور من أعلى السفينة

وأسفلها وهم يجاهدون الرياح والأمواج حتى بدت ثغرة زرقاء فى أفق الشمال ، فاستبشر عبد الله إذ دلته تجربته الماضية أن ذلك بدء انجلاء الغمرات . وبعد حين رها الهواء وهدأ الماء وعادت السفينة تطمئن على بقايا الموج وانقشعت العاصفة كما بدأت فجأة ولمعت الشمس وضاءة فى السماء الصافية كأن لم تكن هناك زوبعة هوجاء كادت تهلك السفينة ومن عليها . ونظر عبد الله إلى أصحابه باسماً وقد أسفرت وجوههم وأقبلوا نحوه مستبشرين بالخروج من الغمرة الشديدة فحل شملته واوح بها فوق رأسه فى الهواء وصاح بصوت فيه رنين الفوز قائلا :

— « الغمرات ثم ينجلينا »

فهتف أصحابه من بعده فى حماسة يرددون هتافه وقام عبد الله فيهم إماماً ليصلوا شكراً لله .

ووصلت السفينة إلى الشاطئ عند غبش الفجر ، ونزلت الكتيبة إلى الأرض الصلبة التى لا تميد بهم إذا ساروا ولا تغوص بهم إذا اشتد عصف الرياح ، وتصايحوا يهنئ بعضهم بعضاً بالتجربة الكبرى التى علمتهم أن الغمرات لابد أن تنجلى إذا ثبت لها من يقتحمها .

وركبوا خيولهم التى أتوا بها معهم فصعدوا فى بطن الوادى الذى نزلوا عنده ، وأوغلوا فى الأرض ليتموا ما جاءوا من أجله وهو لقاء الروم . ثم دارت معركة . . .

وكانت الشمس تسطع فوق الوادى عندما انثنى عبد الله برجاله بعد الموقعة الظافرة عائداً إلى الشاطئ .. فلما بلغه وقف يتفقد أصحابه ليرى ما أصابهم من المعركة ، فلما انتهى إلى آخرهم وعرف أنهم لم يصابوا إلا بجراح يسيرة خر ساجداً لله الذى استجاب إلى دعوته . ولما فرغ الفتيان من تضميد جراحهم أقبل عليهم عبد الله مرة أخرى ولوح بسيفه فى الهواء صائحاً صيحته : الغمرات ثم ينجلينا — وردد الفتيان صيحته فى حماسة ، وردد‍تها معهم الأصداء المتكررة بين جوانب التلال .

وذهبوا يقصدون السفينة فى المرفأ فوجدوا هناك جمعاً من فقراء أهل القرى المجاورة جاءوا إلى هناك يحسبون القادمين تجاراً ، يلتمسون منهم الإحسان ، فلما اقتربوا منهم جفلوا خائفين وكان أكثرهم صبية ونساء . ولكن الفرسان وثبوا عن أفراسهم ، وذهبوا إلى الماء يغتسلون ويتوضأون . ثم وقفوا صفاً وراء عبد الله بن قيس يؤدون الصلاة .

وتجرأ الصبية فتقدموا نحوهم ينظرون إلى حركتهم فى القيام والسجود وتجرأ من بعدهم النساء ، فتقدمن يتصفحن الوجوه ويتأملن ملامحها ، وينظرن إلى قامات الفتيان وهيئتهم ، ويعجبن من غرابة ملابسهم . فلما انتهت الصلاة تقدم بعض الصبية فى تردد حتى وقفوا بين الفتيان وهم يستعدون للرحيل ، فأقبل هؤلاء عليهم يمسحون رءوسهم ويبتسمون لهم ، ويلقون إليهم بقطع من الفضة والنحاس ، وتقدم بعدهم النسوة فى أسمالهن

حتى وقفن بينهم يتحدثن باسمات ويسألنهم العطاء . فمد الفرسان أيديهم إليهن بالعطاء ثم غضوا الأبصار عن بسماتهن وساروا نحو السفينة وفى أيديهم بلجم الخيل ، حتى ركبوا جميعاً ، وحلوا القلوع وشقوا رءوس الأمواج .

ومرت بعد ذلك سنة فى إثر سنة ، وتوالت غزوات الفتيان على سواحل الروم ، وزادت جرأتهم على البحر . فكانوا يقتحمونه فى الشتاء كما يجوبونه فى الصيف ، وعرفوا مسالكه فى ظلمات الليل ، كما عرفوا مساربه بين شعاب الخلجان . وكانوا يعودون من كل غزوة ملتفين حول قائدهم الذى دب الشيب إلى فوديه من صراع تلك السنين المليئة بالأحداث .

وذهبت السفن تتهادى مرة أخرى فى مطلع الصيف إلى ذلك الشاطئ كما تتهادى القافلة على فدافد الصحراء . وكان الفتيان عند ذلك قد صاروا رجالا وتبعتهم طبقة بعد طبقة من الفتيان الذين جذبتهم مغامرات البحر . ولكن أميرهم عبد الله كان دائماً عند مقدم السفينة الأولى يرتاد لهم الطريق ويختار لهم مرافئ النزول .

وهبط بهم عبد الله على الساحل على مقربة من المرفأ الأعظم ، وصفهم صفًّا على الخيل ، ولكنه تردد عند ما نظر إلى المدينة العظمى ، التى كانت تلوح من فوق التلال البعيدة ، وهى ثغر الروم الأعظم الذى أودعوا فيه بقية شوكتهم .

كانت مخاطرة عظيمة أن يتقدم بفتيانه نحو المدينة الكبرى ، ولكنه

لم يطل التردد وعزم على أن يخوض المعركة . ورأى أن يذهب وحده ليرتاد ميدان المعركة قبل أن يقدم عليها .

فانتحى ناحية يصلى وأعاد دعاءه أن يحفظ الله فتيانه ،وأن يجعله لهم الفداء ، ثم نزل فى سفينة صغيرة مع ملاح فرد ليتحسس الساحل ويستطلع ما فيه من حصون وجنود قبل أن يسير إليه بجيشه الصغير . ولبس ثياب تاجر ليخفى سلاحه ودرعه ، وهبط بقاربه الخفيف إلى المرفأ حتى نزل فى بقعة منعزلة من البر متوارياً فى الصخور . وجعل يتعرف معالم المدينة .

ولم يكن هناك سوى بعض نسوة يحتلن على اصطياد الرزق من قواقع الشاطئ ، فلما رأين عبد الله وقفن يطلبن إحسانه فمد إليهن يده بالعطاء وأسرع عنهن يثب فوق صخور الساحل ، وتركهن ينظرن إلى ما ألقى فى أكفهن من قطع الفضة والنحاس . وصاح النساء صيحات فرح ، وهتفن به شاكرات ، ووقفن ينظرن فى أعقابه ، وهو يسير خفيفاً على الشاطئ برأسه المرفوع وقامته المديدة ، وجعلن يتحدثن عنه فى إعجاب . وكانت فيهن امرأة طال ترادها على تلك السواحل منذ سنين ، وجابت أطرافها منذ كانت شابة . حتى ذهب شبابها وعصفت بها الأيام فلم تبق منها إلا أسمالها البالية وجسدها النحيل . فلما انصرف التاجر العجيب وقفت تنظر فى أعقابه مشدوهة ، كأنها تتفقد شيئاً غاب عنها . . تنظر حيناً إلى ما فى يديها من العطاء وتسرح حيناً فى أخيلة الذكرى ثم تنظر نحو الرجل وهو

يتباعد عنها رويداً رويداً فتذكرت أنها رأت تلك الصورة يوماً. ثم سنحت لها الصورة من عالم بعيد فصاحت صيحة مكبوتة ، والنساء من حولها يتضاحكن ويتغامزن ويتهامسن عنها قائلات :

— « إنها لتنظر إلى الرجل الغريب ولا تكاد تثنى عينيها عنه » .

فصاحت بهن المرأة :

— « ويحكن أيتها الخبيثات ! فما بى من صبوة تحملنى على النظر فى أعقاب هذا الكهل ، وأنا اليوم امرأة عجوز !

فصاحت بها فتاة من بينهن :

— « فما خطبك إذن؟ ومالك تبرقين فى أعقاب الرجل وقد انصرف عنك؟ أما سحرتك قامته السمهرية ؟ أما خلب لبك ما يلوح عليه من خيلاء ؟ ؟ أما أطمعك فيه كرمه ، وحرك جشعك ما عليه من مخايل الثراء ؟ »

ولم تجب العجوز عليها بحرف بل صاحت تقول :

— « إنه صاحب الصيحة الغريبة وقائد الفتيان. إنه صاحب الغارات التى روعت هذا الساحل منذ سنين . إنه هو الذى هزم هؤلاء الذين يزعمون أنهم أبطال الحروب » .

وجعلت تقص على صويحباتها ما شهدت من عبد الله وما سمعت عنه فى غاراته التى شهدتها مراراً وذكرت لهن صيحته العجيبة التى طالما ترددت أصداؤها بين أودية تلك السواحل بعد الانتصار . ثم جعلت تفيض فى

وصف الفتيان الذين كانت تراهم أحياناً كالجان فوق الخيول وأحياناً كالرهبان فى الصلاة .

ولما انتهت من قصتها نظرت نحو الرجل الغريب ، وكان ما يزال يضرب فوق الصخور بقامته العالية وخطاه الخفيفة ، فصاحت مؤكدة :

— «أهذا أيها الحمقى تاجر السلع ؟ أهكذا يمشى قعيد الحوانيت ؟ أهكذا يثب على الصخر سعاة الأسواق ؟ أما رأيتن عطاءه عطاء الملوك ؟ أما وقعت عين إحداكن فى عينه ؟ »

ثم مضت غاضبة من حماقتهن وسخريتهن .

وسار النساء نحو المدينة وهن يتحدثن عن العجوز الشوهاء وعن التاجر السخى بالعطاء . ويعدن قصة الرجل الغريب على كل من تجمعه بهن الطريق .

ومضى عبد الله بن قيس يسير على الساحل ويتدسس فى ثناياه ويفحص صخوره وخلجانه ، ويعد حصونه ومسالحه ، حتى مالت الشمس إلى المغيب وألقت بشعاعها الفاتر إلى صفحة الماء من خلال السحب ذات الألوان الباهرة واسترعى نظره جمال الأفق الغربى ، فوقف حيناً ينظر إليه مبهوتاً خاشعاً ، ولما عرف أهل المدينة من النساء نبأ الزائر الرهيب خرجوا إلى حراس المدينة يطلبون النجدة ولمح عبد الله جمعاً فى أسفل الشاطئ ، ولمع له من خلاله بريق يشبه أن يكون بريق السلاح. فلمس مقبض سيفه

من تحت ثوبه الفضفاض وعلت وجهه عبسة جد صارمة . وساءل نفسه :

ـ « من يكون هؤلاء ؟ ؟ »

ولكنه لم يذكر سوى فتيانه ، وخشى أن يؤتى إليهم من بعض الشعاب على غرة فاندفع عائداً إليهم يثب فوق صخور الساحل كأنه يسابق ظلال المساء ، ولكن الجمع المقبل اتجه إليه وانتشر يأخذ عليه أفواه السبل ، فعرف أنه هو المقصود ، وامتلأ قلبه سكينة أن يكون هو غرض الروم دون أصحابه ووقف يستعد للقتال . وأحاط به الروم مع طلائع الليل ، وأسرع الظلام يلف الأرض حتى صار عبد الله يتحسس مواقع خطاه وهو يقفز من صخرة إلى صخرة ، وهو يقاتل بسيفه من أمامه ومن حوله والأعداء ينحدرون إليه من كل جهة ويوشكون أن يلتثموا عليه . وما زال يدافعهم حتى بلغ قريباً من مرسى السفين وصاح صيحته :

ـ « الغمرات ثم ينجلينا » !

وأقبل على الروم يحاورهم ويواثبهم والجراح تنهال عليه من مئات الرماح . وتصايح جنود الروم فى حنق عندما سمعوا صيحته التى ذكرتهم وقعاته الماضية وزادتهم به علماً ، فتواثبوا عليه حتى تعثر فى الصخر ووقع إلى الأرض والتأمت عليه السيوف والرماح .

وسمع عبدالله وهو طريح يعانى سكرات الموت صيحة ترددت أصداؤها فى الظلام مجلجلة صدعت سمعه الكليل ، فعرف أنها صيحة الفتيان .

وانتفض يريد أن يثب على قدميه ولكنه لم يقو على النهوض . وسمع الروم الصيحة فتلفتوا ثم تصايحوا وانتشروا هاربين فى الظلام ، وتركوا جثة عبدالله حيث كانت على الصخر وقائم السيف ما يزال فى يمينه . واهتدى الفتيان بعد حين إلى موضع قائدهم الباسل ، فحملوه وكانت على وجهه ابتسامة وهو يتمتم بالصلاة فى آخر أنفاسه وسمعوا آخر كلماته إذ يشكر الله على أن استجاب دعوته وجعله لصحبه الفداء .

عبيد الله بن الحر

« عندما تضطرب الأهواء تغضب
البطولة . وعندما تتعدد الأحزاب تتجرد سيوف
الشجعان ، ليضرب بعضهم رقاب بعض »

آثر ابن الحر أن يعتزل فى بيته فى تلك الفتن الجارفة التى مزقت الكوفة وزعزعت أركانها وأذاعت بها الخوف والفوضى . كان عبيد الله بن الحر الجعفى رجل الحروب والمخاطر ، وهو الذى قضى ما مضى من عمره فى كفاح منذ كان شاباً لم يبلغ العشرين إلى أن صار شيخاً نيف على السبعين ، ولكنه آثر أن يقيم فى بيته، متباعداً عن تلك الفتنة العمياء الجديدة التى أثارها طلاب الملك من كل جانب . وماذا كان يحمل ابن الحر على أن ينغمس فى مثل تلك الفتنة التى ترددت فيها صيحات الجاهلية ، وثارت فيها عصبيات القبائل الهوجاء؟ لقد أصبح كل حىّ ثائراً بالحىّ الذى يجاوره وصار كل قبيل يلتمس لنفسه الحلفاء ممن كانوا حلفاء لأسلافه قبل أن يجمع الإسلام العرب ويؤلف بين قلوبهم .

كانت قبيلة بكر بن وائل تحارب تميماً ، وكانت الأزد تنافس جيرانها

من بكر وتميم ، فلا جوار ولا قرار ولا عقد ولا عهد ، بل هى أطماع ثائرة ، وأهواء متنافرة . وما كان ابن الحر الذى شارك فى بناء الإسلام فى القادسية ونهاوند وهو شاب ، ليشارك وهو شيخ فى هدم ذلك البناء الشامخ الذى تناولته الأطماع بمثل هذا العنف ، وكادت تدك أساسه وتهد أركانه.

وأقام فى بيته يناجى الهموم التى ملأت قلبه من ذكريات الحوادث التى مرت به بعد أن تكشفت له حقائق الناس وظهر له ما تنطوى عليه الحياة من نفاق وخداع ومن كذب ودناءة . كان قلبه الفتىّ من قبل ممتلئاً بالحماسة الخالصة ، فمازالت الأعوام تكشف له الغطاء عن الناس طائفة بعد أخرى حتى ضاق بالحقيقة ، وعاف المشاركة فيما يتحرك إليه هؤلاء الناس . كان قلبه الفتىّ منذ أربعين عاماً يمتلىء بالدعوة إلى الحق ، ولا يبالى أن يبذل دماءه فى سبيل الحق ، ولا يرضى فى جهاده إلا بأن يكون فى صدر الأخطار . ولكنه بعد هذه السنين الطويلة ، لم ير إلا أن الخلاف قد أصبح على الحكم والسيادة وسلطان الحياة الدنيا .

كان يسمع فى كل موطن من مواطن القتال صيحات الحق والعدل تتجاوب من كل جانب ، ولكنه لم يجد فى حقائق الحياة إلا الطمع فى الأموال والزخارف والحرص على النعيم ومفاتن الحياة ، فما الذى يدفعه بعد ذلك كله إلى المشاركة فى الفتنة الجديدة ؟

وكان ابن الحر فوق هذا يريد أن يذوق شيئاً من السلام إلى جوار

امرأته الحبيبة أم توبة ، ابنة عمه سلمى الجعفية ، التى تزوج منها وقد نيف على الستين ، وكانت فتاة فى البضع والعشرين ، تملأ بيته سعادة ، وتشيع فيه السلام . وكانت حسناء رائعة يزينها ما هو أكبر من الحسن والشباب ، من وداعة نفسها ونقاوة قلبها .

كانت أم توبة كلها روحاً وذكاء وطهراً فكان لا يحس إذا جالسها بما يفرق بينهما من عدد السنين ، وعاد قلبه معها فتيًّا ينبض ويخفق كما كان فى العشرين . لهذا لم تستدرجه الأنباء التى كانت تترامى إليه وهو معتكف فى داره ولم تغره الفتن المتعاقبة على أن يعود إلى معامع النضال القاسية . فسمع أن البصرة تضطرب ، وأن أميرها ابن زياد هرب لائذاً بالشام . ثم سمع أن الشام تتنازعها الأهواء بين صبية بنى أمية من ولد يزيد بن معاوية وبين مروان بن الحكم شيخ قريش ، وسمع أن عبد الله بن الزبير يدعو إلى نفسه ، ويبعث البعوث إلى الأمصار يستميل أهلها وشيوخها وينازع بنى أمية ملكهم .

ولكنه لم يهتز إلى شىء من تلك الأنباء ، وبقى على عزلته مغلقاً بابه عليه .

* * *

وكانت ليلة من ليالى الصيف والغبار الثائر فى الهواء ينعقد مع الأبخرة فى ضباب كثيف ، وأحس ابن الحر ضيقاً ، فصعد إلى سطح داره

بالكوفة ليقضى الليلة تحت السماء مطلا على الصحراء ليتنفس ملء صدره، كما اعتاد أن يملأ صدره إذ كان يضرب فى فيافى الين قبل أن ينزل مدينة الكوفة .

وجاءه بعد العشاء جماعة يطلبون لقاءه فشعر بقبضة زادت أنفاسه ضيقاً . فماذا يبغى الناس منه وقد اعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم ؟ ولكنهم كانوا أصدقاء جاءوا يستأذنون عليه ، فلم يستطع أن يردهم بالخيبة .

فقام من مجلسه فاتراً ، ولبس عباءة من الديباج الأصفر وخفاً من جلد لين أحمر ، ولف على رأسه عمامة من ثوب يمنى ، ثم مس بعض الطيب ومسح به لحيته، وكانت لا تزال سوداء تناثرت فيها شعرات بيضاء، ثم نزل متثاقلا حتى بلغ رحبة الدار ، فوثب الضيوف وقوفاً يرحبون به فى حرارة .

كانوا جماعة لا تضمهم رابطة من عصبية ، تعودوا من قبل أن يجتمعوا حوله ويأتمروا بأمره . وقد جاءوا إليه لأنهم رأوا أمور الناس قد فسدت واضطربت . ولم يجدوا فى حيرتهم من يلجأون إليه غير صاحبهم الشيخ الباسل الذى طالما علمهم أن يلزموا الحق وأن ينصروه فى كل موطن .

ودار الحديث بين الجمع ، فلمح ابن الحر ما جاءوا من أجله فجعل يردهم فى رفق ويرجعهم عن نفسه فى تجمل . وطالت بينهم المناظرة فعجب الرجال كيف تبدل ابن الحر وتغير ، وكيف رضى أن يقيم فى عقر داره



وقد اشتعلت الفتنة وهو الرجل الذى بنى مجده فى معترك النضال من أجل الحق . وتجرأ شاب منهم وقال له :

ــ أيجمل بك الاحتجاب يا أبا الأشرس وهذه الحال كما ترى ؟

فقال ابن الحر باسماً :

ــ لقد أصبحت يا ابن أخى لا أرى . لست أرى شيئاً ولا أعبأ بأن أرى .

فقال الشاب وقد أحس فى جواب الشيخ شيئاً من الاستخفاف :

ــ ما عهدناك إلا ذا بصر وبصيرة يا شيخ جعفى .

فأطرق الشيخ لحظة ثم قال :

– لقد علمت حسن رأيك يا جرير بن كريب ، ولكنى آثرت أن أعكف على صلاتى وأنتظر لقاء ربى .

فقال جرير فى شىء من اللجاجة :

– عرفناك دائماً مصلياً كما عرفنا أنك تنتظر لقاء ربك فى كل لحظة . ولكن ذلك لم يمنعك من نصرة الحق فيما مضى .

فلم يملك ابن الحر أن تبسم وقال فى دفعة :

– الحق ؟ أين الحق يا ولدى ؟ إنها كلمة تتردد على الألسنة ولا يراد بها إلا غير الحق .

فتحرك القوم قلقين ، وقال أحدهم فى صوت أجش :

– أأنكرت الحق يا أبا الأشرس وقد طالما نصرته ؟

فعاد ابن الحر إلى الإطراق ، وانعقدت على وجهه عبسة وقال بعد قليل :

– وكيف أنكر الحق وقد قضيت العمر أنصره ؟ ألا إنى قد رأيت الناس قد صار أمرهم إلى فتنة عمياء . أما سمعتم عبد الله بن عمر صاحب الرسول يقول : « إنها فتنة . القاعد فيها خير من القائم ؟ » ألا ترى ذلك يا أخا الأزد ؟

فقال الرجل معبساً :

– إنها كلمة قالها ابن عمر ليدارى بها ضعفه ، وما أنت وابن عمر ؟

إنه رجل لم تسبق له همة .

فتحرك ابن الحر فى شىء من الامتعاض وقال :

— مهلا يا عمرو بن جندب . ألم يكف هذا العالم من قد وثبوا به ؟ ألا يكفيك أن ترى فى الشام مروان ، وفى البصرة ابن الزبير ، وفى فارس ابن الأزرق ، وفى خراسان ابن حازم ؟ أتريد أن نثب نحن كذلك على الكوفة فنزيد فى الفتنة عصبة أخرى تسفك الدماء ؟ ألا لقد آن لابن الحر أن يتجنب دماء المسلمين يا عمرو بن جندب . لقد أرقت من الدماء فى حروبى ما أرجو أن يغفره الله لى ، إذ أرقتها وأنا أحسب أنى أجاهد فى سبيله . ولكنى أرى القتال أصبح اليوم فى سبيل الدنيا وحدها . لا يا عمرو لن أسفك بيدى هذه دماً جديداً فى غير قصد . وما الذى جد فى أمرنا حتى نتحدث عن الثورة ؟ لقد بايعت البصرة ابن الزبير وما نحن والبصرة إلا كجناحى هذا العراق ، إن فى البصرة قوماً لا يقلون عنا عدداً . وليسوا دوننا شرفاً ، وما أسلموا أمرهم إلى ابن الزبير إلا بعد أن ذاقوا مرارة الفتنة فيما بينهم . ألا تعرفون ما ذاقت البصرة من الويل والخراب إذ وثبت بكر بتميم ، ووثبت تميم بالأزد ؟ أفتحبون أن ينزل بالكوفة ما نزل بأختها من قبل ؟ هذا هو الأحنف بن قيس سيد تميم بالبصرة ، وهذه بكر بن وائل مع مالك بن مسمع ، وهذه الأزد مع ابن عمرو ، قد اتفقوا جميعاً على أن يتجنبوا القتال وبايعوا لابن الزبير . فلم لا تبايعونه وتحقنون الدماء ؟

وكان ابن الحر يريد أن يستمر فى حجته، لولا أن قاطعه أحد الفتيان صائحاً :

ــ لقد صدقت يا ابن الحر. إنك لست ترى شيئاً، ولا تعبأ أن ترى شيئاً!

فغضب الشيخ وعبس عبسة مظلمة ، والتفت إلى الفتى قائلا :

ــ ألمثلى يقال هذا يا مجشر؟ أما والله لولا علمى بما عندك من المودة لأجبتك جواباً لا ترضاه . .

فقال المجشر معتذراً :

ــ لم أقصد يا أبا الأشرس أن أسىء إليك بل أقصد أن أقول لك إنه قد جد فى الأمر جديد لا تعرفه . وقد كنا نحسبك قد سمعت بما كان .

فسكن ابن الحر وقال هادئاً :

ــ وما ذاك الجديد يا مجشر ؟

فقال الشاب فى حنق :

ــ الجديد أن البصرة تحترق فى ثورة جديدة . خرج ابن أبى عبيد ــ المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وثار أتباعه اليوم فقتلوا الشرط ، وهرب الأمير ابن مطيع عامل ابن الزبير .

فوجم ابن الحر ونظر إلى القوم فاتحاً عينيه كأنه لا يصدق ما يسمع ، ثم قال فى شىء من الحزن :

ــ أهى فتنة أخرى ؟

فصاح جرير :

– هى صفقات بيع وشراء . . خرج المختار منادياً بدم الحسين ليقبض لنفسه ميراث الحسين ! !

فقال ابن الحر فى حنق :

– برئ الحسين منهم . أشهد لقد سمعت الصادق يحكى عن هذا الرجل أنه ما كان يبغض فى الناس أكثر من بغضه علياً وولد على .

وأخذ الفتيان يصفون ما يعلمون من حال البصرة وما صارت إليه أمورها .

وصاح المجشر متحمساً :

– نحن اليوم بين أمرين لا غنى لنا عن اختيار بينهما : نقيم فى يد المختار الثقفى ، أو نقاومه لنمنع طغيانه ونفاقه .

وشمل الجمع سكون مدة لحظات طويلة ، كانوا فيها ينتظرون جواب ابن الحر . كانوا ينظرون إليه ويرقبون حركات وجهه إذ هو مطرق واجم محمر الوجه . كأنما ينتظرون صوت القضاء . وكان ابن الحر فى إطراقه يفكر وتتقاذفه الخواطر وتتجاذبه الميول . أيخرج من عزلته التى ركن إليها وأمل أن يبعد فيها عن الفتن ليذوق السلام فيما بقى له من أيام ؟ أم يتبع أصحابه ويعود إلى المعامع القاسية مرة أخرى غضباً من أن يتولى الأمر طاغية ظالم ؟! أيجدر به أن يبقى على عزلته ويترك الأمر يؤول إلى المختار بن

أبى عبيد ويتحمل ذنب كل ما يقع منه من المفاسد والمظالم ؟ ولكن ما هناك فى الزعماء إلا ظالم وطاغية ؟ . . . إنهم جميعاً يبيعون ويشترون ولم يكن منهم من يقصد إلا أن يحرز لنفسه منفعة .

ورفع ابن الحر رأسه فى بطء وقال :

ــ أيها الشجعان ! لا أحسبكم تظنون بى الجبن عن خوض الحروب حرصاً على بقية ضئيلة من الحياة . فلقد كنت كما تعلمون فى صدر الأخطار كلما دعانى الواجب ولكنى رأيت هذا الأمر قد صار إلى منازعة الأطماع بعد أن ذهب الأخيار إلى القبور . فإذا أنا اليوم قاتلت فلن يكون قتالى إلا فى سبيل بعض من يريد شراء عرض من أعراض هذه الدنيا . ولن أبذل فى سبيل هؤلاء نقطة من دماء المسلمين . لا . لن أكون فى مثل هذا أبدا !

فعاد السكون لحظة أخرى طويلة ، وتردد الرجال بم يجيبون وهم حائرون بين هيبة شيخهم وبين حنقهم من تخذيله إياهم . ثم انفجروا غاضبين ، وجعل كل منهم يلقى إليه سهماً من قوله ، وقام ابن الحر غاضباً مما جبهوه به ، وقال فى صوت متهدج :

ــ لقد بلغتم من عمكم ما بلغتم فحسبكم . إنها كلمة لا أقول غيرها . لن أدخل فى شىء من هذه الفتن الجامحة .

فطأطأوا رءوسهم حزناً وقاموا وهم يكتمون ما على ألسنتهم من ألفاظ الحنق ، ولكن المجشر التفت نحوه وهو منصرف وقال :

ــ أو تحسب يا أبا الأشرس أنك تقيم فى دارك آمناً ؟، والله لتعودن إلينا إذا رأيت الطلب حثيثاً فى آثارك . والله لن يتركك ابن أبى عبيد فى أمنك هذا . اقعد ما شئت فسوف يحتوشك الكلاب . ولئن عدت يوماً إلى ما ندعوك إليه الآن لتجدنّنا سراعاً إلى تلبية ندائك .

ثم سار الجمع وهم صامتون ، وعاد ابن الحر إلى مجلسه من ابنة عمه فأفضى إليها بما كان . وجعل يحدثها ويعيد عليها حجته التى رد بها أصحابه . وكأنه أراد بذلك أن يقوى نفسه ، إذ أخذ يشعر أنه قد خانهم فيما عاهدهم عليه من قبل .

ونظر إلى سلمى ينتظر جوابها ويستوحى خاطرها ، فقالت وقد علمت ما يريد :

ــ أحسنت والله يا أبا الأشرس لو أن المختار تركك آمناً فى بيتك .

فأطرق ابن الحر حيناً وهو صامت ثم رفع رأسه وتكلف الابتسام وقال لامرأته فى حزن :

ــ سنرى ما يفعل ابن أبى عبيد .

ثم انتقل معها بالحديث إلى حيث كانا من قبل يتناجيان .

ومر الصيف ومضى من بعده الشتاء ، وأقبل الربيع فى موكبه تهب فيه الريح رخاء، وتسرح السحب البيضاء فى السماء الصافية. والمرج يزهو فى حلته الخضراء، والزهر يبسم للحياة الجديدة، ولكن ابن الحر لم يكن فى بيته لأنه كان قد خرج مع سبعمائة من أصدقائه الشبان إلى المدائن وعسكروا هناك يستجمون بعد رحلة طويلة هبطوا فيها من الجبل .

لقد صدق ما تنبأ به المجشر عند ما قال لابن الحر منذ عام إن المختار لن يتركه فى الكوفة آمناً فى عزلته . فلم يقنع المختار منه بالعزلة وأوفد إليه الرسل ليذهب إليه ، فرد ابن الحر الرسل معتذراً ولم يذهب وألح عليه المختار ولج هو فى الإباء . فساء ظن الطاغية فيه وأخذ يدبر للإيقاع به كما أوقع بمئات غيره من سادة الكوفة الذين اعتكفوا فى بيوتهم اتقاء الفتنة. وأتاه أصحابه يوماً يحملون إليه نبأ ما يدبره المختار للإيقاع به ، فتردد حيناً حتى استيقن من الأمر ، ولم يكن له بد من الخروج معهم . وغادر الوطن وخلف ابنة عمه وراءه فى الكوفة وأمسك قلبه أن يخونه عند الوداع .

وكان يوماً عاصفاً بارداً من أيام ذلك الربيع وقد مالت الشمس إلى الغرب ، وصبغت الأفق بألوان الشفق .

ونزل ابن الحر وفتيانه فى وهدة ملتفة الشجر عند المدائن ، يكمنون فيها حتى لا يبصرهم من يسير على الطريق الواضح . وأقاموا على مداخل الوهدة ربيئة تحرسهم من أرصاد العدو ، وجلسوا حول حفرة أوقدوا فيها

ناراً ليستدفئوا . وكانت رحالهم وأحمالهم مبعثرة فى أطراف الوهدة تتخلل الشجر ، وتغطى الساحات الفسيحة التى بين الدحال الملتفة تنبئ بأنها ألقيت هناك على عجل . ولما غابت الشمس ، هبوا إلى الصلاة يؤمهم ابن الحر ، حتى إذا ما انتهوا من الصلاة ذهبوا إلى رحالهم يلتمسون عشاء أو يستريحون من الجهد ، وبقى ابن الحر مائلا على النار ، مفكراً ينظر إلى لهيبها وينسج منه فى خياله صوراً . وحمله الخيال إلى الكوفة وإلى داره التى خلف فيها أم توبة من ورائه . وكان بين حين وحين ينظر نحو الغرب قلقاً يحاول أن يرى ما بين الشجر من ضوء القمر . ثم يعود إلى إطراقه ويميل على النار يتأمل ما تخيله له من الصور . وكان القمر قد توسط السماء وأوشك أن ينحدر إلى الغرب ، عندما لاح له شبح راكب يسرع بين الأشجار . فقام نحوه فى لهفة فإذا هو رسول جاء يحمل إليه بعض الأنباء .

وقال الرسول فى صوت المواساة :

— لا يرعك ما حملت إليك يا أبا الأشرس !

وكان هذا القول كافياً ليفهم ابن الحر أن صاحبه يحمل إليه مأساة .

وقص الرجل عليه قصة قصيرة أذكت فى قلبه ناراً تتأجج . فصاح بصوت ترددت أصداؤه فى الليل الساجى .

— يا غوثاه !

ثم ارتمى على جذع نخلة ووضع رأسه بين يديه . فتحركت الأغطية

فجأة فى جوانب الرحال المنثورة بين الشجر ، وتهاوى أصحابه إليه يترنحون من أثر النعاس ، حتى التفوا به وجعلوا يتساءلون عما أصابه . فقص عليهم الرسول قصته :

ـــ انتهب المختار ضياع ابن الحر وأحرق داره وساق امرأته سلمى النبيلة أم توبة إلى السجن ولم يرده عن قسوته أنها امرأة آمنة فى بيتها .

وما كاد الفتيان يسمعون القصة حتى انصرفوا فى صمت إلى الرحال ، وجعلوا يستعدون سراعاً للمسير .

وانحدر القمر إلى الغرب وطلع الفجر ، وكان ابن الحر وأتباعه سبعمائة فارس يمسحون بسنابك خيلهم عقود الندى الغزير المخيم على البساط الأخضر من عشب المرج عند مداخل الكوفة. ثم تسللوا من جبانة السبيع إلى موضع السجن.

وكان الحراس قد هدأوا وغطوا رءوسهم بالأقبية الصوفية الغليظة يستدفئون من البرد القارس، ويصيبون من النوم إغفاءة فى السحر فأيقظتهم أصوات فتيان ابن الحر عند رءوسهم يحطمون أبواب السجن فى حنق ، ولم يفلت منهم إلا من استطاع أن يهرب ، وانطلق ابن الحر فى سراديب السجن ، يعدو فى تلافيف الحجرات والسيف مصلت فى يمينه وهو ينادى : « أم توبة ! هذا ابن عمك يسرع إليك » .

فلما بلغ أقصى السجن سمع صوتاً ضعيفاً كأنه ينبعث من تحت أقدامه قائلا :

– إلى أبا الأشرس !

فاندفع نحو الباب المطأطئ الذى دونه ، فحطمه بطعنات رمحه ودفعات جسمه ، ورأى أمامه امرأته الحبيبة كأنها شبح أصفر لاتكاد تقوى على الوقوف . فاحتملها بين يديه وعدا بها وهو صامت اللسان خافق القلب ، حتى إذا بلغ رحبة السجن وجد أصحابه لا يزالون يضطربون ويحطمون فصاح بهم :

– أطلقوا من تجدون فى حبس الطاغية . .

ثم انتحى بابنة عمه ، فوضع عليها عباءته ، وفتح لها ذراعيه ، وقال لها :

– فداك دمى أيتها الحبيبة !

فاندفعت سلمى بين يديه باكية .

فضمها إلى صدره كما تضم الحمامة فرخها إلى جناحها . وقال وهو يهدر فى ثورته :

– لأثيرنها عليهم ناراً لا تطفأ ، ولأبعثنها عليهم زلازل لا تبقى ولا تذر حتى أدك صرحهم الخاوى الذى لا قوام له إلا على مثل هذا الجرم الشنيع .

وفيما هو يحدث امرأته سمع حوافر خيل مقبلة فأسرع إلى فرسه وصاح فى فتيانه :

– هلموا إلى الجبابرة الأنذال . .

وسارع الفتيان فركبوا من حوله وهو مردف حليلته من خلفه ، حتى

خرجوا من السجن إلى الأرض البراح وكان صداماً عنيفاً بينهم وبين جنود الطاغية حتى خرجوا من صفوفهم المتراصة .

ولما نزلوا أخيراً عند المساء فى الوهدة الغائرة بين الدحال وطلع القمر فوق الفضاء الساكن سمع الفتيان صوت شيخهم يتغنى عند رحله بأبيات شجية من شعره . وكانت نبراته المختلجة تنم عما فى صدره من الأشجان .

ثم نادى أصحابه فى صيحة عالية فلما اجتمعوا حوله رفع يده عالية وقال فى صوته الجهورى : « سنعود إلى القتال الليلة أيها الشجعان . لن ننتظر الصباح حتى لا يطول أمد الطغيان » .

فارسة قصر الباهلى

« هذه امرأة تلد الأبطال . . . »

كان المرج الأخضر يمتد حول القصر — قصر الباهلى — فلا تقع منه العين إلاعلى بساط يتموج مع النسيم، وقد وشته الزهور بين بيضاء وصفراء وحمراء ، وخرج الرعاء يسوقون فيه قطعانهم وخيولهم الضامرة .

وخرج من الحصن صبية يمرحون فى صباح ذلك اليوم الوديع ، بعد أن حبسهم الشتاء فى حصنهم الحصين شهوراً طويلة ، كانت فيها تلك المروج هادئة فى سبات يشبه الموت ، تحت أكداس من الثلوج تعصف عليها زعازع الزمهرير .

كان ذلك فى أرض السغد فيما وراء سمرقند ، وقد وطئتها أقدام فرسان العرب منذ سنوات قليلة، مع قائدهم الشاب قتيبة بن مسلم الباهلىالقيسى .

ومشت بين الصبية امرأة فارعة بيضاء ، واسعة العينين سوداء الشعر تتنفس سحراً وكبراً ونبلا ، وعليها حلة من الحرير الأبيض ، ووشاح رقيق تزينه نقوش زاهية تحاكى ألوان زهور المرج . وكان حول خصرها الدقيق منقطة زرقاءمن نسيج رقيق، عقدت فيها عقدةدلت أطرافهاعلىجانبحلتها.

وسارت عاتكة تنقل طرفها فيما حولها ولا ترى إلا صورة زوجها الحبيب هلال التميمى ، ذلك الفتى الفارس الذى قتل منذ عامين وترك لها طفلها الصغير الذى يمرح مع الصبية حولها . وكانت بين حين وحين تتنبه من حلمها فتنظر إلى الصبية فى لعبهم فتبتسم لهم ابتسامة عطف ثم تعود إلى خيالها لتناجى صورة الزوج الذى نشأ معها فى أودية قومها بنى تميم حتى زفت إليه على حب نبيل ، ولكنها لم تتمتع بالحياة معه إلا ريثما درج ولدهما بينهما . ولما نزعته الحرب منها لم تبد لموته جزعاً ، وكتمت حزنها فى أعماق قلبها ، والتمست العزاء فى خلواتها مع صورته فى الخيال ، وفى نظراتها إلى الصبى الصغير الذى خلفه من ورائه معها .

ولما بلغ الصبية مرعى الخيل أقبل ولدها يجرى نحوها ، وقد علق على كتفه قوساً صغيرة ودلى من منطقته كنانة سهام من جريد النخيل وقال لها فى حماسة :

ــ ألا أركب قليلا يا أمه ؟

فمالت عاتكة عليه فرفعته بين ذراعيها وقبلته قبلة سريعة وهو يقاوم ويرفس ويصرخ حتى وضعته على الأرض فتخلص من يديها ووثب جارياً وصاح بها :

ــ أدركينى إذا استطعت فإنى سابق إلى الخيل .

فأسرعت المرأة وراء ولدها وصاحت به :

ـ ألا تخشى السقطة يا عمير ؟

فضحك الفتى فى مرح وقال وهو يمسك بقوسه :

ـ لا أخشى السقطة يا أمه . ألست عمير بن هلال ؟

واتجه نحو فرس بيضاء كانت أدنى الخيل إليه . فأسرعت أمه حتى أدركته ومسحت بيدها على رأسه فى رفق وقالت مبتسمة :

ـ تعال معى يا عمير سنركب جميعاً .

ثم ذهبت معه إلى الفرس البيضاء فنادتها كأنها تنادى بعض أهلها فأقبلت الفرس نحوها ، ورفعت المرأة ولدها فأركبته ، ثم قصدت إلى فرس أحمر قريب منها ، وقفزت فوق ظهره خفيفة كأنها فارس من فرسان الحروب ومسحت بكفها عنق الفرس ، فصهل صهيلا خفيفاً ثم سار يشب هادئاً ، وسارت فرس الصبى إلى جواره تحاكى وثباته ، ولكن الصبى لم يرض بذلك السير المطمئن فوخز فرسه بقدميه الصغيرتين ، ومال على عنقها قابضاً على شعر معرفتها ، وصاح بها يحثها على الإسراع ، فاندفعت به الفرس مسرعة ، وصاحت عاتكة بولدها :

ـ على مهلك يا عمير ! فما ينبغى لنا أن نبعد .

فصاح الفتى وهو يقرقر ضاحكاً :

ـ الحقى بى إذا استطعت يا أمه .

ثم جذب شعر الفرس وضرب ظهرها برجليه ، فاندفعت تعلو به فى

المرج الفسيح عدواً هيناً ، فلم يكن لعاتكة إلا أن تعدو بفرسها فى إثره وقد داخلها كثير من الخوف عليه ، وطالت بينهما المسابقة حيناً حتى لحقت به واستوقفته ، وقالت له فى شىء من الغضب :

ــ لقد أسأت يا عمير وعصيتنى .

فلم يقلل الصبى من مرحه عند سماع لومها ، بل قال ولا يزال يضحك :

ــ كان فى استطاعتى أن أعجزك عن إدراكى .

فلم تملك عاتكة إلا أن تبتسم وتصرف ما ثار فى نفسها من الغضب ، وقالت له فى عطف :

ــ هلم بنا نعود فقد بعدنا عن القصر ، والسغد قريبون منا .

فعاد الصبى إلى الضحك وهو يمسك بقوسه :

ــ وماذا تخشين يا أمه ؟ لست أبالى السغد فهذه قوسى .

فاقتربت منه عاتكة وقالت وهى تمسح عنق فرسه :

ــ سابقنى إذا شئت فى العودة يا عمير .

وفيما كانت تدير جوادها إلى جهة القصر لاح لها فارس يعدو نحوها . فأرادت أن تسرع عائدة . ولكن الصبى تلكأ وهو يعيد عليها أحاديثه وضحكاته حتى اقترب الفارس وترجل وأقبل نحوها . فوضعت عاتكة الخمار على وجهها ، واتجهت إلى الصبى وقالت له فى حدة :

ــ هلم يا عمير .



وأحست فى نفسها غضبة قوية ، لأن ذلك الفارس تعود أن يتعرض لها فى المرج منذ حين كلما تحين خلوتها .

واقترب الفارس وأشار إليها بالتحية متأدباً وهو باسم ، ولم يخف على عاتكة ما بدا على وجهه من اضطراب كان يحاول أن يخفيه تحت ابتسامته . فلم تجب عاتكة على تحيته ، بل انصرفت إلى الصبي وقالت له فى شىء من الصرامة :

ــ أرنى الآن كيف تحسن الركوب يا عمير ؟

ثم همزت جوادها فى شىء من العنف وضربت بيدها كفل فرس الصبي فعدا الجوادان ، وجعل الصبي يصيح بفرسه أن تسرع حتى يدخل

القصر سابقاً ، ووقف الفارس ينظر فى أثرها ، وعلى وجهه آثار من الدهشة والخيبة .

ثم مضى مطرقاً حتى عاد إلى أصحابه الذين كانوا ينتظرون عودته فى وجوم . فوقف معهم حيناً ولا يزال مطرقاً ، ثم رفع رأسه وقد لمعت عيناه ببريق خاطف ، ولاحت على وجهه بسمة ضئيلة ونظر إلى صاحب كان إلى جواره وقال بصوت هامس :

ــ سأذهب غداً إلى أبيها .

فنظر إليه صاحبه منكراً ولم يجب ، فأعاد عليه قوله :

ــ سأذهب غداً إلى أبيها لأخطبها . أتراه يردنى ؟

فقال صاحبه :

ــ إنك لم تسمع نصيحتى من قبل . فلا فائدة فى إعادة نصحك .

فقال له الشاب باسماً :

ــ وهل عرفت أن النصح ينفع من كان مثلى ؟ إننى لا أملك قلبى يابغا حتى أصرفه عنها .

فقال بغا فى دفعة :

ــ ولكنك تنسى أنك الأمير صول سيد السغد وابن سيدهم . وأنت تعرف هؤلاء العرب ومبلغ كبريائهم . فهل سمعت أن أحداً منهم زوج ابنته لغريب ؟ ألا تعرف ما يجيبك به أبوها إذا أنت خطبتها إليه ؟

فانتفض الأمير صول غاضباً ، وقال وقد احمر وجهه :

— أيجرؤ هذا الرجل على الإباء ؟

فقال بغا :

— إنهم يتزوجون بناتنا حقاً ولكنهم لن يرضوا بنا أزواجاً .

فقال صول وقد زاد غضباً :

— ألا يرضى بى أنا ؟

فأجاب بغا :

— لن يرضى بغير عربى مثله .

فقال صول :

— إذاً لأضرمنها عليهم حرباً حامية . لأعيدن الحرب فيما بيننا إذا تجرأ الرجل فلم يرض بى صهراً .

ولم ير بغا أن فى مراجعته نفعاً ، فأمسك عن الجواب وسار الجميع إلى مضارب خيامهم فى صمت ووجوم .

وقضى صول تلك الليلة متردداً فى شجونه ، لا يستطيع أن ينسى صورة عاتكة التى علقت بقلبه منذ رآها . لقد رآها عرضاً منذ شهرين ، وبقيت صورتها ماثلة فى خياله ، لا تفارقه فى صباح ولا مساء . وكان يتعرض لها كلما سنحت له فى المرج ، فلا يفوز منها فى كل مرة إلا بإعراض وصمت ، فكان ذلك لا يزيده إلا وجداً بها . ثم رأى أن يخطبها من أبيها .

فدافعه صديقه بغا مراراً ولم تزده نصيحته إلا عناداً وإصراراً على خطبتها ، بل لقد دفعه حبه على أن يعزم على الحرب من أجلها ، إذ كان العرب فى قصر الباهلى فئة قليلة ، لا تستطيع أن تقوم لها قائمة إذا صدمها صول بالألوف المؤلفة من قبائل السغد ، الذين كانوا لا ينتظرون منه إلا أن يأمر فيبادروا إلى طاعته سراعاً .

وبكر صول فى الصباح فذهب مع بعض أتباعه إلى باب القصر ، يطلب الإذن على نهشل بن يزيد أبى عاتكة . وأذن له نهشل وأنزله ضيفاً وأكرمه وحدثه وآنسه ، فقد عرف أنه سيد السغد ، وأنه فى ذروة القوم غنى ونسباً . وكان الفتى فى تمام شبابه وكرم شيمه مما يزيده منزلة وكرامة .

ثم أفضى صول إلى نهشل بما جاء له . وكانت مفاجأة وجم لها العربى فأطرق لحظة ثم قال بصوت خافت :

ــ لولا أنك ضيفى لما نجوت من عقوبتى .

فوثب صول على قدميه كأنه قد وطئ جمراً ، ولم يجب بكلمة ، بل خرج من القصر وهو لا يرى مواقع أقدامه من الغضب ، وعاد إلى قومه والنار تلتهم قلبه التهاماً .

ومضى شهر بعد ذلك على قصر الباهلى ولا حديث لمن فيه إلا ذكر ذلك الأمير التركى الذى بلغت به الجرأة أن أتى إلى نهشل بن يزيد يخطب منه ابنته . وامتنعت عاتكة عن الخروج إلى المرج . وزاد حزنها على زوجها

الحبيب . لأن خطبة الفتى التركى أعادت إليها ذكرى فجيعتها .

ثم تحرك السغد فجأة وإذا بقصر الباهلى ذات مساء مثل بقعة جزيرة فى محيط من جموع الأتراك .

وبلغت أنباء الثورة إلى حامية العرب فى سمرقند ، وكانت الجيوش العربية غائبة فى بعوث الفتح ، موزعة فى دروب سجستان وخراسان فلم يبق فى عاصمة الحدود إلا بضعة آلاف فى وسط ألوف الألوف من قبائل الترك .

واجتمع قواد العرب فى سمرقند يتشاورون فى أمر القصر ، وفى أمر من فيه من نساء وصبية وفى عجزه عن الثبات لمن أحاط به من فرسان الترك وشجعانهم ، وقد امتلأت قلوبهم حقداً على سادتهم المتكبرين .

وقال شعبة بن ظهير ، وكان منذ حين أمير القوم ثم عزل عنهم :

ــ لو كانت هنا خيول خراسان لاستطعنا أن نذهب إلى نجدة هؤلاء ، ولكن ماذا نستطيع وحدنا ؟

فصاح به فارس طويل على رأسه عمامة حمراء :

ــ مالك تخذلنا عن نصرة أهل القصر ؟ ألسنا من خيول خراسان ؟

وتبعه آخرون فإذا بالجمع يتصايح ويتناقش ، منهم من يتوثب إلى القتال ومنهم من يؤثر الحذر والأناة ، حتى كاد العقد ينفرط ، والقول يتشعب ، والخصام والجدال يصيران إلى تدافع ونضال .

فقام رجل من وسط الحلقة متكئاً على سيفه ، وأشار بيده يطلب

الكلام فالتفت إليه الناس بعد حين وهم يتنادون :

— أنصتوا إلى أميركم عثمان بن عبد الله . .

فقال الأمير بعد أن هدأت الثائرة وخشعت الأصوات :

— « أى قوم ! هؤلاء إخوانكم فى قصر الباهلى لايزيدون على مائة أهل بيت يحرسون ثغراً بعيداً ، ويحمون من نسائكم وذراريكم من هم فى أعناقكم أمانة . »

فحاول شعبة أن يقاطعه ، فعلت ضجة أسكتته واستمر عثمان فقال :

— « ولسنا فى حربنا نبالى ما يصيبنا . إن قصر الباهلى بمن فيه من نساء وصبية يستظلون بعلمكم . ويقيمون هناك ربيئة لكم . أتسلمونهم إذ تكاثر عليهم العدو ؟ أتبيحون حرمكم لأنكم اليوم فى قلة ؟ »

فعادت الضجة ، وعلت الأصوات ، وتهاتف الناس قائلين :

— إلى قصر الباهلى .

فتبسم عثمان راضياً ، وعاد إلى الكلام فقال :

— « لست آمر ولست أنهى. إنكم إن أقدمتم استقبل كل فرد منكم عشرة أو عشرات من العدو ولعلكم لن تستطيعوا غير أن تواسوا من هناك من المسلمين بأنفسكم ، فتنالوا الشهادة إلى جوارهم ، ولكنى لا أمنع من أراد منكم النهوض للقتال » .

فما كاد يتم قوله حتى قام من جانب الجمع ذلك الفارس الطويل الذى تكلم من قبل ، وهو المسيب بن بشر التميمى ، فقال وهو يسوى على رأسه عمامته الحمراء :

— « لقد عرفتم أن السغد ما تحركوا إلا ليأخذوا عاتكة، امرأة هلال التميمى ، وهو الذى عرفتموه ، فارساً فى الحرب ، كريماً فى الجوار ، طالما دافع عن أحسابكم حتى قتل . أنترك امرأته سبياً ونسلم ابنه الصبى للعدو يبيعه رقيقاً ؟ لن أبيت الليلة هنا ومن شاء أن يلحق بى فليفعل . »

وما طلع صباح اليوم التالى حتى كان سبعمائة فارس يتبعون المسيب فى الطريق إلى قصر الباهلى وقد بايعوا أنفسهم جميعاً على الموت .

وسارت الكتيبة الصغيرة لا تهدأ فى ليل ولا فى نهار ، حتى صارت بعد أيام على فرسخين من القصر . فنزل المسيب يستروح قليلا ويريح من معه ، وانصرف الفرسان يلتمس بعضهم طعاماً وبعضهم يستلقى استجماماً وتركوا جيادهم فى سروجها وعدتها ، وأقاموا فى أطراف منزلهم ربيئة يحرسونهم من المفاجأة .

ثم دعا المسيب فارسين ليسبقا الكتيبة فى حذر إلى القصر ، ويحملا إلى من فيه نبأ النجدة ، ويأمرا حاميته بالصبر والدفاع .

وأقبل الليل ولف المروج فى ظلمة حالكة . لا يلوح فيها غير وميض نيران العدو تملأ الأفق من بعيد . وهبط على الفضاء سكون تخرقه صيحات تتموج مع الريح ، وتصل إلى الآذان مبهمة فتزيد الظلام رهبة ووحشة . وما هى إلا ساعات حتى عاد الرسولان ، فكان أول من لقيهما المسيب وهو يسير فى المرج ينتظر عودتهما فى قلق . وما كاد يراهما حتى سألهما بلهفة :

ـ هل بلغتما القصر ؟

فقال أحدهما :

ـ لم نستطع الدخول ، فقد كاد حراس القصر يرموننا بالسهام يحسبوننا أعداء ، لولا أن سمعوا كلامنا العربى ، فطلبت منهم أن يدعوا أمير القصر ليكلمنى ، فما أبطأ حتى أتى ، وأخبرته بقرب الغياث .

فسأل المسيب ولا يزال متلهفاً :

ـ وماذا وجدت منه ؟

قال الرجل :

ـ لقد اعتزموا أن يقدموا النساء دونهم ، ويقاتلوا حتى يفنوا جميعاً.

فسرى عن المسيب وتنفس نفساً عميقاً ، وقال :

ـ هؤلاء قومى . .

ثم أسرع إلى رجاله ، فنادى قائلا :

ـ القتال فى ليلتنا هذه . .

فلم يجبه أحد بكلمة ، بل وثب الجميع على خيولهم وتجهزوا للمسير ، فاتجه إليهم المسيب وقد اعتلى جواده قائلا :

ـ خفضوا الأصوات واهدأوا فى السير حتى إذا اقتربنا منهم فكبروا تكبيرة واحدة واجعلوا شعاركم « يا محمد ! » .

ثم اندفع يسير فى طليعتهم سيراً وئيداً فى صمت وسكون ، حتى لاحت

لهم خيام الترك فى ضوء النيران وقد همدت الأصوات والقوم من تحتها نيام . فاقترب المسيب برجاله حتى إذا صار من الخيام على مرمى سهمين صاح مكبراً ، واندفع مع أصحابه يصيحون صيحة رجت جوانب الفضاء :

— « الله أكبر ! يا محمد ! »

ولم يلبث العسكر الفسيح بعد هذه الصيحة أن صحا وتحرك وماجت جموعه مضطربة ، وقد خالطتها سيوف قاطعة ، ورماح طاعنة ، كأن السماء قد صبتها على رءوسهم بغتة . وما هى إلا ساعة حتى سالت المروج بالرجال والخيل ، وصار العرب فى وسط المروج الزاخرة كالشعرات البيضاء فى الفرس الأدهم ، لا يعرف بعضهم بعضاً إلا بصيحة « يا محمد » .

وكان المسيب دائماً فى طليعة القوم ، يجوب المعسكر من طرف إلى طرف ، وأوغل بين الجموع فإذا هو وحيد . ثم رأى فرسه يخر من تحته وهو بين ألوف يخبطون فى عماية الظلام ودهشة النوم ، فترجل وهو يصيح صيحته :

— الله أكبر ! يا محمد !

واجتمعت عليه السيوف من كل جانب وهو يدافع ويناضل ويتعثر فى جثث قتلاه وكاد التعب يعييه عن القتال وكسرت رمحه وكلت يداه. ثم سمع صيحة على مقربة منه أعادت إليه نفسه ، فتحامل وصاح صيحته مجيباً فأقبل عليه رجاله وجعلوا يطاعنون ويضربون وفيهم رجل قد قطعت

يمينه ، فأخذ السيف بشماله ثم قطعت شماله فجعل يدافع العدو بما بقى من ذراعيه . ولما استجمع المسيب قوته ، وصاح صيحته مرة أخرى اندفع نحو الرجل ليعينه، ولكن سيفاً أهوى على المسكين فأنامه . ولم يلبث العدو أن تردد وتزعزع وتملكه الفزع فتراجع يطلب الفضاء هرباً ، وما هى إلا لحظات حتى كانت أشباح الترك تسد الأفق لا تلوى على شىء .

فصاح المسيب فى أصحابه :

— دعوا القوم فى هربهم ، ولا تلحقوا بهم .

ووقف ينظر لحظة إلى الفارس الصريع المقطوع اليدين ، ثم مال إليه فقبله ، وأسرع فركب جواداً رآه قريباً منه ولوى عنانه وأشار إلى أصحابه قائلا :

— إلى القصر !

وهناك استقبلهم المحصورون خارجين من القصر ليشتركوا فى المعركة. وسار الركب العربى عائداً إلى سمرقند ، بكل من فى قصر الباهلى من رجال ونساء وذرارى . وفصل المسيب من القصر فى آخر الركب بعد أن دار حول الأسوار ينظر لعله يجد متخلفاً . فرأى امرأة تصيح به تستمهله ، وعلى يديها غلام صغير . فوقف حتى اقتربت منه ، فقال لها فى لهجة اللوم :

— وفيم تأخرت وقد كدنا نبعد ؟

فقالت المرأة فى هدوء :

– كنت أحمل ولدى من جانب فى القصر تركته فيه .

فقال الرجل متعجباً :

– وكيف تتركين ولدك ؟

فقالت المرأة :

– كنت أحارب مع قومى فما كنت لأتركهم يحاربون وحدهم .

ثم دفعت الطفل إلى الرجل قائلة :

– خذ هذا بين يديك .

فأخذ الرجل الطفل منها فجعله أمامه وذهبت هى إلى فرسها فى جانب القصر فوثبت عليه كأنها فارس بارع .

فصاح بها المسيب :

– أو أنت عاتكة ؟

فقالت المرأة :

– أنا عاتكة ابنة نهشل .

فخفض الرجل بصره وجمع الطفل إلى صدره فى عطف وسار صامتاً أمامها ليلحق بالركب .

سلامش

« قد تختلف الشعوب وقد تقوم الحدود
بين الدول وتثور فيها الحروب ولكن القلب
الإنسانى يجمع بينها ويزيل أحقادها »

دافع المحصورون فى أنطاكية دفاع الأبطال . لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم . ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم . وانتصرت جنود السلطان بيبرس ، ودخلت المدينة فى أبهة النصر واختيال القوة . وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم فتحوا أكبر معقل بقى للنصارى فى الشام ، بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله .

وكان قائد الجند « سلامش » شاباً فى مقتبل العمر ، لو رآه أحد فى غير لباس الحرب لظنه أحد أبناء الملوك المنعمين . وجه مشرق وقوام ممشوق ورأس عال وعين تنطق بالسيادة . وكان فى عدة الحرب عليه اللامة والدروع ، وفى يده الرمح وفى منطقته السيف راكباً جواده الأصيل فى صدر جنوده ناظراً إلى الأمام معبساً جاداً .

وكان يوم دخول أنطاكية يوماً مشهوداً ، فكان نساء المدينة وصبيانها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم ! وكان رجالها وشبانها بين مقيد فى الأصفاد وجريح يعنى به فى خيام العلاج ، وقتيل طريح على جانب الأسوار وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر، وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعا إلى من فى يده الحكم فى مصائرهم . وهدأت الأصوات ، وأومأ القائد للجيش بالوقوف حول الميدان . فوقف الجند ينظرون إلى أكوام الغنائم التى أمر السلطان الأعظم أن تقسم بينهم وهى من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء . ووقف جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى وبين كهول وشبان ينظرون إلى قيودهم حانقين ، أو يبكون ويندبون معولين .

وتقدم نحو سلامش وفد من كبار المدينة وأمرائها ، حتى إذا ماصاروا منه على بضع خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الإذن بالكلام . فأذن لهم وهو معبس على عادته، لا تفارقه تلك النظرة الصارمة التى فى عينيه. وجعلوا يتكلمون بلسانهم ورجل منهم يترجم ما يقولون . فطلبوا أن يمن عليهم القائد بالحرية وأن يهبهم نساءهم وذراريهم تقرباً إلى الله الذى نصره ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم . وقالوا له فيما قالوا :

— « حسبك من قتلت من شبابنا وكهولنا ، وما خربت من ديارنا ومعاهدنا

فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت ، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت ، وكفاك من الحرب النصر فلا تضم إليه دموع المساكين ، ولهيب الفراق بين الأبناء والوالدين » .

غير أن سلامش بقى على تعبيسه ووجومه ، ولم يجب إلا بإشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى معسكر السلطان حتّى يرى فيهم رأيه الأخير ، فلم يكن للوفد إلا أن يرتدّ كليلا حسيراً .

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه ، وسار فى الطليعة يتقدمهم ، لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يجرون شخصاً وهو يمانع ويجاهد . وتأمل الشخص فإذا هو امرأة من الأسرى . واقترب سلامش منها فرأى شابة جميلة ممشوقة فارعة ، بوجهها صفرة قد غطتّها حمرة ، وفى عينيها حلاوة قد غشيتّها صرامة ، وهى تنظر إلى الجنديين اللذين يدفعانها مرفوعة الرأس كأنها تتحداهما جامدة العينين مضمومة الشفتين . وقد تمزق ثوبها وتلطخ من آثار الوسخ والدماء فلا يكاد يستر من جسمها إلا ما يستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول . وكان شعرها الفاحم الغزير يغطى كتفيها لامعاً فى ضوء الشمس الغاربة كأنه الحرير . فرق لها قلبه ، وتمهدت عبسته ولانت نظرته ، وأشار إلى الجنديين أن يكفا عنها . ثم نزل إليها وأخذ بذراعها مترفقاً فأسلمت له وسارت معه ، حتى اقترب من شيخ فقيه من أهل المدينة كان فى صحبة الجيش فأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته . ولما ركب

جواده استعاد نظرته الصارمة وعبسته . وألقى الأمر بالمسير . وقضى سائر اليوم فى شغل من أمر جيشه حتى انتصف الليل .

ولما أوى إلى خيمته تذكر الفتاة التى كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكراها ، فأمر غلاماً أن يحضرها إليه ، وجلس يستعيد صورتها ، ويتمثلها وهى تناضل على ضعفها ، وتتكبر على ذلها .

وغاب الغلام قليلا ثم عاد وحيداً ، وقال له بعد التحية :

— « إنها لا ترد بكلمة ولا ترفع إلى أحد بصرها » .

فصرفه سلامش وجلس هنيهة يفكر ، ثم نهض متثاقلا وسار إلى خيمتها ، فرآها جالسة على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها .

فدنا منها ووضع يده على رأسها ، وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال :

— يحزننى أنهم أساءوا إليك .

فانتفضت الفتاة رافعة رأسها وقامت تنظر إليه والحقد مرتسم على محياها ، والغضب يضطرم فى عينيها ، وكانت الملابس الرثة التى أتت بها قد بدلت وألبست حلة من الحرير جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يبدو كالزنبقة المبللة بالندى ، ودفعت يده عنها قائلة وفى صوتها بحة :

— أبعد يدك عنى أيها القاتل السفاك . أدر وجهك الكريه عنى فأنت قاتل أبى وأخى . وأنت سافك دماء قومى ، وأنت المعتدى على وطنى . ابعد عنى وافعل ما شئت من عذاب أو قتل ، تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك .

وكانت فى ثورتها تقذف بنظرات كالسهام وصدرها يعلو ويهبط ، وشعرها الطويل الأسحم يضطرب فوق كتفيها وعلى صدرها .

ودهش سلامش من قولها ، ولم تفته فصاحة لفظها ولا رخامة صوتها . ولكنه لم يجب بكلمة . بل رفع حاجبيه وانثنى راجعاً إلى خيمته يسير فى بطء وفى قلبه شىء يشبه الحزن .

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره ، فلما أتى جعل يسأله عن المدينة وأهلها ، وعن تلك الفتاة وبيتها ، فعلم منه أنها ابنة تاجر من أهل انطاكية قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس ، وكان لها أخ قتل فى أثناء الحصار ومات أبوها يوم الفتح ، عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر .

وسمع سلامش تلك القصة صامتاً وقلبه يتكلم ، وبات تلك الليلة والأحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر ، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال .

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعاً للتفكير فى الفتاة ولا فى همومها ، حتى إذا انقضى اليوم وعاد فى المساء إلى خيمته بادر بالذهاب إليها . ولما اقترب منها هذه المرة تردد وترفق ووقف إلى جوارها هنيهة يتأملها فى صمت ثم قال بصوت خفيض :

ــ لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس .

فلم ترفع إليه بصرها ، بل بقيت جالسة ورأسها بين كفيها .

ورأى قريباً منها مائدة صغيرة عليها طعام لم تمتد إليه يد فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء :

— هل تريدين أن تموتى جوعاً ؟

فلم تجبه بحرف . وجعلت تبكى وتحاول كتمان نحيبها . فقرب منها وحاول أن يضع يده على رأسها وهو محترس متلطف ،ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة :

— أقول لك اتركنى . .

فأبعد يده عنها ، وتراجع ناظراً إليها لحظة ثم خرج مسرعاً وفى قلبه حزن وقلق .

وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيباً ، وصرف أمور الحكم متبرماً غاضباً حتى عجب الناس أن تكون تلك حاله بعد ما أحرز من النصر وما بلغ من المجد والتوفيق . وما انتهى من عمله حتى أسرع إلى سرادقه ووقف هذه المرة متردداً وجلا ، قبل أن يذهب إلى خيمة الفتاة . وكانت ما تزال على ما كانت عليه فى الصباح ، والمائدة الصغيرة عليها عشاء لم تمتد إليه يد .

ونظر إليها ملياً ثم قال برفق :

ـــ أما تكلمينى ؟ إننى أرجوك أن تنظرى إلى وتنطقى بما يجول فى نفسك ولو كان قاسياً .

ثم مد يده إلى رأسها ومسح عليه متلطفاً ، فلم تثر هذه المرة ولم تغضب ولكنها بقيت ساكنة فى مكانها كئيبة .

فجلس إلى جوارها يحاول أن يحادثها ، وهى لا تجيب إلا بدمعة تثور بين حين وحين فى عينيها فتمسحها بمنديل ثم تعود إلى وجومها وسكونها ، فقال لها ولسانه ينم عن مقدار عطفه وحزنه :

ـــ إننى لا أريد إيلامك ، بل إنى لا أحب أن أراك متألمة . ولو عرفت أن ألمك يزول بإبعادك عنى لفعلت . ألك أهل فى عكا أو فى مدينة أخرى من المدن فأرسلك إليهم ؟

فهزت رأسها وقالت :

ـــ ليس لى أهل . قد قتلتهم جميعاً ويااليتنى قتلت معهم .

ثم شهقت بالبكاء واسترسلت فى هزة مرة من الحزن .

ولم يملك سلامش قلبه من أن يجيش بالحزن ، وقال لها فى تأثر :

ـــ إننى أرحمك فى حزنك الذى لا أملك دفعه . كان أهلك أعدائى وكنا معاً فى ميدان قتال يسعون فيه إلى قتلنا كما كنا نسعى إلى قتلهم . وهل للشجعان مصير إلا الموت فى ميدان الحرب ؟ ولو كان أهلك بين هؤلاء الأسرى لماترددت فى افتدائهم من أجلك ، ولكنهم فى غير حاجة إلى ولا إليك .



إن حزنك يؤلمنى وإن كانت كبرياؤك قهرت كبريائى . إذا شئت أن تبعدى إلى مكان تختارينه كان لك ما تشائين وإن أحببت المقام هنا ، كنت فى أعز مكان عندى .

فنظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينيها ذلك البريق القاسى الذى كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه حيناً ثم أغضت صامتة .

ولم يذهب سلامش ذلك المساء إلى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذى كان على المائدة .

وجاء بريد السلطان فى الصباح يحمل إلى سلامش أمراً بالسير إلى دمشق بمن معه من الجند ، ووهب له المدينة يتصرف فى غنائمها كما يشاء اعترافاً ببسالته وجزاء على انتصاره العظيم .

وقضى سلامش يومين كاملين فى الاستعداد للمسير إلى دمشق . وبكر فى يوم الرحيل إلى خيمة الفتاة . وهو خفيف الخطوة متهلل النفس فرآها راقدة على أريكة . فلما وقع بصرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت فى مكانها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ثم جلس قريباً منها ، وأخذ يحدثها وكان فى حديثه خفيض الصوت مهتز النبرات .

قال لها :

ــ لقد أمرنى السلطان أن أسير إلى دمشق .

فلم تجبه بل نظرت نحوه كأنها تنتظر لحديثه تتمة ، واستمر قائلا :

ــ وقد أراد السلطان العظيم حفظه الله أن يهب لى هذه المدينة فهل لك مطلب فيها ؟

فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها قائلة :

ــ إذاً فالمدينة فى يديك ؟

فقال لها :

ــ هى كذلك فاطلبى ما تحبين . .

فصاحت الفتاة قائلة :

ـ ماذا تفعل بالأسرى ؟

فتبسم سلامش نحوها وقال :

ـ هم لك يا . . . لم أعرف اسمك بعد .

فأجابت وصوتها يتهدج من الفرح :

ـ أونوريا !

فقام ومد يده نحوها وقال :

ـ هم لك يا أونوريا !

فمدت يديها وأمسكت بيديه الممدودتين وقالت :

ـ ما اسمك أنت ؟

فقال باسماً :

ـ سلامش . .

فنظرت إلى وجهه لحظة ، ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض واستمر هو قائلا :

ـ وأحب أن أعرف أين تذهبين . لك أن ترجعى إلى دارك إذا شئت عزيزة فى ظل السلطان العظيم . ولك أن تذهبى حيث شئت فى دولته الفسيحة . .

فنظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت فى حياء :

ـ وأنت ؟ . .

فقال سلامش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

ــ اليوم أسير إلى دمشق .

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت :

ــ سلامش ! وأنا كذلك إلى دمشق أسير .

ثم ارتمت بين ذراعيه .

الأمير بدر الدين بيليك

«عندما تعصف الأهواء بالحكمة . .
كم من ضحايا ذهبت فى سبيل الأهواء الصغيرة
التى مهدت طريق الأمم المنحدر نحو الفناء . .»

سار الموكب العظيم عائداً من بلاد الشام ، وكان فرسان المؤخرة يسوقون الأثقال من غنائم أرمينية وأذربيجان وآسيا الصغرى والقوقاز . ولكن السلطان العظيم بيبرس ، الذى عاد بتلك الغنائم لم يكن على رأس الجيش فى صدر الموكب . كانت المحفة البديعة المزركشة بالأبنوس والعاج والصدف تسير متئدة فوق أعناق الإبل ، والفرسان يرفعون نحوها أعينهم فى خشوع إذ كان فيها قائدهم العظيم الذى صرعه المرض . وكان الأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنة يسير مطرقاً على ظهر جواده الأبيض ، إلى يمين المحفة . يلفت رأسه بين حين وآخر فيرمقها بحزن .

وكان الصمت يلف الصحراء إلا من وقع أخفاف الإبل وحوافر الخيل على الرمال الناعمة .

واشتد حر الظهيرة ، وبدا الكلال على الخيل بعد أن واصلت السير

إلى مطلع الفجر. فأمر بدر الدين بدق الكئوس مؤذناً بوقوف الركب للراحة. وأنزلت المحفة فى رفق فوضعت فوق الرمل على قوائمها ، وأشار نائب السلطنة إلى الفرسان المحيطين بها أن يذهبوا ليستريحوا ساعة . فلما بعدوا عنه رفع الستار عن المحفة وانحنى فى خشوع كأنه يحيى مولاه ولكن المحفة كانت خالية ليس فيها شيء .

وبعد قليل أتى إليه صديقه الأمير قلاوون صهر السلطان ومعه الطبيب فدخلا إلى المحفة وانحنيا بالتحية كما فعل بدر الدين ثم تراجعا إلى الوراء وأعادا التحية وأسدلا ستار المحفة الخالية . ثم جلسوا عند باب المحفة ليعدوا نشرة الطبيب معلنة أن السلطان يتماثل للشفاء .

وسار الموكب يوماً بعد يوم ، والمحفة الخالية محمولة فى وسطه والأمير بدر الدين يرفع عنها الستار فى كل يوم مرتين ، ويدعو الطبيب إلى زيارتها ثم يذيع فى الجيش أن الملك الظاهر يتنسم فى هذا السفر نسيم العافية . وبلغ الموكب أرباض القاهرة . وخرج الناس إليه ألوفاً ليستقبلوا بطلهم العظيم بيبرس .

* * *

وكان الأمير محمد بركة بن بيبرس جالساً فى الإيوان الكبير فى قلعة صلاح الدين ينتظر موكب والده ومن حوله أمراء الدولة وكانت الشمس تطل فى الإيوان فاترة من خلال النوافذ ذات الزجاج الملون ، فشاع الضوء

الرقيق فى جنباته يكسو أرضه الرخامية بألوان متناسقة مختلفة ، بين الأحمر والأزرق والأخضر والبرتقالى . وكان الأمير محمد ولى العهد جالساً فوق كرسى عال من الأبنوس المطعم بالعاج والصدف ، إلى جانب كرسى السلطان الرخامى القائم فى صدر الإيوان على هيئة المنبر .

وجلس إلى يمينه ويساره أهل الدولة فى ترتيبهم المرسوم ، ووقف من ورائه كبار الأمراء أصحاب المشورة وتفرق الحجاب والمماليك فى جوانب الإيوان الفسيح فى ملابسهم المختلفة الألوان وأقبيتهم الصفراء الحريرية .

وبعد حين دقت كئوس الموسيقى تحت نوافذ الإيوان مؤذنة باقتراب طلائع الموكب ، ثم سمعت ضجة الموكب ، فوقف كل من فى المجلس ليستقبلوا السلطان .

ودخل نائب السلطنة مطرقاً يسير فى بطء حتى إذا ما صار على بضع خطوات من الأمير انحنى بالتحية ، حتى لمس بأطراف أصابعه بساط الإيوان ثم رفع يده إلى فمه فقبلها ووضعها على رأسه ، وتقدم خطوة أخرى وانحنى بالتحية مرة أخرى وتقدم خطوة ثالثة وأعاد تحيته ، ثم وقف متجهاً إلى الأمير خاشعاً . فساد الصمت ، وفتح الحاضرون أعينهم من الدهشة ، إذ رأوا نائب السلطنة يحيى ولى العهد مثل تحية السلطان العظيم.

ورفع بدر الدين يديه بالدعاء قائلا :

ـ حفظ الله مولاى وأحسن عزاءه . .

ووقف مطرقاً، وساد الصمت لحظة ثم ضج المجلس ضجة الدهشة والمفاجأة وشاعت الأنباء سريعة فى القاهرة أن السلطان الفاتح بيبرس قد دفن فى دمشق . وأن الموكب الذى أقبل إلى مصر إنما كان يحيط بمحفة خالية .

واعتكف الأمير بدر الدين بعد ذلك فى داره لكى يذوق شيئاً من الراحة بعد سفره الطويل، وما كان فيه من مشقة الجسم وكد القلب، فلم يذهب إلى دار النيابة ، ولم يبكر إلى خدمة السلطان الجديد ، ولم يذهب لعزاء السيدة الوالدة فى زوجها العظيم . ولم يشعر بالراحة إلا بعد أيام فاستطاع أن ينزل من دار الحريم ليجلس فى البهو الفسيح من دار الرجال ، وكان ذلك المكان آية من آيات الفن تحليه النقوش الدقيقة بألوان متداخلة يمازجها الفضى والذهبى والقرمزى . وكان حول الجدران من أعلاها إطار كتبت فيه آيات من القرآن بأقلام نوابغ فن الخط ووزعت حول البهو تحف مختلفة تتصل بذكريات الحوادث التى مرت بصاحب الدار فى حياته المضطربة ، وكان أثاث البهو يغطى كل جوانبه وأركانه ، حتى لم يكن فيه موضع تظهر منه أرضه الرخامية التى كانت تحليها نقوش من الفسيفساء والأحجار الملونة . وكان فى وسط البهو « فسقية » من الرخام الأبيض رسمت فى قاعها أنواع من الأسماك ، فإذا امتلأت بالماء فى فصل الصيف ، خيل إلى من ينظر إليها أن الأسماك تتلاعب فى بحيرتها .

جلس الأمير بدر الدين على مقعد فى الصدر وجعل يجيل بصره فى التحف التى تحيط به . فهذه ستارة من الحرير المذهب من غنائم أنطاكية، وإلى جانبها جوشن أهداه إليه السلطان اعترافاً ببسالته فى حرب التتار عند حلب ، وذاك سيف يعيد إليه ذكرى قاسية ، فهو سيف « ليفون » الشاب ابن ملك الأرمن . الذى تصدى له فى موقعة « سيس » على نهر الفرات وكاد يقضى عليه لولا أن عثر الجواد بالفتى فأوقعه على الأرض ، واكتفى بدر الدين بأن أخذ منه السيف بعد أن أسره . وهناك غير ذلك كله حلل كثيرة زاهية الألوان مزركشة بالذهب علقت فى كل منها منطقة من الذهب الخالص ، وهى الجوائز الكثيرة التى أنعم بها السلطان العظيم عليه فى مباريات الرماية ولعب الكرة بالصولجان وفى سباق الخيل .

جلس الأمير يستعيد أحداث ذلك الماضى الملىء ثم تنفس نفساً طويلا عميقاً كأنه عاد من رحلة طويلة وأحس فى نفسه انقباضاً شديداً وهو يستعيد ذكرى ماضيه لأن السلطان الجديد لم يبعث إليه رسولا فى هذه الأيام التى قضاها فى داره يستريح ، ولم يرسل فى طلبه ليشارك فى الموكب العظيم الذى يشق فيه السلطان الجديد عاصمة ملكه لأول مرة .

فخرج إلى حديقة قصره ليسرى عن نفسه وأخذ يتمشى فى مسالكها الضيقة المتعرجة بين أحواض الورد الأصفر والأحمر وحصا البان والعتر وبين الأشجار النادرة التى نقلها من بلاد الشام من مشمش وبرتقال وتفاح



وكان هواء الأصيل يهب بارداً على غير عادة تلك الأيام من شهر أغسطس فبعث فيه برد الهواء نشاطاً أزال عنه كثيراً مما خيم على نفسه من الانقباض والغم .

ومال فى ركن من الحديقة إلى أريكة تظللها فروع غزيرة من الياسمين ، فاضطجع يستريح فأتى إليه خادمه مسرعاً يخبره أن السلطان بعث إليه رسوله يستدعيه .

وأسرع بدر الدين ليستعد للمثول بين يدى سيده وخفق قلبه سروراً

لعطف مولاه الذى تذكره وبعث رسوله إليه .

ولما ذهب إلى القصر ، لقى فيه ترحاباً جديراً بقدره، واستقبله الملك السعيد باسماً وبالغ فى إكرامه ، حتى إنه أذن له أن يذهب إلى قصر السيدة الوالدة ليعزيها بنفسه .

وذهب بدر الدين إلى قصر السيدة الوالدة وهو يكاد يسبح فى الهواء من السعادة ، حتى إذا بلغ موضع الستارة من القصر ، جاءت إليه السيدة العظيمة نفسها فرحبت به من وراء الستارة وشكرته على ما كان من ولائه وحسن بلائه . وأرسلت إليه كأساً ذهبية على صينية رائعة الحسن لم تقع عين على مثلها . وكان فى الكأس شراب مثلج يفوح منه عطر ذكى وقالت السيدة من وراء الستار :

ـ هذا شراب صنعته بيدى أيها الأمير العظيم أقدمه لك إيفاء بحقك وآية منى على شكرك .

فدعا الأمير لها وقبل الأرض تحية لها ثم شرب الكأس .

الكأس التى تعودت القصور أن تقدمها للذين يؤدون الخدمات الجليلة للسلاطين حتى لا يبقى على الأرض أحد يحس أن له فضلا على سيد البلاد.

وفى اليوم التالى ارتجت القاهرة لجنازة الأمير بدر الدين بيليك بطل الحرب وصاحب الفضل فى المحافظة على ملك بيبرس. وكان يسير فى طليعتها نائب من قبل السلطان الملك السعيد ونائب آخر من قبل السيدة الوالدة! إذ أرادا أن يظهرا جزعهما على موت خادمهما المخلص الذى حفظ لهما العرش!

آخر السلاطين

« مضت دولة وكان غروب شمسها تحيط به
ألوان الشفق الزاهية. كانت دولة جديرة بالفناء،
ولكنها كانت مثلا رائعاً من عصر منقرض . »

كانت رءوس النخيل الباسقة تميل فى كبرياء وتختلج بسعفها فى عنف ، كأنها عمالقة تجاهد فى معركة أمام رياح الخماسين الخانقة .

وتناثرت سحب الرمال تغطى صفحة السماء وتحجب قرص الشمس الغاربة ، فلا يظهر منه إلا مثل جمرة متقدة، وتبددت ألوان الشفق الزاهية مترددة خافتة ، تتمسك بأذيال السحب الداكنة .

وسار الركب الصامت فى موكب واجم ، والخيل تتعثر فى الأخاديد التى خطتها سيول الشتاء المنصرم فى تلك الصحراء الجرداء ، التى لم يبق على وجهها أثر من النبات إلا هشيم تذروه الرياح ، يزيد السهل القفر وحشة . وسار الفرسان يلفون اللثم حول وجوههم ليتقوا الرمال السافية ، ولكن الحر الكامن فى الهواء كان يجعل الأنفاس كثيفة كأنها تلج إلى الصدور قطعاً صماء .

ولاح عند الأفق الغربى تل أغبر ، يقطع صفحة السماء ثقيلا كأنه يهم بالنهوض ولا تسعفه الهمة .

ورفع الفارس المطرق الذى كان فى أول الموكب الحزين رأسه فى بطء وقلب وجهه فيما حوله حتى استقر نظره على قرية فوق التل البعيد، والتفت إلى صاحبه الذى يسير فى أثره وقال له :

ـ أتعرف ما هذه المدينة يا شاد بك .

فأجاب صاحبه :

ـ هى قرية تروجة يا مولاى .

فقال له الفارس وهو مطرق :

ـ نعم هى تروجة آخر قرية على حدود الصحراء . اسمع نصيحتى يا صديقى واتركنى لشأنى واذهب أنت وهؤلاء الأصدقاء لتجدوا لأنفسكم متسعاً للحياة .

فقال شاد :

ـ وهل كنا لننكث عهدنا ونغدر بك . إن لك فى أعناقنا عهداً قطعناه على أنفسنا منذ مات الملك قانصوه الغورى شهيداً . . لقد حلفنا أن نكون جنود السلطان طومنباى أينما كان ، وان نزال جنوداً لسلطان مصر حتى نسفك آخر ما بقى من دمائنا .

فأطرق طومنباى حيناً ثم تنفس وقال :

ـــ ما كنت أوثر يا شاد أن تمتد بى الأيام حتى أرى نفسى طريداً مع هذه الفئة القليلة من الفرسان البسلاء ، الذين جررت عليهم الشقاء معى . إننى أحس يا صديقى أن طالعاً من النحس يتبعنى ، ولست أدرى كيف ينقلب نصرى خذلاناً ، وكيف ينفلت الأمر من يدى كما ينفلت نور الشمس من بين الأصابع . كلما ظننت أن النصر قد أقبل وأصبح فى قبضة يدى ، وجدت الشؤم يطاردنى وصحوت على هزيمة طاحنة كأننى كنت فى كابوس ثقيل .

وعاد الفارس إلى صمته وجعل ينظر نحو التل البعيد ، وسار الموكب واجماً يقتفى أثره صامتاً ، لا تسمع فيه إلا خشخشة حوافر الخيل إذ تخبط فى سيرها كليلة تمتد أعناقها نحو الأرض ، من الإعياء ، ثم لفت الفارس رأسه فجأة نحو صاحبه وقال له :

ـــ أتعرف ماذا كان هذا التل من قبل يا شاد ؟

فتمتم الرجل قائلا :

ـــ هذه أول مرة أراه .

فكشف الفارس رأسه وأزاح اللثام عن وجهه الذى لوحته الشمس ، وقال فى صوت حزين :

ـــ هذا التل بقية مدينة عظيمة كانت هناك فى أيام القدماء ، عندما كانت هذه الأرض سلسلة من البساتين الظليلة . هكذا الدنيا يا شاد .

يفنى عزها ويطوى مجدها فلا يبقى منها إلا أثر مثل هذا التل القائم فى الصحراء . لقد كنت أقف فى مصر إلى جانب الأهرام ، فأتصور الذين بنوها وما كان لهم من المجد والغنى والفن ثم أحس قلبى يخفق كأنه يريد أن يقف ويخمد فى صدرى إذ أتأمل ما نحن فيه اليوم من ضعف وخمود . هذا التل يقوم فى وسط الصحراء منادياً بأن الأبناء قد يرثون المجد ولا يحافظون عليه .

وكان شاد بك يسمع هذا القول الحزين وهو مطرق .

واستمر طومنباى قائلا :

ــ إن قلبى مظلم يا صديقى . أواه ! إنه فى مثل ظلمة السجن ويطوينى فى جوفه .

فقال شاد بك متأثراً :

ــ لا تستسلم لهذا الهم يا مولاى ، والأمل ما يزال أمامنا فسيحاً . هناك منازل صديقك حسن بن مرعى شيخ عرب البحيرة . وستجد عنده بلا شك ما تحب من النصر على هذا الدخيل ابن عثمان . وسيجتمع لك بعد حين جيش من العرب يتحفز لقتال هؤلاء الغرباء ، وسنكون فى صدر الجيش نمزق الجموع الهزيلة التى أتت إلينا كالذئاب من وراء الصحراء . . . لم ينتصر الترك علينا إلا بخيانة الخونة ، وسنمزق جموعهم فى المعركة المقبلة ونعود إلى مصر التى تردد اسمك فى حنايا قلوبها .

فأطرق السلطان صامتاً ، وكان يحس فى نفسه شعوراً مبهماً من اليأس يرده إلى الحزن كلما حاول الفكاك منه ، وكلما حاول أن يعلل نفسه بما سوف يجده عند صديقه الأمير العربى من المعونة والحماية ، أحس برودة تشبه برودة الثلج تغوص إلى أعماق قلبه وتكاد توقف دقاته .

ثم لاحت بعد حين عند الأفق ربوة تخفيها سحابة من الضباب والغبار ، وانحدرت الشمس للمغيب ولمعت من قبل الربوة أنوار تخفق ضئيلة خافتة . واستمر الموكب سائراً فى طريقه يخيم عليه الصمت والكآبة .

* * *

وخرج الأمير حسن بن مرعى وابن عمه الأمير شكر ومن ورائهما طائفة من فرسان العرب على خيول شعثاء خفيفة ضامرة ، لاستقبال السواد المقبل من بعيد .

والتفت حسن إلى ابن عمه فسأله :

ــ لا أظن هؤلاء إلا بعض المماليك المنهزمين يا شكر .

فقال شكر مبادراً :

ــ أرجو ألا يكون ذلك أيها الأمير .

فقام حسن فى ركابه واستشرف حيناً ثم قال :

ــ إنها خيولهم يا شكر بغير شك . إنها خيول هزيمة تسير وئيدة مطرقة .

فصمت شكر حيناً ثم قال :

– وهل يجرؤ المماليك على المجىء إلينا ؟

فقال الأمير مسرعاً :

– ولم لا يجرؤون يا شكر ؟ وهل بقى أمامهم سوى ذلك بعد هزيمتهم الطاحنة ؟

فصاح شكر فى غيظ :

– أتراهم يجرؤون على ذلك بعد ما أصابنا من ظلمهم وبطشهم ؟ أنسيت الأعوام السبعة التى قضيناها فى سجن قانصوه ؟

فأطرق حسن حيناً ثم رفع رأسه وقال بصوت خافت :

– وكيف أنسى ذلك يا شكر وقد قاسيت فى السجن ما قاسيت ؟ ولكن المهزوم ليس قانصوه بل طومنباى . إنه صديقى ، وهو الذى خلصنا من السجن ، وهو الذى حالفته على الوفاء والولاء .

فقال شكر فى شىء من الحنق :

– إنك لن تنصر طومنباى وحده يا بن عم . إنها دولتهم التى عرفناها وعرفها آباؤنا من قبلنا . وما ينبغى لك أن تنصرها وهى مدبرة محطمة ، بعد أن أذاقتنا ألوان العذاب والذل وهى فى عزها وقوتها .

فقال الأمير :

– ولكن طومنباى صديقى ، ولابد لنا من أن نؤدى له واجب الضيف يا بن عم .

فقال شكر وهو يحاول أن يكتم غيظه :

ـ لك أن تختار ما تراه يا بن عم فإنا نسير وراءك حيث تسير .

فأطرق الأمير واجماً ، وامتلأ قلبه حيرة منذ سمع قول ابن عمه ، ووقع فى نفسه هاجس من الخوف ، لأنه لن يخاطر بنفسه وحدها بل بكل قومه إذا وقف بهم فى جانب دولة محطمة . ورفع رأسه بعد حين وقال فى تردد:

ـ لقد كان السلطان منذ الصغر صديقى . عرفته منذ صباى وكنا أخوين فى العهد على الشيخ المبارك أبى السعود الجارحى .

فضحك شكر ضحكة عالية ساخرة ، ثم ملك نفسه وبادر قائلا فى لهجة الاعتذار :

ـ إننى أول من يطيعك يا بن عم .

فنظر إليه الأمير متألماً وقال له بلهجة العتاب :

ـ ولكن ما الذى يضحكك يا شكر ؟

فقال شكر جاداً :

ـ معذرة يا بن عم إن كنت قد آلمتك، ولكنى لا أكتمك أننى لا أظن خيراً فى ذلك الشيخ ، ولا أرى للعهد الذى قطعته عليه شيئاً من القدسية .

فرفع الأمير حاجبه صامتاً ومضى ابن عمه فقال :

ـ إنه شيخ لبيب يعرف حقيقة مصلحته .

أليس هو الذى كتب على أبواب القاهرة طلاسمه وأسراره زاعماً لطومنباى

أن ابن عثمان لن يستطيع أن يدخل من تلك الأبواب ما دامت طلاسمه عليها ؟ لقد اعتقد طومان المسكين فى ولايته ، ولم يتحول عن اعتقاده بعد مع أنه قد رأى ابن عثمان يدخل القاهرة من تلك الأبواب المطلسمة . وهاهوذا ابن عثمان يخترق ريف مصر ، ويهزمه فى موقعة بعد موقعة حتى أتمها ست هزائم طاحنة ، وطومنباى مع ذلك مستمر على اعتقاده فى شيخه المبارك.

فقال الأمير ولم يخف ما أصابه من ألم :

— إنك لا تحب الشيخ يا شكر . فدع هذه السخرية المرة فإنى لا أحب أن يصيبك منه أذى .

فعاد شكر إلى الضحك وقال فى عناد :

— أما أنا فلست أبالى أذاه . إن الشيخ الصالح فى زاويته بالقاهرة عند كوم الجارح ، يقيم حلقات الذكر لأتباعه المخلصين ، فليس يسمع سخريتى .

فلم يجب حسن ، بل عبس ومضى فى سبيله صامتاً ، ولكن ابن عمه قال جاداً :

— أما بلغك أنه كان يستقبل رسل ابن عثمان فى زاويته ؟ لقد أخبرنى بذلك أحد مريديه . وكان الشيخ على عادته حريصاً لبيباً ، لأنه طلب من أتباعه ألا يذيعوا سر ذلك الرسول . وها هوذا ابن عثمان قد زاره فى زاويته أول شيء بعد دخول مصر .

فقال حسن فى جفاء :

ــ دعنا من هذا الآن ، فها هو ذا الركب يعرج نحو منازلنا فاسرع بنا لنلقاه .

وهمز فرسه فانطلق به مسرعاً ، ووثبت وراءه أفراس أصحابه تثير غبار الصحراء .

ولما استطاع حسن أن يتبين الوجوه والملابس فى غبش المساء قال فى شبه صيحة :

ــ إنه السلطان طومنباى .

ولما صار على خطوات من ركب طومنباى ، ترجل وألقى عنان فرسه على عنقه ، وصاح مرحباً :

ــ شرفت البلاد يا مولاى !

فترجل السلطان وفتح له ذراعيه وتعانق الصديقان .

وكان الليل قد لف الصحراء ولمعت الكواكب فى السماء الصافية بعد أن رها الهواء وسكنت العاصفة ؛ وبلغ الفرسان ساحة النجع ، فنزل المماليك أتباع السلطان يختارون المواضع لإقامة خيامهم فى حين سار السلطان وأمراؤه الستة نحو خيمة الأمير العربى .

ومد السماط بالطعام بعد حين واجتمع عليه شيوخ العرب من قبائل محارب وكبار الأمراء ، وشبان أسرة الزعيم البدوى حسن مرعى .

ودار الحديث بعد العشاء فى سيرة الحروب ، ولكن الأمير حسن كان يتحاشى المناقشة ، لأن أقوال ابن عمه شكر تركته فى حيرة .

ولم يستطع أن يذوق النوم فى ليلته من الأفكار المتضاربة ، ثم قام مبكراً فى الصباح فذهب إلى خيمة أمه ليستشيرها .

وكانت السيدة جالسة فى صدر خبائها تنتظر أن تصلى الفجر ، وما كادت تراه حتى بادرته قائلة :

ــ لقد سمعت أن السلطان عندك يا ولدى .

فأجابها الأمير مسرعاً :

ــ نعم هو هنا يا أماه .

فقالت الأم :

ــ لا أشك فى أنك تعرف ما يجب عليك يا ولدى .

فأطرق الأمير كأن صدمة عنيفة أصابته ، ووقف مرتبكاً ينظر إليها ، وقال :

ــ لقد جئت إليك يا أماه لاجئاً إليك فى حيرتى .

وجلس إلى جوارها يحدثها ويراجعها ويفضى إليها بما قاله ابن عمه شكر ، ولكنها كانت ترده كلما راجعها وتدور به إلى كلمتها الأولى كلما أراد أن يتفلت منها . وكانت آخر كلمة منها إليه قولها :

ــ إذا لم تشأ أن تقف مع ضيفك وتسبل عليه حمايتك كما يقضى

عليك واجبك فلا يجمل بك إلا أن تصرفه الآن عن جوارك .

فخرج من خبائها يتعثر فى خطاه ، ويمسح القطرات الباردة عن جبينه الملتهب ، ويستقبل نسيم الفجر مستروحاً ، وسار إلى الشمال فى الفضاء الساكن ينظر فى أعقاب النجوم الغاربة ، والأفكار الثائرة تضطرب فى ذهنه الكليل .

وجال بين الكثبان مطرقاً يناجى خواطره المضطربة ، فلم يعد إلى نفسه حتى علت الشمس فوق الأفق ، فتلفت حواه ليرى موضعه من منازله ، فما راعه إلا أن رأى على الأفق الجنوبى سواداً يتحرك . فوقف ينظر إليه ذاهلا لا يدرى ماذا يكون ذلك المقبل الجديد ، ثم عاد إليه وعيه شيئاً فشيئاً ، وفتح عينيه من الدهش والرعب . فقد كان ذلك السواد بغير شك جيشاً عظيما يثير حواه سحابة من الغبار يغمرها ضوء الصباح .

فعاد مسرعاً إلى الحى وقصد إلى منازل ابن عمه شكر ، وناداه فى فزع وانتحى به فى ناحية ليخبره عن ذلك الجيش الذى طلع به اليوم الجديد .

وأسرعا معاً نحو خيام السلطان .

ومضت لحظات طويلة قبل أن يخرج إليهما السلطان من خيمته ، إذ كان يصلى الصبح قضاء بعد هجعة نوم ثقيل. فتقدم نحوه الأمير حسن وحياه تحية قصيرة ثم أنبأه باقتراب جيش الأعداء .

وقال له فى آخر الحديث :

ــ فليس لك يا مولاى إلا أن تحتال لنفسك ، ولا تخاطر بالبقاء فى وجه هذا الجيش الكبير .

فقال السلطان ثابتاً :

ــ أتريد أن نسير عن جوارك أيها الأمير ؟

فأدرك الأمير ما فى سؤال السلطان من لوم ، وبادر قائلا :

ــ إذا شئت يا مولاى أن تبقى فنحن معك . ليس علينا إلا أن نموت معك إذا شئت أن تجعل الوقعة الأخيرة هنا .

فأطرق طومنباى مليًّا ، ثم نظر حوله نحو خيام أتباعه القلائل ، وقال فى صوت متهدج :

ــ ليس لى أن أتحكم فى مصير هؤلاء ؟

ثم أعلى صوته قائلا للأمير البدوى :

ــ لم ألجأ إليك ياصديقى لأجرّ عليك وعلى قومك الهلاك ، وقد صدقت فى نصحى إذ أشرت على ألا أواجه هذا الجيش .

فقال حسن :

ــ إذا شئت يا مولاى فاخرج إلى البراح وأوغل فى الصحراء . فإن الجيش لن يستطيع اللحاق بك فى هذه القفار .

فقال طومنباى :

ــ إننا لا نستطيع الهرب من القضاء يا صديقى . فقد طالما وقفنا فى

وجه الجيوش الجرارة ، ومزقنا صفوفها بصدمة حملاتنا المفردة . كنا أفراداً نقاتل الألوف ونفتك بها ، ونخرج من تحت الغبار بغير أن تصل أيدى العدو إلينا . إنى أرد عليك جوارك يا صديقى ، وسأذهب من هنا .

فرد الأمير حسن والخجل يثير الدماء فى وجهه :

ــ لن نتخلى عنك يامولاى إذا شئت البقاء . إننى ما أزال على العهد الذى قطعته لك . ولن يخذلنى عن نصرتك ما أراه من قوة عدوك . إننى نصحت لك ناظراً إلى سلامتك . ولكنى واقف معك إذا شئت حتى تحكم الأقدار حكمها .

فأطرق السلطان حيناً وبدت على وجهه ظلال من التردد . ثم رفع رأسه وقال هادئاً :

ــ أليس هناك موضع نستطيع أن نتحصن فيه ؟

فقال الأمير مبادراً :

ــ نعم يا مولاى . هذا وادى الغابة على بعد قليل . هو واد حصين لن يستطيع جيش أن يدخل إليه . إن له مدخلا لا يتسع لأكثر من راكب واحد ، وتحف به رمال تغوص فيها الدابة وتغرق فى المستنقع الوخيم . ولن تجرؤ الجموع على اقتحامه ما بقى عند ذلك المدخل عدد قليل يحميه .

فقال السلطان فى وجوم :

ــ إذا شئت فسر بنا إليه أيها الأمير .



ثم أسرع نحو الخيام ليأمر أصحابه بالاستعداد ليسيروا سراعاً إلى الوادى الحصين .

* * *

وكان اليوم مثل سابقه قاتم السماء قلق الريح ، يثور غباره مع هبات الهواء التى تسفى الرمال .

واعتلى السلطان طومنباى ربوة فى الوادى الذى دخله مع أصحابه فى

أول الصباح وأطل على المدخل الضيق يتأمل الرمال السمراء التى تحف بجانبيه .

وكان قلبه ثقيلا يكاد يغوص فى أعماق صدره وهو ينظر فى حسرة إلى الفئة الضئيلة التى بقيت له من فرسانه ومماليكه .

وتمنى لو انصرف هؤلاء عنه وتركوه حيث هو على تلك الربوة ، ليقاتل فى المعركة الأخيرة وحده . ورأى عند الأفق البعيد جيش ابن عثمان يملأ الفضاء فعرف أن الأمير العربى أخلص له النصيحة عندما أشار عليه أن ينجو مع أصحابه إلى الصحراء الفسيحة قبل أن يحيط به عدوه بألوفه المؤلفة . واندفع هابطاً من الربوة إلى الوادى الأغبر ، ثم استمر حتى بلغ الساحل وهو ذاهل عما يريد أن يصنع . وهناك وقف حيناً ينظر إلى الموج الهائج ويستمع إلى صوت هديره العنيف ، كأنه وجد فى ثورة البحر الصاخب ما يواسى ثورة قلبه الحانق . وتصاعدت الشمس نحو كبد السماء وهو ثابت فى مكانه وحيداً لا يملك من ملك مصر كله سوى الدرع التى عليه والطبر الفولاذى الذى طالما صاحبه فى المعارك ، وسيفه الباتر الذى ورثه عن سلسلة السلاطين الأبطال . وخيل إليه أنه يسمع صوتاً يناديه من ثنايا الموج :

« ها قد قضى الأمر فلا تقاوم القضاء » .

فوثب كالمخبول يتلفت حوله فى فزع ، واستولى عليه شعور غامر من

اليأس والذعر وأحس برأسه يتصدع وبعزمه يتحلل ، وطن الصوت فى أذنيه مرة أخرى : «لقدقضى الأمر ولا حيلة فى مقاومة القضاء» ، فاندفع يخوض الموج لايدرى ماذا يريد، ثم توقف وتراجع . ولم يدر ما هو فاعل عندما نزع درعه فقذف بها فى الماء ثم ألقى فيه بعد ذلك طبره الفولاذى وخوذته النحاسية ، ثم قذف بالجراب الذى كان فى منطقته مملوءاً بالجواهر التى ادخرها لتكون له إسعافاً إذا احتاج إلى مال . وهم أن يلقى بسيفه وراءها ولكنه تردد وأعاده إلى حمائله قائلا فى صوت ذاهل يشبه حشرجة الذبيح :

ـ هذا ما بقى لى من ملك ضائع .

وتراجع من بين الأمواج متخاذلا كسيفاً ، فاتجه نحو الوادى حيث كان أصحابه . وما كادوا يلمحونه حتى أسرعوا إليه فى قلق والتفوا حوله يأتنسون بوجوده بينهم واتجه شاد بك إليه يريد أن يحدثه فإذا ضجة ترتفع من ناحية مدخل الوادى . فالتفت الجمع وراءهم يحسبون أن جنود الترك أقبلت تناوشهم ، فإذا الأمير حسن بن مرعى عند المدخل ينادى قائلا :

ـ انج بنفسك وبمن معك يا مولاى قبل أن تهلكوا ونهلك معكم جميعاً .

ثم لوى عنان فرسه وعاد يركض مسرعاً .

فنظر طومنباى إلى أصحابه قائلا :

ـ أما سمعتم القول ؟

فصاح الأمير قانصوه العادلى فى غيظ :

– لقد علمت أن هؤلاء العرب لا يغنون عنا شيئاً .

وصاح الأمير يحيى :

– هلموا إلى الخيل فلنمت كراماً .

وتوالت صيحات أخرى والأمراء يتسارعون إلى خيولهم ليستعدوا للصدمة اليائسة . ولكن السلطان بقى ثابتاً فى مكانه وهو مطرق فى حزن . فصاح به شاد بك :

– هلم يا مولاى فالدقائق معدودة .

فقال السلطان فى ضعف :

– انج بنفسك وبمن معك أيها الأمير . لا تنظر إلىّ واذهب بأصحابك.

فعاد شاد بك إليه يريد أن يجذبه معه ولكن نظرة السلطان الهادئة كانت تنم عن عزيمة صارمة . فقال شاد بك فى ضراعة :

– إنك لن تهجرنا فى هذه الساعة يا مولاى . إن وجودك بيننا يبعث فينا الأمل والقوة . إننا فى حاجة إليك فلا تخذلنا بحق سيفك . إننا فى حاجة إلى سيف البطل طومنباى .

فأدار السلطان وجهه الحزين عن الأمير حتّى لا يظهر له ما بدا عليه من الاضطراب . وأطرق الأمراء بقلوب موجعة إشفاقاً أن يملأوا أعينهم من ذلك البطل الذى ينهار تحت نظراتهم . ثم قال طومنباى بعد تردد :

ــ إننى أحس ألماً يطعن فؤادى طعناً أشد من وقع السيوف والرماح وأنا أنطق بكلماتى . ولكن هذا هو القضاء . نحن نجنى الثمار المرة التى غرسها من قبل سوانا . لست أذكر مساوئ الموتى ، بل إننى أطلب لهم الرحمة من الله . ولكن هى الحقيقة المؤلمة . إننى أنطق بها وليس فى صدرى أثر من الحقد أو اللوم . نحن نجنى الأشواك التى بذرها أولئك الذين كانوا يتمتعون بالحكم ولا يبالون القيام بأعبائه .

فبسط شاد بك يديه ضارعاً وقال :

ــ إننى أستحلفك بشرفك . إننى أتوسل إليك بالسيف الذى لن يجد يداً طاهرة تحمله بعدك . أستحلفك بكل ذلك أن تسير معنا لنلقى قضاءنا معاً .

فقال طومنباى وقد عاد إليه الهدوء :

ــ لو علمت أنكم تطيعوننى لأمرتكم بالبقاء معى هاهنا ، حتى نلقى قضاءنا معاً فى صمت . إن هذا أكرم لنا من أن نضرب فى فجاج الأرض هرباً من عدو يلحق بنا فى غير هوادة .

فتحرك شاد بك فى ضجر وهم أن يتكلم ، فقاطعه السلطان قائلا :

ــ إننى أعرف أنكم لن ترضوا بالاستسلام وستسخرون منى إذا أنا طلبت منكم أن تستسلموا ، ولعلكم تزدادون سخرية إذا علمتم أننى قد ألقيت سلاحى كله فى البحر فى هذا الصباح .

فصاح شاد بك :

ـ ألقيت سلاحك !

وردد الأمراء صيحته فى يأس .

فقال طومنباى :

ـ نعم ألقيت سلاحى كله فى البحر . ألقيت درعى الفولاذية والحلى والجواهر التى كنت أدخرها ، ولم أبق إلا على هذا السيف الذى أحمله رمزاً لملكى الزائل. حتى الطبر الفولاذى الذى صنعه الأسلاف الأمجاد من صاعقة السماء، حتى هذا الطبر ألقيت به إلى البحر وعينى باكية .

وارتفعت عند هذا ضجة عالية من قبل مدخل الوادى ، فأشار السلطان بيده إلى الأمراء وصاح بصوت أجش :

ـ اذهبوا . أسرعوا قبل أن تتعذر النجاة ! إلى اللقاء فى عالم البقاء . أسرعوا أيها الأصدقاء . إلى اللقاء يا قانصوه العادلى، يا يحيى الشجاع ! يا أرزملك النبيل ! يا برد بك ! يا أبرك الباسل ! إلى اللقاء يا شاد بك يا أشجع الشجعان !

ثم أطرق وسار يجر قدميه نحو الربوة الصفراء فى جانب الوادى .

فنظر شاد بك إليه وجالت الدموع فى عينيه ، ثم أدار وجهه وأسرع نحو مربط الخيل وتبعه الأمراء يهرولون فى صمت . وصعد السلطان فى الكثيب وهو مترنح ، حتى بلغ أعلاه فجلس ساهماً يحملق فى الفضاء .

وبعد ذلك علت ضجة أخرى عند مدخل الوادى ارتجت لها الأرض، وترددت أصداؤها بين سفوح التلال ، فالتفت السلطان فإذا الأمراء فوق جيادهم يركضون لا يلوون على شيء ، وهم فى السلاح الشائك ، واندفعوا نحو العنق الضيق المؤدى إلى البراح . وهمزوا الخيل فى عنف فخرجت بهم تقتحم جموع الترك التى تغطى وجه الرمال فى أقصى الفضاء ، ونظر السلطان من موضعه إليهم كأنه يرى منظراً فى حلم ، رأى صفوف الترك تضطرب وتنفرج والأمراء يخرجون من بينها وهم يحطمون فيها بضربات عنيفة مثل صواعق الإعصار . وبرزوا من بين الجموع واحداً بعد واحد وحول كل منهم دائرة ضيقة من المماليك ، حتى بلغوا براح الفضاء ، وانطلقت بهم الخيول تثير فى أعقابها سحائب من الغبار الكثيف واتجهوا نحو الغرب .

وكانت الشمس قد مالت للمغيب وصبغت أطراف السحب بألوان الشفق الزاهية مرة أخرى . وكانت الرياح الحارة الثائرة ما تزال تثير فى الفضاء غلالة من الغبار يبدو من تحتها قرص الشمس أحمر مختنقاً مثل جذوة نار تتقد من تحت الرماد . ووقف السلطان فوق الربوة ينظر إلى مدخل الوادى . وتبسم ابتسامة ضئيلة عندما رأى كوكبة من فرسان العرب مقبلة نحوه . ولما اقتربت منه رأى الأمير حسن بن مرعى على رأسها فصاح به قائلا :

ـ حسبك أيها الأمير . لا تكلف نفسك عناء . فإنى رجل واحد .

فرفع الأمير رمحه قائلا فى حنق :

ـ يا مولاى لا تسئ بى الظن ، فإنما جئت لأقف بينك وبين هؤلاء الترك .

فزالت الابتسامة عن وجه السلطان ، ونظر حيناً إلى الأمير العربى فى دهشة وعيناه تطرفان ، وأبصر جموع الترك وهى تتدافع فى صف طويل من مدخل الوادى ، ثم تنحدر كالسيل وتحيط بدائرة فرسان العرب من وراء . ومضت دقائق طويلة وفرسان العرب يقفون من وراء أميرهم ، وعليهم مظهر التحدى ينتظرون ما تأتى به اللحظات المقبلة . وخشعت الأصوات . وخيم على الجموع الزاخرة صمت يشبه السكون الرهيب الذى يشمل الجو قبل العاصفة ، فعرف السلطان أن صديقه العربى قد آثر الموت بمن معه فى سبيل المروءة . وجالت فى عينيه الدموع واختنق صوته عندما حاول الكلام . ولكنه جاهد نفسه وصاح فى حشرجة :

ـ يا حسن بن مرعى ! جزاك الله عنى خيراً أيها الأمير . لقد كنت أستطيع النجاة لو أردت الحياة ، دعنى لقضائى فقد وفيت بذمتك .

فصاح الأمير العربى :

ـ لن أسلمك ما دام سيفى فى يدى .

فنادى السلطان وقد عاد صوته إلى الصفاء :

– إنى آمرك يا حسن بن مرعى . لا تسفك دماً بعد هذا ، إنى أسلم نفسى . أين قائد الجيش التركى .

فسكت الأمير حسن ولم يجب ، وتقدم قائد الترك « إياس » من بين الصفوف وأمر قواد جيشه أن يرتدوا بالجند إلى الوراء . ثم ترجل عن فرسه وأغمد سيفه وتقدم نحو الربوة يريد أن يخرق حلقة العرب التى حولها . فاعترض حسن بن مرعى سبيله متحدياً .

فصاح السلطان من أعلى الربوة :

– افسح له أيها الأمير . مر جندك أن يفسحوا له . إنى آمرك إن كنت محتفظاً بالولاء . تقدم أيها القائد فإنى أنتظر .

فأطرق الأمير حسن إلى الأرض ، وسار القائد « إياس » مصعداً فى الربوة حتى بلغ موضع السلطان .

ولم يقو الأمير العربى على النظر إلى ورائه عندما علت صيحة الفرح من جنود الترك . فهمز جواده وانطلق مسرعاً وفرسانه يركضون فى أثره حتى خرجوا من الوادى إلى الفضاء .

وأخذ إياس بذراع طومنباى وهو محتفظ بسيفه ونزلا معاً ليركبا عائدين إلى القاهرة ليكون طومنباى آخر السلاطين .

المبارزة المؤجلة

« حيث لا قانون يكون قانون الغابة . »

كان عمر بك يعرف أنه من أسهل الأمور أن تدبر له مكيدة فى أى وقت من الأوقات وفى أى ساعة من ساعات الليل والنهار . كانت القاهرة عند ذلك مدينة تنطوى على حياة خفية أشد اضطراباً من حياتها الظاهرة ؛ فقصورها المغلقة النوافذ وحاراتها الضيقة ، ومنعرجات طرقها التى تشبه التيه توحى بأسرار غامضة لا يستطيع أحد أن يكشف حقائقها . قد يكون الإنسان سائراً فى طريقه ، أو راكباً ، كما قد يكون نائماً مطمئناً فى فراشه ثم يتنبه فجأة على صوت غدارة تنطلق عليه أو على لمعة خنجر يهوى نحو صدره . فإذا نجحت المكيدة وانتهت بصيد الفريسة ، ظهر المتآمرون أمام أعين الناس وأعلنوا أنهم أصحاب الحق فى الاستيلاء على الغنائم ، فيذهب دم الضحية هدراً ويصبح الجناة سادة .

كان عمر بك يعرف هذه الحقيقة ولا ينكرها ، ولا يجد فيها شيئاً يستحق اللوم ، لأنها كانت هى سنة الحياة فى زمانه . هكذا استطاع هو أن يصبح أميراً من كبار السادة فى البلاد وهكذا فاز سيده الذى

اشتراه مملوكاً صغيراً . وهكذا كان السيد الأكبر الذى اشترى سيده مملوكاً صغيراً من قبل . وما أكثر الحوادث التى كانت تذكر عمر بك بأنه يعيش فى القاهرة كما يعيش الأسود والنمور والذئاب والضباع فى الغابة . فالأسود لا تلوم النمور إذا هاجمتها ولكنها تدافع عن نفسها إلى الموت ، ولا تحمل لعدوها حقداً بعد أن تتغلب عليه ، ولكنها تقضى عليه .

وما أكثر الأعداء الذين كانوا يحيطون به ويتربصون له ، ويدبرون له المكائد فى كل ليلة !

فقد كانوا فى وقت من الأوقات مماليك صغاراً مثله عندما أتوا من بلادهم وراء البحار ونزلوا معاً إلى وكالة « اليسيرجى » الذى جلبهم من الخارج ، وكثيراً ما تصارعوا وتسابقوا وتباروا فى الرماية بالقوس وتبارزوا بالسيف عندما كانوا شباناً يريدون أن يظهروا مواهبهم فى فنون القتال . ولم ينس عمر بك مع تطاول السنين منذ تلك الأيام الأولى أنه كان دائماً أبرع زملائه فى كل هذه الفنون ، إذ كان أسبقهم فى الجرى وأقواهم فى المصارعة وأمهرهم فى المبارزة بالسيف . وإذا كان أحياناً ينتصر وأحياناً ينهزم فى حلبات سباق الخيل فقد كان ذلك تبعاً لمقدرة الجواد على السبق ، لا تبعاً لمقدرته هو على الركوب ، لأن الجميع يعلمون أنه كان أبرع المماليك فى فنون الفروسية .

ولم يكن عجيباً أن يبلغ عمر بك مرتبة الإمارة قبل زملائه ، لأن كبار

الأمراء كانوا حريصين على تقريبه إليهم وكانوا يتنافسون على انضمامه إلى أحزابهم لينتصروا به فى مؤامراتهم المستمرة ، وقد استفاد هو بهذه المنافسة فى كل مرة ، لأنه كان يجنى من كل مؤامرة ثمرة طيبة . استطاع عمر بك أن يكون أغنى الأمراء لأنه كان يحصل على نصيب الأسد من الغنيمة بعد كل مؤامرة ، واستطاع أن يكون أقوى الأمراء لأنه حرص على أن يشترى لنفسه أكبر عدد من المماليك ، حتى صار له عدد عظيم من الأتباع المخلصين ، كما استطاع أن يكون أعظم الأمراء مجداً وجاهاً لأنه فتح بيته للقاصدين وكان ينفق ما يبقى عنده من الأموال فى الهدايا والعطايا والإحسان على أهل العلم والفقراء .

ولم ينس عمر بك نصيبه من السعادة المنزلية ، لأنه كان يجمع فى قصوره الكثيرة مجموعة من الجوارى الحسان . كان تجار الجوارى يعرفون شغفه بهن فإذا ما عثر أحدهم بحسناء من بنات الجركس أو الصقالبة أو الروم أو الترك أسرعوا إليه ليبادر بشرائها حتى لا يسبق إليها أحد من منافسيه ، وكان عمر بك يجازيهم على هذا الولاء بأن يجزل لهم العطاء ويبذل لهم ما يطلبون من الأثمان إذا وقعت الجارية عنده موقع القبول .

ولم ينس عمر بك فوق كل هذا أن يكرم الأولياء الذين كان الأمراء الآخرون يحتقرونهم ويسمونهم بلهاء أو مجذوبين ، فهؤلاء كانوا يذهبون إلى بيت عمر بك كل يوم ليجدوا عنده أطايب الطعام كما كانوا يقضون

عنده السهرات فى ليالى رمضان ، ويفوزون بالملابس الثمينة من الجوخ والأطلس إذا جاءت أيام العيد . وامتاز عمر بك فى القاهرة كلها بأنه من المريدين المخلصين للشيخ على المجذوب الذى يعرف الجميع كراماته. لهذا كله كان عمر بك لا يحس شيئاً من الجزع كلما بلغه أن زملاءه القدامى يحسدونه ويدبرون له المؤامرات ، وكان دائماً مطمئنا إلى أن أخبار مؤامراتهم تصل إليه عن طريق أعوانه وأتباعه ومحبيه قبل أن يستطيع منافسوه أن يحكموها وينفذوها .

وكان يحس نوعاً من السرور عندما تبلغه أنباء مؤامرة جديدة ، لأنه يجدها فرصة لمغامرة ظريفة يجد فيها متعة تشبه متعة السباق فى حلبة الرهان ومتعة المصارعات والمباريات والمبارزات . وقد دلت الحوادث الكثيرة فى مدى سنوات طويلة على أن عمر بك بطل لا يمكنُ أن يتغلب عليه أحد فى المنازلات ولا يفوقه أحد فى فنون المكر والخداع . ثم حدثت حادثة واحدة كادت تقضى عليه ، لولا أنه نجا منها بأعجوبة ، ثم كادت تقضى على شهرته بأنه بطل لا يقاوم ، لولا أنه تذرع بالصبر والأناة حتى تمكن من استرداد شرفه وشهرته .

جاء إليه الحاج على « اليسيرجى » تاجر الرقيق ذات مساء وأفضى إليه سرًّا بأنه قد جلب من بلاد الجركس فتاة لا تزيد على الثامنة عشرة ولكنها كانت ذات مفاتن لا يمكن وصفها . وما كاد عمر بك يسمع

بذلك حتى بادر بالذهاب مع الحاج على إلى الوكالة بغير أن يفكر طويلا ، لأن وصف الرجل للفتاة جعله يخشى أن تفوته الفرصة ، ولا سيما عندما ذكر له أن أحد المماليك رآها عنده وذهب إليه منذ ساعة يساومه فى ثمنها . ولم يأخذ معه أحداً من المماليك لأن الليلة كانت مظلمة ولا يمكن أن يتصور أحد أنه يسير بمفرده فى عطفات المدينة فى مثل تلك الساعة . وركب جواده ، وسار اليسيرجى على بغلته من ورائه ، وفى ساعة قصيرة كانا فى الوكالة . وهناك دخل عمر بك إلى الفناء الفسيح وأخذ يقلب بصره فى أبواب الغرف المحيطة به ، إذ كانت كل جارية تتمدد أمام باب غرفتها على أريكة مكسوة بالحرير تنسدل على جانبيها ستارتان من الأطلس الملون . وكانت الأضواء تنبعث من القناديل النحاسية المدلاة من سقف الرواق فتلقى أشعتها الخافتة على الألوان المختلفة الزاهية وتخلع على وجوه الفتيات ألواناً سحرية .

وأشار الحاج على إلى الغرفة التى فى صدر الفناء فذهب الأمير نحوها ورأى هناك حوراء لم تقع عينه على مثلها من قبل . وماذا يستطيع الوصف أن يحمل فى مثل هذه الألفاظ حتى يرسم صورة صادقة لتلك الفتاة الساحرة؟ ولما وقعت عليها عين الأمير ضمت غلالة ثوبها على صدرها فى حياء ؟ وأطرقت فى خفر فانسدل شعرها الفاحم يتدفق على كتفيها . أيوصف وجهها بأنها يشبه زهرة ؟ أو يوصف جسمها بأنه يشبه دمية ؟ عندما نظر



إليها عمر بك خيل إليه أن بساتينه تخجل من محاسنها إذا خطرت بين أحواض زهرها وأن عبير أنفاسها يزرى بعبير المسك والعنبر . وسألها عمر بك عن اسمها فلم تجب وقال له الحاج على :

ـ لم تتعلم العربية بعد وقد سميتها « جلنار » .

فتبسم له الأمير قائلا :

ـ اطلب ما تشاء ثمناً لها .

وانصرف عائداً ليأمر بإعداد البيت الذى يليق بحسناء مثلها . ولكنه ما كاد يبلغ باب الوكالة حتى رأى مملوكاً شاباً يقبل نحو

الحاج على ويقول له :

– لقد دبرت لك الثمن الذى تريده .

فبهت الشيخ ولم يجبه ونظر فى جزع إلى الأمير .

ولم يتوقع عمر بك أن يفاجأ بمملوك شاب مثله يأتى فى تلك الساعة لينافسه ، فأراد أن ينصرف واثقاً أن الفتى لا يمكن أن يتطلع إلى مثل تلك الجوهرة النفيسة . ولكن الشاب أدرك من نظرة الشيخ ومن صمته أن فى الأمر شيئاً . فصاح قائلا للشيخ :

– ها هو ذا الثمن الذى طلبته .

فقال الشيخ بغير احتراس :

– انتهى الأمر وبعتها .

فصاح المملوك فى غضب :

– أيها النحس !

وارتد إلى الوراء قابضاً على سيفه وقال يخاطب الأمير :

– ألم يقل لك إنى اشتريتها ؟

فنظر عمر بك إليه ولم يجبه ، ولمح على وجهه ما جعله يتردد . كان وجه ذلك المملوك يدل على أنه شاب متهور لا يتردد فى أن يخوض معركة .

واستمر المملوك قائلا :

– لن يخرج بها أحد غيرى ، لن أسمح لأحد أيًّا كان أن يأخذها.

ووقف فى سبيل عمر بك متحدياً .

فقال عمر بك فى هدوء :

ـــ وماذا تفعل ؟

فقال الفتى مهدداً :

ـــ تكون لمن يبقى حياً منا. وجرد سيفه وارتد إلى الوراء مستعداً للمنازلة ، فهم عمر بك أن يجرد سيفه هو الآخر ولكنه تردد بعد لحظة ، فإنه أحس لأول مرة فى حياته أنه غير مستعد للمنازلة . وماذا يفيده إذا أغمد سيفه فى صدر مملوك بائس مثل هذا ؟ ثم خطرت له خاطرة فى مثل لمح البصر . واتجه إلى الفتى قائلا فى صوت خافت :

ـــ سأتنازل لك عن الفتاة إذا عرفت من أنت .

فقال الفتى ساخراً :

ـــ وماذا تريد منى ؟

فقال عمر بك فى نغمة سخرية :

ـــ لعلنا نتلاقى مرة أخرى . فقهقه الفتى ورد سيفه إلى غمده قائلا :

ـــ لك أن تختار وقتك يا سيدى .

فقال عمر بك :

أما تخبرنى من أنت ؟

ـــ فقال متحدياً :

ـــ حسين مملوك عثمان بك .

فرفع عمر بك حاجبه مندهشاً وقال :

ـ عثمان بك ؟ والجارية لك أنت ؟

فقال الفتى :

ـ وهل هذا يهمك ؟

فقال عمر بك :

ـ أتعرفنى ؟

فأجاب المملوك : وهل يخفى عمر بك ؟

فصمت الأمير ونظر إلى الحاج على نظرة ارتياب ثم أسرع إلى جواده فوثب عليه عائداً إلى بيته وهو يخشى فى كل خطوة أن يواجهه كمين من الأعداء أو أن تنطلق عليه رصاصة غدارة عند زاوية الطريق ، لأنه أحس أن هناك مؤامرة مدبرة . وهل يتعذر على عثمان بك أن يدبر مكيدة محكمة ؟ من السهل عليه أن يبعث المملوك لشراء الجارية الحسناء ويعطيه ثمنها ثم يوعز إلى تاجر الجوارى أن يعرضها فى الوقت عينه على الأمير عمر بك . هى خطة متقنة تضمن وقوف عمر بك وجهاً لوجه أمام فتى متهور أعجبته امرأة ويخشى أن يخطفها منه الأمير .

ولما بلغ عمر بك داره استلقى على أريكة فى الحديقة وهو يحس أنه ارتكب غلطة كبيرة عندما ذهب وحده إلى وكالة « اليسيرجى » . وحاول أن يزيل من نفسه شعور الإهانة التى أحسها عندما اضطر إلى التراجع عن مبارزة المملوك الوقح الذى تحداه تحدياً صريحاً . ولكنه برغم محاولاته

الكثيرة استمر ساعة طويلة فى جلسته منقبض النفس ، وهو يسائل نفسه ماذا كان يستطيع أن يفعل ؟ أكان يجمل به أن يقف بنفسه أمام فتى حانق يائس لا تهمه الحياة فى شيء ؟

تذكر الخاطرة التى خطرت له وهو واقف تجاه الفتى المتهور . بعد عام سيكون ذلك الفتى قد ذاق لذة الحياة مع جلنار . ولعله يكون قد أنجب طفلا أو طفلة ، وعندذلك سيكون أحرص على الحياة . سيواجهه بعد عام واحد يسترد منه تلك الوقفة التى وقفها أمامه ، حتى يعرف الجميع أن أحداً فى مصر لم يستطع إلى النهاية أن يقف فى وجه عمر بك . ومع أن المقابلة التى حدثت بين الفتى المملوك وبين عمر بك كانت سراً لا يعرفه سواهما ، فإن أخبارها ذاعت فى أركان القاهرة فتحدثت بها كل المجالس فى أقصى المدينة وأدناها ، وتندر الأمراء فيما بينهم وهم يتهامسون قائلين :

ــ لقد وجد عمر بك من يخيفه أخيراً .

وشجعهم هذا الفوز على تدبير مؤامرات جديدة .

وجاهد عمر بك طوال العام التالى ليكظم غيظه ويوهم زملاءه القدامى أنه لا يعلم شيئاً من محاولاتهم ، واكتفى بأن يفسد عليهم كل المؤامرات التى دبروها بغير أن يوجه إلى أحد منهم كلمة . وكان إذا لقيهم فى أيام المواسم وإذا اجتمع بهم عند الباشا فى مجالس الديوان لا يبخل عليهم بالتحيات الرقيقة التى تفيض مودة وعطفاً .

ولما مضى العام اختار أن يضرب الضربة الحاسمة وكان ذلك بمناسبة

مؤامرة جديدة دبرها زملاؤه القدامى ، فاختار أن ينازلهم فيها منازلة صريحة .

أولم المملوك حسين وليمة كبرى بمناسبة ميلاد ولده البكر على ، بعد أن ترقى فصار حسين كاشف . وذهب حسين إلى عمر بك فى بيته يعتذر إليه ويرجوه الصفح عنه متظاهراً بأنه ندم على جرأته السابقة ووقوفه فى وجهه متحدياً ، وسأله أن يتفضل عليه بتشريفه فى داره الجديدة التى بناها على مقربة من قصر الأمير نفسه . وأرسل إليه عمر بك عدة أحمال من الهدايا ووعده بأن يكون أول السابقين إلى الوليمة الكبرى إكراماً للسيدة جلنار نفسها أيضاً .

وفى اليوم الموعود — يوم الأربعين لميلاد الطفل السعيد — استعد عمر بك للذهاب إلى الوليمة ، وهو يعلم كل تفاصيل المؤامرة التى دبرت لاغتياله فى ذلك اليوم .

سيقوم حسين كاشف بدوره الطبيعى عندما يتقدم إلى باب البيت لاستقبال الضيف الكبير بالحفاوة التى تليق به . ثم يميل على يده ليقبلها إجلالا له واعتذاراً من خطئه السابق . ولكنه لا يترك يده بعد أن يقبلها بل يمسك بها بكلتا يديه حتى يمنعه من تجريد سيفه . وفى تلك اللحظة يتقدم المتآمرون الخمسة ليضربوه بسيوفهم فى لحظة واحدة . وستكون قصور عمر بك وأمواله وجواريه ومماليكه بعد ذلك غنيمة للجميع ويصبح حسين كاشف الأمير حسين بك مكافأة له على نجاح المكيدة .

وذهب عمر بك إلى البيت الجديد الذى أعدت فيه الوليمة الفاخرة . كانت الأنوار والأعلام تزين الحارة من مدخلها ، وكانت الأرض مفروشة بالرمال الصفراء . وجلست فرقة الطبول والزمور تعزف بأنغامها الصاخبة عند مدخل الفناء فى حين كان الطباخون منهمكين فى إعداد الأصناف البديعة للضيوف العظام . ونزل عن فرسه عند الباب وتولى زمامه اثنان من السراجين أتباع الكاشف ، وكان الشيخ على المجذوب هناك واقفاً بقرب الباب ممسكاً بنبوته الطويل ويطوح رأسه قائلا : الله ! الله !

وكانت قلنسوته العالية ذات العمامة الخضراء تهتز مع حركة رأسه فى عنف .

ولما أقبل حسين كاشف لسيتقبل الأمير صاح الشيخ المجذوب :

ـ جرد السيف يا بطل !

فتبسم عمر بك عندما وجد الخطة التى رسمها مع الشيخ تسير فى طريق النجاح .

وأسرع بتجريد سيفه ووقف ينتظر مجىء صاحب البيت لاستقباله .

وبهت الحاضرون جميعاً وأوقفت فرقة الطبالين عزفها وقالوا :

ـ كرامة !

وبهت حسين كاشف أيضاً من المفاجأة ووقف فى مكانه ينظر نحو الضيف المتبسم .

وقال عمر بك : هذه كرامة الشيخ يا حسين كاشف . فتقدم .

ووقف الأمراء الخمسة ينظرون فى دهشة وسيوفهم معلقة فى حمائلها لم يجردوها بعد .

وقال عمر بك :

ـ تقدم يا حسين كاشف . كنت تريد مبارزتى منذ عام . تقدم وقبل يدى كما كنت عازماً .

وسار خطوتين إلى الأمام حتى وقف تجاه المملوك الشاب وقال فى صرامة :

ـ أنا أدعوك إلى المبارزة .

فقال حسين فى ضعف :

ـ ألم أعتذر إليك ؟

فضحك عمر بك مقهقهاً وقال :

وقد قبلت اعتذارك وها أنذا أجىء إليك مهنئاً . خذ يدى واقبض عليها جيداً كما اتفقتم . كما اتفقت أنت وهؤلاء .

وأشار إلى الأمراء الخمسة الواقفين من ورائه :

ووقف الفتى أمامه ثابتاً لا ينطق بكلمة .

وصاح عمر بك بالأمراء :

ـــ دعوا هذا المسكين يحيا من أجل ولده . وتقدموا أنتم واحداً واحداً . أهذا طلب عادل ؟

وصاح الشيخ المجذوب وهو يطوح رأسه .

ـــ الله ! الله !

وصاح الطبالون فى حماسة :

ـــ كرامة !

وتبسم عمر بك وأعاد سيفه إلى غمده قائلا :

ـــ إلى اللقاء فى ميلاد الطفل الثانى .

ثم قهقه فى ضحكة طويلة وأسرع فوثب على فرسه وهمزه فانطلق به يعدو.

وبلغته فى الأيام التالية أحاديث الأمراء فى مجتمعاتهم إذ يقولون إنه زعيم الأمراء بلا منازع .

وكان الشيخ على المجذوب يسير فى طرق حى قوصون وحاراته بنبوته الطويل وعمامته الخضراء يصيح بأعلى صوته متغنياً بزجل طويل فى مدح البطل الذى وقف وحده أمام خمسة أمراء ولم يجرؤ أحد منهم على مواجهته ، وكان يقطع غناءه بين حين وآخر ويهز رأسه فى عنف ويقول :

ـــ الله ! الله !

آخر الباشوات

« الشعب يتحرك فتولد أمة »

لم يستطع السيد عمر مكرم أن يشق طريقه فى ميدان الرميلة إذ كانت الألوف هناك بالعشرات تحيط بالقلعة من جميع جهاتها التى تلى الميدان ، ولم تنقطع الجموع كذلك من حولها صاعدة إلى التل المجاور للقلعة وإلى الهضبة التى وراءها . كان حصاراً تاماً ليس فيه فجوة يستطيع أحد أن يدخل منها إلى القلعة أو يخرج بغير أن يتعرض للموت المحقق .

وتزاحمت الجموع حول السيد عمر حتى إنه لم يتقدم إلا مسافة قصيرة نحو باب العزب حيث كان حجاج زعيم الجماهير يرابط بأعوانه الذين بايعوه على الموت . وكان حجاج الخضرى قد آلى على نفسه أن يستمر على الحصار حتى يستسلم الباشا مهما تطاولت مدة الحصار وأقسم له مئات من شبان الأحياء المختلفة على أن يبقوا معه إلى النهاية فلا ينصرفون عن أسوار القلعة إلا بالانتصار أو بالموت . وأراد السيد عمر فى ذلك اليوم أن يتحقق بنفسه أن جماهير أبناء القاهرة لم يتزعزعوا ولم يترددوا بعد أن تخلى عن مناصرتهم جنود الأرنؤود الذين كانوا يساعدونهم فى حصار القلعة فى مبدأ الأمر . ولكنه رأى بعينه أن الجموع لم تتزعزع ، بل ازدادت أضعافاً عما كانت

عليه من قبل . وشعر السيد عمر بغبطة شديدة عندما رأى تلك الجموع حوله إذ عرف أن شعب القاهرة جاد فى تصميمه على خلع خورشيد باشا — ذلك الطاغية العنيد الذى أبى أن يستسلم بالرغم من عزل السلطان له ، وأعلن عزمه الجرىء على الاستمرار فى المقاومة .

وأخذت أصوات الألوف الزاخرة تتعالى بالهتاف للزعيم العظيم الذى كان يمثل لهم كل معانى المقاومة كما كان يمثل لهم كل الأمانى الغامضة التى تكمن فى أعماق صدورهم .

وسمع حجاج الخضرى صياح الجماهير وهو مرابط مع أتباعه المخلصين أمام باب العزب ، وسمع اسم السيد عمر مكرم يتردد فى هتافهم الصاخب ، فأسرع ليستقبل الزعيم الجليل ويفضى إليه بالأنباء الأخيرة للانتصارات المتوالية التى تمت على أيدى فتيانه البسلاء . وسار فى صف طويل من أتباعه يشقون الصفوف المضطربة الصاخبة وكان سيفه مسلولا فى يده وهو ينادى قائلا :

— يعيش السيد عمر مكرم !

وزاد صياح الجماهير علواً عندما مر حجاج الخضرى بينهم بسيفه المسلول ورددوا هتافه فى حماسة وهم يتدافعون وراءه .

واستطاع حجاج بقوة جسمه ودفعة صف الفتيان الذى يسيرون معه أن يصل بعد مشقة إلى المكان الذى كان السيد عمر محصوراً فيه بين

الجماهير . ولما اقترب منه صاح بهتافه مرات متعددة وهو يلوح بسيفه المسلول فوق رأسه ، ورددت الجماهير هتافه بأصوات مدوية هزت فضاء الميدان الفسيح . واستقبله السيد عمر باسماً وقال له :

ــ أحسنت يا حجاج بالحضور إلى نجدتى .

فصاح حجاج بمن حوله فى عنف ليفسحوا للسيد طريقه ، وقال يخاطبه :

ــ تفضل يا مولاى لترى الغنائم التى وقعت فى أيدينا هذا الصباح .

فقال السيد مستبشراً :

ــ ها قد صرت قائداً أيها البطل .

فقال حجاج فى حماسة :

ــ هى بركة مولانا وفضل هؤلاء الشجعان . هى أنفاسك الطاهرة وشجاعة هؤلاء الأبطال . وهذا هو بطل اليوم .

وأشار إلى شاب واقف إلى جواره من بين صف الفتيان المحيط به قائلا :

ــ هذا أبو شمعة يا سيدى . هو الذى ترصد للأتراك الذين جاءوا خفية فى مساء الأمس من ناحية حلوان ليأخذونا على غرة ، وهو الذى أحاط بهم مع أصحابنا هؤلاء وقبضوا عليهم كما يقبض على الدجاج .

فقال السيد عمر ضاحكاً :

ــ تقصد الدجاج الرومى !

فتعالى الضحك من الجميع واستمر حجاج قائلا :

– وهم هناك فى قفص متين ليضعوا بيضهم على مهل لهم على كل حال شكرنا لأنهم أتحفونا بكثير من الأسلحة وبمقادير كبيرة من الماء وبقافلة كاملة من الجمال . أليست هذه أنباء سارة ؟

فقال السيد عمر :

– هذه بشرى النصر يا سيد حجاج .

وهز حجاج سيفه فوق رأسه قائلا :

– وهذا نصيبي يا سيدى من الغنيمة . سأحارب بهذا السيف حتى ينزل الباشا فى موكبه الذليل ونسوقه من القلعة ليعود إلى بلاده كما جاء . هذا ما أقسمنا عليه . الانتصار أو الموت . أليس كذلك أيها الرفاق ؟

فتصاعدت صيحة عالية طويلة من الجموع الزاخرة : الانتصار أو الموت !

وأخذ حجاج بلجام فرس السيد عمر مكرم واتجه به نحو باب العزب وهو يصيح بالجموع المتراصة ليفسحوا الطريق للزعيم الكبير .

ولما وصل السيد عمر إلى باب العزب ، ساعده حجاج وصاحبه أبو شمعة على النزول ، وسارا عن يمينه ويساره يسندانه من تحت ذراعيه حتى وصلا إلى خيمة كبيرة كانت منصوبة هناك . وكان فى الخيمة أكداس من الأحمال التى غنمها الفتيان . وهى مزيج مختلف من المؤن والأسلحة والثياب وعدد كبير من صناديق مقفلة من الصاج مملوءة بالماء .

وجلس السيد عمر على أحد الصناديق الكبيرة وقال يخاطب حجاجاً في صوت خافت :

ــ هل تخشى أن يضعف الحصار بعد اليوم ؟

فقال حجاج :

ــ ولماذا نخشى ؟

فقال السيد متردداً :

ــ ألم يخذلنا هؤلاء الأرنؤود ؟

فقال حجاج :

ــ وهل كان فيهم قوة لنا ؟ نحن أقوى وحدنا وأقرب إلى الانتصار من غيرهم. لست تعلم كيف كانوا يسببون لنا المتاعب كل صباح وكل مساء .

فقال السيد عمر :أعرف أنهم كانوا يخالفوننا ولا تنقطع لهم شكوى . أعرف أنهم كانوا حملا ثقيلا علينا وعلى هذا الرجل الذى أخلص لنا .

فصاح حجاج :

ــ من هذا الرجل الذى أخلص لنا ؟

فقال السيد عمر :

ــ أنت تعرفه بغير شك يا حجاج . ألا تعرف أنه محمد على .

فقال حجاج فى حنق :

ــ والله يا سيدى لو كان الرأى لى ما قبلت مساعدة أحد . هؤلاء جميعاً أبناء عم ولا فرق عندى بين الأرنؤود والأتراك . كلهم صنف واحد

ولا فرق عندى بين جنس وآخر . هم جميعاً يريدون أن يكونوا أسياداً ونحن لا نريد بعد الآن أسياداً . مالنا نطلب منهم المساعدة ونحن قادرون على الانتصار وحدنا ؟ أقسم لك مرة أخرى يا سيدى أننا لن نعود من هنا إلا بالانتصار أو الموت .

وأطرق السيد عمر لحظة وعلا وجهه شيء من الحزن والقلق ، ثم رفع رأسه إلى حجاج قائلا بصوت خافت :

ـ اسمع يا ولدى . لا تكن سبباً فى تفريق الكلمة الآن ونحن فى حاجة إلى كل مساعدة . دع الأرنؤود يذهبون وقف هنا أنت وأصحابك وأبناء بلدك حتى تنتصروا . فإذا تم الانتصار أمكننا أن نصفى حسابنا .

وما كاد السيد عمر يتم كلامه حتى سمعت ضجة من ناحية باب القلعة ، فخرج حجاج مسرعاً ، وقام السيد عمر فى لهفة ليرى ما هناك ، وسرت فى الجموع الواقفة حول الخيمة موجة اضطراب وتصاعدت منهم جلبة مختلطة ، وبعد حين عاد حجاج يجرى نحو السيد عمر قائلا :

ـ أبشر يا سيدى ! هذا صالح أغا رسول السلطان ينزل من القلعة ذاهباً إلى محمد على .

فقال السيد عمر فى لهفة :

ـ أيكون قد نجح فى إقناع هذا الباشا العنيد ؟

فقال حجاج :

ـ ومالنا نحن إذا اقتنع أو أصر على المقاومة . نحن واقفون هنا حتى يستسلم وينزل مضطراً .

فقال السيد عمر :

ـ أرجو أن يكون قد نجح فإن هذا يوفر علينا متاعب كثيرة . دعنى أذهب إلى محمد على يا حجاج ، لأعلم ماذا يحمل صالح أغا .

وذهب إلى فرسه فركب وسار حجاج وأبو شمعة على جانبى الفرس يفسحان له طريقاً بين الجموع الهاتفة الصاخبة حتى قطع ميدان الرميلة وهبط نحو المدينة من الطريق المجاور لجامع السلطان حسن .

واستمر السيد عمر فى سيره وصاحباه حجاج وأبو شمعة يحفان به من اليمين واليسار ومن ورائه موكب كبير من عامة أهل القاهرة يهتفون باسمه وينادون بالانتصار أو الموت .

ولما وصل السيد عمر إلى بيت محمد على بالأزبكية ترك الجمع الذى حوله ودخل وحده ، وكان صالح أغا قد وصل إلى الدار من قبله . فلما دخل كان محمد على فى مجلسه مع الرسول ، فقام يستقبله مرحباً وقال لصالح أغا :

ـ ألم تر السيد عمر قبل هذا ؟ هذا هو صديقى الأعز وهو قائد هذه الألوف التى لا حصر لها .

وتبسم ناظراً إلى السيد عمر .

فقال صالح أغا متجاهلا كلمة محمد على :

ــ قد صعدنا إلى الباشا في القلعة للمرة الثانية اليوم . وكنت عازماً في هذه المرة أن أقرأ عليه فرمان العزل بغير تردد .

فقال محمد على باسماً :

ــ ولعلك لم تضطر إلى ذلك ؟

فقال صالح أغا :

ــ لم أضطر إلى ذلك لأنه كان في هذه المرة ميالا للمسالمة . هو رجل عنيد ومن حسن الحظ أنه استعد للتفاهم .

فقال السيد عمر :

ــ نحن لا ننكر عليه أنه رجل شجاع . أظنه قاوم حتى لم يبق عنده شيء يقاوم به .

فقال صالح أغا في شيء من الجفاء :

ــ على كل حال قد انتهى الأمر وأعلن خورشيد استعداده للتفاهم .

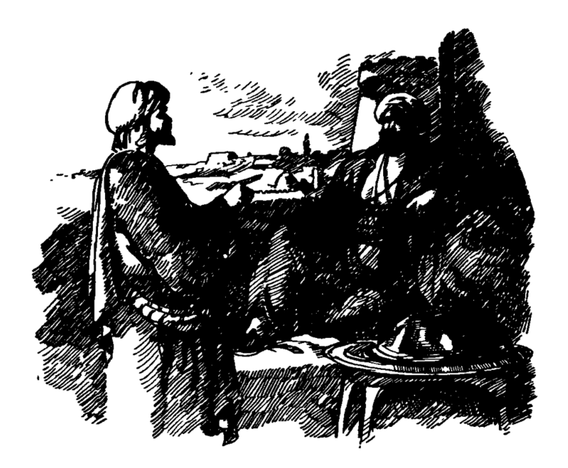
فبادر محمد على قائلا :

ــ هذا حسن . هذا حسن . هل له شروط معينة ؟

فقال السيد عمر في إصرار :

ــ وهل هناك شروط لمن يريد التسليم ؟

فقال محمد على :



– لا بأس يا صديقى أن نستمع إلى شروطه .

ونظر إلى صالح أغا قائلا : ما هى شروطه أيها السيد ؟

فقال صالح أغا :

– يخرج هو ورجاله بغير أن يتعرض لهم أحد . وتدفع مرتبات جنوده من الخزينة . وتحمل أمتعة الجنود كلها على حساب الحكومة .

فنظر محمد على إلى السيد عمر مكرم كالمستفهم . وقال بعد حين :

– لا أظننا نستطيع أن نصرف هذه المرتبات وإلا ثار علينا جنودنا يطالبوننا مثلهم .

فقال السيد عمر :

ـ هذا موضوع آخر يا سيدى . ومادام الأمر لايزيد على مبلغ من المال ، فهذا أمر سهل . أتعهد أنا بتدبير هذه المرتبات .

فصمت محمد على وقال صالح أغا :

ـ هل أبلغه هذا الرد ؟

فقال محمد على فى تردد :

ـ لا بأس . على شرط أن ينزل من القلعة اليوم . لا شىء سوى المرتبات ونقل متاع الجنود !

فقام صالح أغا قائلا :

ـ سأعود إليه إذن .

واستأذن خارجاً وبقى السيد عمر مع محمد على يتحدثان فى هذه الأموال المطلوبة وكيف يدبرانها .

وفى عصر ذلك اليوم ضربت المدافع من القلعة وكانت علامة على دخول الجيش الجديد إلى القلعة . بعد أن نزل منها جيش خورشيد آخر الباشوات الذى اضطرته جموع أهل القاهرة إلى الاستسلام . واصطفت الجموع الزاخرة المنتصرة فى ميدان الرميلة ينظم صفوفهم حجاج الخضرى وأبو شمعة وفتيان الأحياء المتدفقون على ميدان الرميلة من كل أطراف القاهرة ، وكان فى وسط الصفوف طريق واسع لا يسمح لأحد من الألوف

المتجمهرة أن يدخل فيه ، ثم بدأت صفوف الأتراك تنزل من باب العزب خارجة من القلعة فى طريقها الطويل نحو بولاق . كانت ملابسهم مختلفة وألوانهم متباينة حتى أطوالهم وملامح وجوههم كانت تنم على أنهم أخلاط من شعوب شتى .

وساروا فى صمت لا تتقدمهم موسيقى ولا يسيرون فى خطى متناسقة . كانوا يحملون أحمالهم مربوطة وراء ظهورهم أو تحت أذرعهم ، وتبدو على وجوههم آثار الإعياء والكآبة . وخرج فى آخر الصف الطويل خورشيد باشا الوالى العنيد وعلى وجهه مايعبر عما فى صدره من روح التحدى. كان رافعاً رأسه فى كبرياء لا ينظر إلى يمين ولا إلى يسار كأن الميدان الفسيح الذى يسير فيه صحراء خالية . ووقفت الجموع المتراصة تنظر إليه فى صمت عميق، تكتم أنفاسها من شدة التأثر وروعة الموقف. وتوالى من وراء الباشا خروج كوكبة من فرسان الحرس الخاص فى ملابسها البيض كأنها رشاش موجة منحسرة بعد أن تحطمت على صخرة . كانت موجة عنيفة هجمت منذ ثلاثة قرون ثم انحسرت كما بدأت عنيفة !

المعركة المستمرة

« المعركة لا تنتهى ولكنها اسجال »

عندما تقع مأساة لايستطيع الضحايا أن يجعلوا أحكامهم عادلة إذا تحدثوا عنها ، لأن كلا منهم يعكس آلامه الشخصية على أحكامه . هذه قاعدة عامة تصدق على كل ضحايا المآسى سواء كانت من المآسى الخاصة أم العامة . ولاشك فى أن موقعة التل الكبير وهزيمة المصريين فيها والاحتلال الأجنبي الذى أعقبها كانت من الكوارث القومية الكبرى التى خلفت وراءها ألواناً كثيرة من المآسى الخاصة والعامة . وقد كان رضوان أفندى أحد الذين أصيبوا فى تلك المأساة الكبرى ، لأنه كان جندياً فى معركة كفر الدوار ثم رقى جاويشاً قبل أن تنتقل فرقته إلى التل الكبير لما أبداه من الشجاعة والإخلاص فى مواقف كثيرة . وكان المنتظر أن يكون بين المرشحين للترقى إلى رتبة ضابط ملازم بعد الانتصار فى التل الكبير، ولكن الهزيمة الطاحنة التى أصابت الجيش هناك بددت آماله كما بددت آمال البلاد كلها . ولما عاد رضوان أفندى إلى قريته فى الكوم الأحمر ، كانت نفسه ممتلئة سخطاً ويأساً وثورة على كل شىء . كان إذا اجتمع مع أهل القرية يشتد فى العنف على كل من اشترك فى المعركة ، وكل من لم

يشتركوا فيها . وكان فى الوقت نفسه ينتهز الفرصة كلما خلا إلى أحد ممن يثق فى إخلاصهم له فيأخذ فى الطعن المر على الخديو توفيق والذين ناصروه وتآمروا معه على الالتجاء للإنجليز . وكان أهل القرية يحترمونه ويحبونه لأنه كان فى معاملاته رجلا عادلا ، يحب أن يأخذ حقه كاملا ، ويعطى الآخرين حقوقهم كاملة .

كما أنه كان من صميم أبناء القرية ومن أسرة من أكرم أسراتها . واشتغل بالتجارة ، بعد أن هدأت الأمور واستقر الحكم للخديو توفيق بمساعدة جيوش الاحتلال ، واتى فى تجارته نجاحاً عظيما حتى أصبح من أثرياء القرية . ولم يكن له أبناء من زوجته الأولى فتزوج بشابة فلاحة حتى تكون طوع أمره ، لأنه كان رجلا صارماً منذ أيام شبابه ، لا يحب أن تسيطر عليه زوجة شابة معتزة بكرامة أسرتها . وبعد عدة سنوات رزقه الله ولداً أدخل على قلبه السرور وسماه إبرهيم باسم أبيه فأنساه سروره بذلك الابن مرارة الحوادث الماضية . وكان يحاول نسيان ذلك الماضى المؤلم حتى إنه صار يغضب كلما أراد أحد أن يذكره به فى أية مناسبة وكان يواصل عمله بالليل والنهار ليجمع ثروة كافية لذلك الولد الوحيد حتى يكون غنياً عن الناس جميعاً ، واستطاع فى أقل من خمسة عشر عاماً من العمل المستمر أن يجمع من الأموال ما يكفل لولده حياة رغداً . واشترى فوق الأموال التى

ادخرها فى خزانة خفية عزبة لا تقل عن خمسين فداناً من أجود الأطيان فى القرية ، وكانت صفقة عظيمة اشتراها من رجل أجنبى عن القرية ، زهد فيها لأنها كانت لاتدر عليه ربحاً . فلما اشتراها رضوان أفندى استطاع أن يؤجرها لأهل القرية بإيجار حسن وأن يحصل على ريعها كاملا من الفلاحين الذين كانوا يرهبون جانبه لصرامته .

ولما كبر ابنه عنى بتعليمه فأدخله المدرسة الأميرية الوحيدة فى عاصمة المديرية، واشترى له بغلة هادئة سريعة وأعد لها سرجاً فخماً من نسيج الصوف الأحمر ، فكانت تحمله كل صباح إلى المدرسة ثم تنتظر فى وكالة البهائم حتى ساعة العصر فتحمله إلى القرية سالماً فى رعاية خادم خاص كان يقطع المسافة كل يوم بين القرية والعاصمة ذهاباً وإياباً إلى جانب البغلة .

ومن شدة حبه لولده كان يرحب بأصدقائه من زملاء الدراسة إذا أتوا لزيارته فى أيام الجمع ، وكثيراً ما كان يعد لهم الولائم الزاخرة بألوان الطعام الريفى الذى كانت الأم تتفنن فيه . ولما كبر ولده وانتقل إلى الإسكندرية ليكون بالمدرسة الثانوية أعد الأب له بيتاً خاصاً به ليستطيع أن يستقبل فيه أصدقاءه إذا أتوا لزيارته فى أيام الصيف ليقضوا عنده بضعة أيام بين حين وآخر . ولشدة محبة الأب لولده واغتباطه بأنه قد صار شاباً

كان يتخفف من أعماله الكثيرة حتى يقوم بواجب الترحيب بهؤلاء الأصدقاء . وكان من الطبيعى أن يعرف هؤلاء الشبان من أحاديثه معهم ومن أحاديث صديقهم إبرهيم ابنه أنه كان « ضابطا » فى جيش الثورة العرابية التى قرؤوا حوادثها فى دروس التاريخ ، فجعلهم ذلك ينظرون إليه كأنه قطعة من الآثار التاريخية الجديرة بالاهتمام . فكانت أحاديثهم تتجه دائماً إلى ذكر حوادث تلك الثورة رغبة منهم فى سماع بعض الطرف التى يحكيها الجنود القدماء دائماً عن مغامراتهم فى المعارك . ولكن رضوان أفندى كان يحس كراهة شديدة لتلك الأسئلة ويحاول بقدر طاقته أن يتجنب الإطالة فى الإجابة عنها حتى لاتعود إليه ذكرى الحوادث المؤلمة التى تثير فى نفسه مشاعر مرة حانقة. ولكن الشباب فى شغفه بالمجهول لا يهتم بأن يفكر فى آلام غيره ، فلم يفطن أصدقاء إبرهيم إلى مظاهر الألم والحزن التى كانت تظهر على وجه الرجل عندما كانوا يوجهون إليه تلك الأسئلة ، وكانوا يلحون عليه فى السؤال ويأخذون فى سرد الحوادث التى تعلموها ويمزجون أحاديثهم بكثير من عبارات الوطنية الحماسية ، فكان رضوان أفندى ينتحل لنفسه عذراً آخر ليخرج من مجلسهم حتى لايستمر فى الاستماع إلى أحاديثهم .

وفى يوم من الأيام فى إحدى تلك الزيارات ضاق صدر رضوان أفندى بتحمس ابنه لآراء أصدقائه عندما كانوا يتحدثون عن الحركة الوطنية التى

أثارها الشاب مصطفى كامل فى جريدة اللواء ، وبلغ منه الحنق مبلغاً عظيما حتى إنه وجه إلى ولده العزيز عبارات شديدة من التأنيب على الحماقة التى ظهرت منه . ولم يتعود إبرهيم أن يسمع من أبيه منذ الطفولة سوى عبارات التكريم والإعزاز فوقعت عليه تلك الكلمات الشديدة كأنها صفعات مهينة ، وقام من مجلسه غاضباً وترك أصدقاءه فى أشد حالات الارتباك والخجل . ولاحظ الوالد بعد قليل أنه أساء إلى ضيوفه وضيوف ولده وأنه قد تجاوز الحدود التى تقتضيها واجبات صاحب البيت ، فبدأ يعتذر عما فرط منه واستأذن الشبان ليخرج ويعود بولده الغاضب . وبعد دقائق قليلة عاد الأب مع ابنه وكان منظر إبرهيم يدل على أنه غسل وجهه من آثار الدموع قبل عودته .

وبدأ الوالد يتكلم ، وكان صوته متهدجاً من التأثر ، فقال :

« أحب أيها الأبناء أن أقص عليكم قصة حياتى أمام ولدى هذا الذى ليس لى أمل فى الحياة إلا أن يكون رجلا سعيداً ، لأنه وحيدى الذى أحب له من السعادة أكثر مما أحب لنفسى . وقد عشت حياة طويلة ومرّت علىّ حوادث كثيرة ووقفت فى مآزق شديدة علمتنى كثيراً من الحكم التى لا يعرفها هؤلاء الذين لم يعرفوا الشقاء . لقد بلغت اليوم من السن أكثر من الستين عاماً قطعتها سنة بعد سنة فى جهاد وعرق وآلام .

تركنى والدى وأنا صبى وكان لى شقيقان أصغر منى ، وأنتم لا تعرفون



معنى مسئولية صبى صغير عن أخوين أصغر منه . كان علىّ أن أبحث عن عمل يمكننى من القيام بأحمال أسرتى وأنا لا أعرف بعد ما هى الأعمال التى يمكننى أن أبحث عنها . ولكن إذا كان أبى قد تركنى للحياة وحيداً فإنه خلف لى اسمه المحبوب بين أصدقائه الكثيرين لأن إبرهيم أفندى كان عند الجميع رجلاً كريماً محترماً . ولهذا بادر أهل القرية جميعاً ليمدوا إلىّ يد المساعدة ، وذهب بى العمدة عليه رحمة الله إلى مأمور الناحية ليساعدنى على أن أجد وظيفة فى الحكومة ، لأنى كنت أجيد القراءة والكتابة . وكان المأمور رجلا كريماً فرق قلبه لى عندما عرف أنى أعول شقيقى الصغيرين فتوسط لى لأكون كاتباً فى الدائرة السنية — وذلك كما هو معلوم — فى مدة

الخديو إسماعيل . وفرحت فرحاً شديداً بهذا الحظ السعيد الذى هيأ لى مرتباً لا يقل عن ثلاثة جنيهات فى الشهر . أراكم تبتسمون أيها الأبناء لأنى أقول عن هذا المرتب إنه حظ سعيد ، ولكن الجنيه فى تلك الأيام كان يساوى خمسة جنيهات على الأقل من قيمة نقودنا اليوم .

وماتت أمى بعد بضع سنوات وكبر إخوتى واستقلا عنى واشتغل أحدهما بالتجارة وذهب الآخر ليكون جندياً فى السودان مع حملة الحبشة . وتنقلت فى وظائف الدائرة السنية وزاد مرتبى حتى استطعت أن أتزوج واتخذت لنفسى منزلاً صغيراً على النيل فى إحدى القرى التابعة للدائرة السنية . كنت إلى ذلك الوقت لا أعرف من الحياة إلا أعمال وظيفتى وبيتى ولم تكن عندنا صحف تحمل إلينا الأخبار كما هو الحال الآن ، ولهذا لم أكن أعرف شيئاً من أمور السياسة سوى أن مولانا الخديو هو ولى النعم .

وقمت فى الصباح الباكر فى يوم من الأيام ذاهباً إلى مزرعة الدائرة كعادتى ، فإذا سفينة كبيرة راسية على الشاطئ . فاقتربت محترساً نحو النهر وتداريت فى ظل ساقية قريبة لأنظر ما هناك فإذا جماعة من البحارة تهبط من السفينة وهى تحمل شيئاً يشبه جثة ملفوفة فى ملاءة بيضاء . وساروا بعيداً عن شاطئ النهر يحملون حملهم وهم يتعثرون ، حتى صاروا على نحو مائة متر من النهر فوضعوا الحمل وبدأوا يحفرون فى الأرض . وكان قلبى قد امتلأ رعباً من المنظر فبقيت ساكناً فى مكانى أنتظر فى لهفة

أن يفرغ البحارة من عملهم وينصرفوا ، ومرّت الدقائق علىّ بطيئة كأنها ساعات طويلة ، حتى فرغت الجماعة من إعداد الحفرة ووضعوا فيها ما معهم ثم أعادوا فوقها الكوم الكبير الذى استخرجوه وداسوا التراب بأرجلهم حتى سووه بما حوله ثم انصرفوا إلى السفينة . وبعد بضع دقائق أخرى تحركوا نحو الصعيد ، وكان العلم الأحمر يرفرف فوق السارية مع النسيم الذى ملأ قلوع السفينة ودفعها نحو الجنوب . وكتمت السر الذى عثرت عليه فى ذلك الصباح طى أعماق صدرى فلم أطلع عليه أحداً ، مع أن الفلاحين فى القرى المجاورة كانوا يتحدثون فى ذلك اليوم عن السفينة الذاهبة إلى الصعيد تحمل إسماعيل باشا المفتش لتغيير الهواء فى أسوان . لم أقل لأحد إنى رأيت السفينة راسية على بعد كيلومتر واحد من القرية ولا إنى رأيت بحارتها ينزلون منها يحملون جثة دفنوها على مقربة من الشاطئ . لأنى لو قلت كلمة من ذلك لذهب الجميع إلى الحفرة وأخرجوا الجثة وأحدثوا فضيحة كبيرة . وماذا كان يحدث لى لو حدثت تلك الفضيحة ؟ فكرت فى ذلك طويلا وعزمت على أن ألتزم الصمت فلا أنطق بكلمة واحدة عما رأيت .

ولكنى منذ ذلك اليوم أخذت أتتبع أخبار تلك السفينة ، فكنت أذهب كل يوم إلى بيت المأمور لأقرأ « الجرنال » الرسمى الذى كان يرسل إليه وصرت إليه أتتبع السفينة فى سيرها نحو الجنوب بلهفة شديدة كأنى أقرأ

قصة مثيرة . وقرأت آخر الأمر أن السفينة وصلت إلى أسوان وأن المفتش أصيب بمرض ، وأنه كان يكثر من شرب الخمر فساءت حالته وزادت عليه العلة . ثم قرأت أن طبيبين أجنبيين زاراه فى أسوان وصرحا بأن حالته خطيرة ، ثم أعلنت وفاته ونشر تقرير الطبيبين أنه مات من تأثير الخمر الذى أضعف صحته . أأقول لكم ماذا شعرت به عند ذلك ؟ شعرت بأنى أعيش فى مسرح تمثل فيه مهزلة . رأيت بعينى جثة الرجل تحمل من السفينة وتدفن ، ثم رأيت الحكومة السنية تمثل رواية هزلية أمام الشعب. وترددت الإشاعات بعد ذلك تقول إن الخديو قتل إسماعيل المفتش شريكه فى الحكم ونديمه فى مجالس اللهو وساعده الأيمن فى اقتراض الأموال من المرابين ، لأنه تخلى عنه وخانه مع مندوبى المرابين الفرنج ، ولكنى التزمت الصمت ولم أقل شيئاً . كان كل شخص يتحدث بالإشاعات التى سمعها من غيره لأنه لم ير شيئاً بعينه ، وأما أنا فلو قلت شيئاً فإنى أقول إنى رأيت بعينى . وهنا تقع الكارثة .

ومن ذلك الوقت دب فى أعماق صدرى شعور عميق بالكراهة والحقد والمقت للخديو إسماعيل ، لا لأنه قتل شريكه ، بل لأنه سخر منا ، سخر من الناس جميعاً . كان فى إمكانه لو أنه شجاع شريف أن يحاكم المفتش ويوقع عليه العقوبة التى يستحقها . ولكن ارتكاب الجريمة فى الظلام وتمثيل المهزلة أمام الأنظار كان كافياً لملء قلبى حنقاً ،

سواء كان المفتش مجرماً أم بريئاً .

من ذلك الوقت امتلأ قلبي ثورة على الحكم الفاسد ، ولكنى كظمت الثورة فى صدرى فتعمقت وأصبحت بعد قليل تشبه الوسواس أو الجنون .

ثم صودرت أموال إسماعيل لتسديد ديون المرابين وصفيت الدائرة السنية ووجدت نفسى فى الطريق بغير وظيفة : أتفهمون شعورى عند ذلك وتدركون السبب الذى حملنى على الخطوة التالية ؟ أقول لكم إننى بدأت أبحث عن الأفراد الآخرين الذين يحملون فى صدورهم ثورة مثل ثورتى . وهكذا قضيت سنتين من التشرد والجوع والثورة . وعزل الخديو إسماعيل واتقدت النيران فى قلوب كثيرة فاتصلت بالشيخ عبدالله نديم وبدأت أكتب فى الجرائد التى يصدرها وأصبحت من أتباع الثورة العرابية . »

وأخرج رضوان أفندى منديلا وأخذ يمسح قطرات العرق عن جبينه كما أخذ يمسح قطرات من الدموع فى عينيه . ثم استأنف الحديث وكان الشبان ينظرون إليه فى تلهف ؛ فقال :

« بالاختصار لا أطيل عليكم ، فإنى لم أقنع بالكتابة فى الجرائد بل تطوعت فى الحرب عندما ارتمى الخديو توفيق بن إسماعيل فى أحضان الإنجليز ، وكنت كلما جاء ذكره أبصق على الأرض وأطلق لنفسى العنان فى سبه وسب أبيه وأصفهما بأوصاف لا أحب أن أعيدها على أسماعكم لأنها شنيعة . كنت أسب كما تعود الجنود المحاربون أن يفعلوا .

وكانت النيران المتقدة فى قلبى تدفعنى إلى أعمال جنونية ، فاشتركت فى حريق الإسكندرية ، وتهورت فى معارك المدينة كما تهورت فى معركة كفر الدوار ، حتى إنى رقيت إلى صف ضابط . وصدرت الأوامر إلينا بالانتقال إلى الشرقية وهناك عسكرنا فى التل الكبير . ولا تسألوا أيها الأبناء عن الحقائق الأليمة التى بدأت تنكشف لى عند ذلك . كان الجميع يعرفون مقدار تهورى ولهذا كان لى فى كل يوم مفاجأة جديدة إذ كان الكثيرون يطلبون منى أن أقوم بأعمال أشم فيها رائحة الخيانة . جاءوا يعرضون علىّ هدايا ثمينة لإغرائى فكنت أزداد يقيناً بأنهم يريدون منى الخيانة . فكنت أبصق على الأرض وأسبهم سبًّا شنيعاً ولكنى لم أتكلم وكتمت فى نفسى الغيظ حتى لا أثير فضيحة . وماذا يحدث لو ثارت فضيحة ؟ لاشىء أكثر من تلويث سمعتى وانشغالى عن الجهاد فى أمور تافهة . وكانت أكبر مفاجأة لى عندما جاء إلىّ أحد مشايخ الصوفية الذين يسيرون مع الجيش لإقامة الأذكار والابتهال إلى الله بالنصر . وطلب منى الشيخ أن أترك الدرك الذى كنت مرابطاً فيه لأشترك فى ذكر هام محقق الفائدة لانتصار الجيوش الوطنية . ولم أفهم معنى قوله بل أنى تعجبت منه وشممت رائحة الخيانة . ولما رفضت أخذ الرجل يلح علىّ إلحاحاً شديداً وانتهى أمره بأن عرض علىّ كيساً مملوءاً بالذهب قائلا : هذه هبة

من سلطان باشا لشدة إخلاصه وحرصه على قيامنا بالدعاء فى هذه الليلة.

وكنت قد سمعت بعض إشاعات عن إنشقاق سلطان باشا واتصاله بحزب الخديو والإنجليز ، فصرخت فى الشيخ صرخة حانقة وبصقت على الأرض وسببته سباً مقذعاً كما سببت الخديو وسلطان باشا والشيطان . ومضى الرجل عنى غاضباً يدعو على وفضلت أن أبقى فى مكانى لأحافظ على الدرك الذى كنت فيه ، ولكن لم أتكلم بكلمة ، وعزمت على الذهاب بنفسى إلى عرابى باشا لأطلعه على الشكوك التى ساورتنى . ولكن المفاجأة حدثت أسرع مما كنت أتوقع . فإن الموقعة بدأت بعد قليل وبادرت إلى مكانى لأقاتل . وكان معى فى الموقع الذى كنت فيه سرية من عشرين رجلا ، لأنى كنت قائماً بأعمال ضابط ملازم وكنت على وعد بالترقية بعد المعركة . أتدرون ماذا حدث؟ لم يكن هناك رجل واحد لأن الجميع ذهبوا ليقيموا الأذكار ، واضطررت إلى أن أقاتل وحدى .

وبعد عشرين دقيقة من بدء المعركة رأيت عرابى باشا راكباً متجهاً إلى محطة السكة الحديد ، وصدرت الأوامر بالرحيل إلى القاهرة .

عند ذلك بصقت على الأرض مراراً وأنا أسب وألعن الجميع ، ولم يخل من حنقى أحد سواء كان عسكرياً أم ملكياً وسواء كان شيخاً أم شاباً ، وسرت مع السيل المضطرب نحو القاهرة لا أدرى أين أذهب . انفرط العقد ولم يبق فى البلاد حكومة .

ثم رأيت الإنجليز يدخلون إلى القاهرة وكدت أجن من الغيظ والحنق عندما وجدت الجميع يقفون لينظروا إليهم وهم يسيرون فى سلاحهم فى الشوارع . ولعنت نفسى أيضاً لأنى وقفت معهم . وسرت كالمجنون أبحث عن أحد أسأله عما حدث .

وفى اليوم التالى سمعت الخونة يتكلمون بأصوات عالية . الذين كانوا بالأمس يستمعون إلى خطابات عبدالله نديم وقصائد البارودى ويصفقون حتى تدمى أيديهم بدأوا يلعنون الثوار ويسمون عرابى خائناً . وبدأت أنا وأمثالى نتوارى . فماذا تنتظرون منى أيها الأبناء بعد كل هذا ؟ماذا تنتظر منى ياإبرهيم ياولدى ؟ أنت إبرهيم على اسم أبى لأنى أحبك وأضع فيك أملى الذى فقدته بموت أبى . ماذا تريد منى ؟ أتقولون بعد هذا إن هناك شيئاً اسمه الوطن ؟ .

فصاح إبرهيم :

ـ بحق أبيك يا أبى لاتقل هذا ؟

وصاح الشبان :

ـ بحق ولدك ياعم لا تقل هذا ؟

ونظر إليهم رضوان أفندى فى دهشة وقال :

ـ وماذا تقولون أنتم ؟

فقال إبرهيم بصوت مختنق :

ـ ماذا كنت تفعل لو استمرت المعركة ؟

فقال رضوان أفندى فى ضجر :

ـ ولكن أين هى المعركة ؟

فقال إبرهيم :

ـ ماذا كنت تفعل لو ناداك عرابى للنضال بعد عودته إلى القاهرة ؟

فقال رضوان أفندى فى حماسة :

ـ ليته فعل يا ولدى .

فقال إبرهيم فى عناد :

ـ وماذا تفعل لو ناداك غير عرابى ووجدت إلى جانبك رجالا ؟

فقال رضوان أفندى :

ـ كنت أقاتل معهم إلى آخر رمق ، إلى آخر رصاصة. وإذا لم أجد رصاصاً فإلى آخر عظمة فى رأسى وجسمى وآخر ضرس فى فمى .

وكان يقذف بألفاظ سريعة واحمر وجهه من التأثر ثم بصق فى غيظ على الأرض قائلا :

ـ « إخص » لعنة الله . . . .

وتمالك نفسه فلم يستمر فى أقواله الحانقة وأوقف اللعنات التى كاد يقذف بها .

فقهقه الشبان بضحكة عالية وقال إبرهيم :

ـ ألاتحب أن تبدأ معركة جديدة يا أبى ؟

فنظر رضوان أفندى إلى ولده مبهوتاً ثم نقل بصره إلى الشبان يفحص وجوههم واحداً واحداً ثم قال فى بطء:

ــ لماذا تضحكون هكذا ؟

فقال أحدهم :

ــ لأنك مازلت تحمل قلب جندى.

فانفرجت أساريره وأطرق حيناً ثم قال :

ــ نعم مازلت أحمله ، وما يزال يغلى من الغضب . الغضب الذى أحاول أن أخمده بلعناتى .

فقال الشاب :

ــ ولماذا لاتصوبه إلى العدو ؟ لماذا لاتستأنف المعركة ؟

فقال رضوان أفندى بصوت امتزجت فيه الدهشة بالشك :

ــ أتقول استأنف المعركة ؟

فقال الشاب فى حماسة :

ــ هى معركة قد تطول . قد تطول لعدة سنوات وقد يشترك فيها جيل بعد جيل . قد يشترك فيها جنود لم يخلقوا بعد ولكنها معركة مستمرة. لماذا لا تشترك فيها أنت ونحن ثم يشترك فيها أبناؤنا وأبناء أبنائنا حتى النهاية ؟ هى معركة أمة ، تتجدد مع الأجيال حتى يتم النصر .

وكان رضوان أفندى قد وقف على قدميه من شدة التأثر وهو يستمع

إلى الشاب الذى وقف هو الآخر وأخذ يلوح بقبضته فى الهواء كأنه يقاتل .

فلما فرغ الشاب من قوله اندفع رضوان أفندى إليه وأخذه بين ذراعيه قائلا :

ــ أعاهدك على أن أستأنف المعركة !

وتحمس الشبان لهذا التغير المفاجئ فقاموا يهتفون بحياة الوطن والحزب الوطنى الجديد وتعهد رضوان أفندى أن ينشئ فى الكوم الأحمر شعبة من ذلك الحزب لينشر الدعوة لاستئناف المعركة .

والذين يعرفون أخبار الحوادث التى وقعت فى مَصر فى ثورة سنة ١٩١٩ يعرفون أن الأستاذ إبرهيم رضوان كان اليد المحركة والقلب الدافع للحركة القوية التى عمت مديرية البحيرة كلها فى إبان تلك الثورة . ولكن الذين يعرفون الأسرار الخفية التى كانت تنطوى وراء تلك الحوادث ، يعلمون حق العلم أن القوة الحقيقية التى كانت تحركها إنما تنبعث من شيخ جاوز السبعين من عمره ولا يغادر بيته فى قرية الكوم الأحمر ، وهو الجندى القديم رضوان أفندى !

الرقصة المجنونة

« عند ما كانت الحياة مجنونة »

كان الأستاذ عطية يعتقد أن الحياة صارتِ مجنونة ، وذلك بعد أن بلغ سن الأربعين فى عام ١٩٥١ . حقًّا إنه من السخف أن يقول أحد إن الزمان فسد ، لأن الزمان تغير ، فإنه لا مفر من تغير الزمان . ولكن من الضرورى أن يكون الناس على اتفاق فى شعورهم وآرائهم ما داموا يعيشون فى وقت واحد ، وإلا كانوا عرضة لسوء التفاهم . وهذا هو السر فى اعتقاد الأستاذ عطية أن الحياة مجنونة لأنه كان يخالف أهل زمنه فى الآراء والشعور .

والأستاذ عطية مع غرابة أطواره جدير بأن يعد من الأفذاذ النادرين الذين بلغوا سن الأربعين فى منتصف القرن العشرين. هو رجل ذو شخصية عجيبة تشبه الشخصيات الخيالية التى تتحدث عنها الأساطير ، لا تهمه مظاهر الحياة بقدر ما تهمه حقائقها الجوهرية ، ولا يعبأ بالأوضاع التى يتعارف الناس عليها إذا كانت فى نظره أوضاعاً سخيفة . وهو فوق كل هذا لا يعترف بالمقاييس الاجتماعية ولا المقاييس الأخلاقية إذا لم تكن قائمة على المبادئ التى يفهمها ويسلم بها . فهو مثلا لا يعترف بأن الإنسان

جدير بالاحترام لأنه حصل على ثروة عظيمة فقط . وقد يكون احترامه عظيما لرجل بسيط فقير أكثر بكثير من تقديره لرجل من أصحاب الملايين وذلك إذا كان صاحب الملايين من الذين لا يساوون مليما على حسب مقاييسه الخاصة .

ولكن الأستاذ عطية وإن كان غير راض عن الأوضاع والمقاييس التى فى أيامه ، فإنه كان محتفظاً بالمرح وسعة الصدر ، ولا يحمل لأهل زمانه ضغناً لأنهم يخالفونه فى الشعور أو الآراء . هو لا يعرف المرارة ولا الحقد ولا الحسد، ويأخذ أمور الناس كما هى ويحتفظ بآرائه ومقاييسه لنفسه مع علمه بأنها تخالف مقاييس الناس وآراءهم . ولهذا كان محبوباً عند الجميع برغم اختلافهم عنه ، بل كانوا يحبون أن يستمعوا إلى آرائه وانتقاداته التى يصوغها فى أسلوبه الفكاهى الظريف .

وأما سبب اختلاف وجهة نظر الأستاذ عطية عن وجهة نظر أهل زمانه ، فذلك ما يطول شرحه ، ويكفى أن نقول إنه يرى أن العالم كله بوجه عام ومصر بوجه خاص ، قد أصبح عالماً سخيفاً مجنوناً .

فالناس جميعاً فى نظره يسيرون نحو الهاوية بعيون مقفلة ، بعد أن فقدوا أهم شىء فى الحياة وهو أرواحهم . أصبح الناس جميعاً فى نظره حثالة يعيشون بلا أرواح يعبدون أصناماً بغير أرواح ، أو بقول آخر هم يعبدون الأصنام التى لا أرواح لها على شرط أن تكون من ذهب . ومن أجل عبادتهم

للأصنام الذهبية ، أصبحوا لا يعبأون بالحقائق وأغلقوا أعينهم عن معانى الحياة الكبرى ، واتجهوا فى لهوهم السخيف نحو الهاوية . هذه هى فلسفته التى كان يصوغها فى أسلوبه الفكاهى اللطيف ، بطريقة مضحكة مسلية مع أنها تنطوى على حكم نفيسة . والمثل الأعلى فى الحياة للأستاذ عطية هو الشخصية الخيالية المعروفة : جحا ، الذى بلغ من إعجابه بشخصيته أنه أوصى أحد الفنانين المشهورين بصنع تمثال نصفى له ، ووضعه فى صدر غرفة الجلوس فى بيته .

والأستاذ عطية رجل وإن تخطى سن الشباب من زمن طويل ، يحتفظ بحيوية قوية ، حتى إنه يبدو شاباً فى أعين الجميع . ومن فضائله أنه غير متزوج ، ولذلك لا يجد سبباً يحمله على المجاملة فى إبداء آرائه ، كما أنه يمتاز بفضيلة أخرى وهى أنه لا يرى فى الحياة سبباً يستحق الأسف . لا تكاد الدنيا تزيد فى نظره على مسرح شعبى تمثل عليه ملهاة مضحكة أو مهزلة ، تتخللها أحياناً بعض مناظر مبكية ولكنها ملهاة لا يدرك معناها كثير من النظارة .

والممثلون فى هذه الملهاة أو المهزلة هم الأحياء جميعاً لا فرق فيهم بين من يسمونهم العظماء والحقراء ، ولا بين العقلاء والحمقى ، والجميع يقومون بأدوارهم على المسرح وينظرون إلى أنفسهم فى الوقت نفسه . وهو يعتقد أنه هو الآخر يقوم بدوره فى المهزلة العامة ، كما يشترك فى مشاهدة المناظر ،

والفرق بينه وبين غيره أنه لا يطلب أتعاباً على القيام بدوره فى حين أن الآخرين يتقاضون أتعابهم بطرق مختلفة ! بعضها يضحك وبعضها يبكى.

والأستاذ عطية يتعمد أن يؤدى دوره فى الحياة بإخلاص وصراحة ، ولذلك فهو يسير على سجيته بغير تكلف ، ولا يحاول أن يغطى أعماله ولا آراءه بالغشاء المموه الذى يغطى به الناس أعمالهم وآراءهم لتبدو مقبولة. وله فلسفة خاصة فى كل ما يتصل بالناس ، وذلك أنه لا يقيد نفسه بالعرف الذى اصطلحوا عليه ، ما دام لا يرى فى الحدود والمقاييس التى وضعوها سوى حيل خبيثة وضعها المكرة ليستغلوا البسطاء ويفوزوا بما يشاءون من المنافع والمتع . ولهذا جعل شعاره الأول فى معاملته للناس ألا يقف لحظة ليفكر فيما يقوله الغير عنه .

ومن العدل أن ننظر إلى الناحية الأخرى من شخصية الأستاذ عطية ، إذا أردنا أن نعرفها على حقيقتها ، فهو رجل يجمع فى طباعه بين الأضداد ، كما أنه يجمع فى عقله بين المتناقضات . فبينما هو يعطى ما فى يده سخياً فياضاً ، إذا هو يمد يده إلى أصدقائه فى جرأة قد تبلغ حد التبذل أو الاعتداء . وبينما هو يأبى أن يستجيب إلى دعوة أحد العظماء إلى وليمة فاخرة ، إذا هو يذهب إلى مجالس السوقة بغير دعوة ويقضى معهم الأماسى الطويلة فى منتدياتهم الوضيعة .

وهو من سلالة أسرة قديمة عريقة فى المجد ، ولكنها من تلك الأسر

التى لم يبق منها إلا الاسم ، كما لم يبق من مجدها القديم إلا بيت فسيح متهدم فى حى المنشية . وإذا كان للأستاذ عطية ميراث آخر من هذه السلالة القديمة ، فذلك لا يزيد على بعض مبادئ يتمسك بها ويعتقد أنها هى الأمثلة العليا . وقد يبلغ به التحمس لهـــذه المبادئ إلى حد أنه يعتقد أن الحياة الحديثة صائرة بغير شك إلى الانحلال والفناء لأنها انحرفت عنها .

ومع أنه متصل بالقرابة والنسب إلى كثير من الأسر الكبيرة ، فهو لا يعبأ بتلك الصلات ولا يحرص عليها ، بل يتعمد أن يتبرأ منها ، لأن تلك الأسر قد انحرفت هى الأخرى عن المبادئ التى يعتقد فيها . والأستاذ عطية مع كل بدواته وآرائه الغريبة يتمتع بمكانة عالية بين أهل المنشية ، فإن أبناء ذلك الحى ولا سيما العامة والسوقة منهم يحبونه ويعتبرونه الرجل الأصيل المنحدر من بيت الشرف والمجد ، فإذا مر فى الطريق قام له أصحاب الدكاكين وقوفاً وحيوه فى بشاشة ، ورحبوا به فى مودة ، فإذا عرج على دكان أحدهم ليجلس معه ساعة قصيرة ، عد ذلك شرفاً عظيما وتنازلا مشكوراً .

وليس احترام الأستاذ عطية مقصوراً على أصحاب الدكاكين وأهل السوق فى حى المنشية ، فهناك شخصية هامة محبوبة فى ذلك الحى تعتبر الأستاذ صديقاً عزيزاً وهى شخصية « كوكو » المهرج المرح الذى يعرفه



الجميع ، ويلتف حوله الأطفال والشبان ليستمعوا إلىفكاهاته الحلوة ، كلما مر فى حواريهم . فكلما لمح كوكو خيال الأستاذ عطية من بعيد أسرع إليه ووضع يده على كتفه وأخذ يرقص ويغنى له ويبادله الفكاهات ، ثم يأخذ منه ما يعطيه من النقود الصغيرة إذا كان معه نقود .

وللأستاذ عطية أصدقاء كثيرون فى القاهرة وغيرها لا يكادون يصبرون عنه إذا غاب عنهم ، ويسعون إلى مرافقته والتمتع بمجالسه ، وهم جميعاً يميلون إلى مداعباته ويتعمدون أن يثيروا مرحه وطربه وقد يبلغون معه حد العربدة إذا لعبت الخمر برؤوسهم .

وأما هو فإنه لايشرب الخمر ولا يضيق أبداً بهذه المداعبات ولايغضب ،

بل يتحملها مسروراً ، وكل ما يرد به عليها لا يزيد على بعض فكاهات تطلق الضحكات العالية وتزيد الأصدقاء تعلقاً به . فلا يذكر هؤلاء الأصدقاء أنه خرج عن عادته فى المؤانسة الظريفة الوديعة إلا مرة واحدة فى ليلة واحدة كانت فلتة من الفلتات فى كل حياته .

ففى تلك المرة وحدها ، شرب الأستاذ عطية بعض كؤوس من الخمر على غير عادته وعربد عربدة صارخة كانت موضع الدهشة عندهم جميعاً حتى إنهم ما يزالون يذكرونها ويتفكهون فى مجالسهم بذكرها ، ويسمونها فيما بينهم « ليلة عيد الميلاد » .

وكان هو إذا سمع حديث هذه الليلة قام مسرعاً لأنها تثير فيه ألماً شديداً ، وهذا هو حديثها :

فى ذات صباح دق جرس التليفون فى بيت الأستاذ عطية ، وكانت الساعة ما تزال السادسة ، وهى ساعة يندر فيها رنين التليفون . وكانت دهشة الأستاذ عظيمة عندما سمع صوت صديقه جابر بك الذى كان معه فى الليلة السابقة إلى قرب منتصف الليل .

فقال الأستاذ فى ظرف :

ـ أوحشتنا يا سيد جابر !

فضحك جابر عند الطرف الآخر من التليفون وأجابه قائلا :

ـ وماذا أصنع ؟ لم تصلنى الدعوة إلا بعد عودتى إلى المنزل .

اسمع يا أستاذ عطية ! باختصار لا تقيد نفسك فى هذا المساء بأى موعد .

فقال الأستاذ :

— عظيم ! كتب كتابك ؟

واستمر الحديث بعد ذلك بضع دقائق تخللتها بعض فكاهات طريفة .

ثم وضع الأستاذ السماعة، وكان مجمل ما قاله جابر بك أن أكد عليه ألا يقيد نفسه بموعد آخر وأنه سيمر عليه فى الساعة الثامنة مساء . وهز الأستاذ عطية رأسه متعجباً من غرابة أطوار صديقه وعاد إلى فراشه وهو يقول لنفسه :

— عظيم !

ثم أغمض عينيه .

ولما جاءت الساعة الثامنة مساء آخر الأمر سمع الأستاذ عطية بوق السيارة عند الباب ، وكان ما يزال يستعد لاستقبال صديقه . فأسرع بلبس حذائه وطربوشه ونزل يقفز فوق الدرج حتى خرج إلى الطريق .

وكانت الليلة باردة من ليالى الشتاء التى اشتدت فيها الريح ، أو هى على التحقيق ليلة عيد الميلاد من سنة ١٩٥١ . كانت الريح تهب فى عنف ، والظلام يغالب أنوار المصابيح الغازية الخافتة التى فى الطريق

الضيق . ووقف الأستاذ أمام السيارة حاملا طربوشه فى يده حتى لا يقع من هبات الهواء .

وسأل صاحبه :

ـ إلى أين ؟

فصاح به جابر من داخل السيارة :

ـ أسرع ولا تضيع الوقت . أيعجبك الوقوف فى هذا الهواء ؟

ولكن الأستاذ عطية أجاب :

ـ أحب أن أعرف أولا . . .

ولم يتم جملته لأنه سمع من آخر الحارة صوتاً يناديه بعبارة مألوفة عنده :

ـ « عطية بيه يدوم عزه ! »

وفى لحظة كان كوكو المهرج يرقص ويغنى وهو واضع ذراعه اليسرى حول كتفى الأستاذ عطية . فضحك الأستاذ ووضع طربوشه على رأسه ثم جعل يده على كتف المهرج وأخذا يتراقصان ويغنيان معاً .

ودهش جابر بك من هذه المفاجأة ولم يملك نفسه من القهقهة وهو يصيح بصديقه أن يوقف تلك المهزلة ويسرع إلى الركوب معه .

ولكن الأستاذ عطية تقدم نحو نافذة السيارة قائلا لجابر بك :

ـ أقدم لك صديقى كوكو !

وكان منظراً يشبه فى عينى جابر بك منظر اثنين فرّا من مستشفى

المجاذيب فاستسلم للأمر الواقع وأوقف دوران محرك السيارة وانتظر حتى يفرغ صاحبه الغريب الأطوار من بدوته .

وكان الأستاذ عطية فى ملابس أنيقة من قمة طربوشه إلى كعب حذائه اللامع . على حين كان كوكو حافى القدمين وليس عليه سوى سروال قصير من القطن الأبيض ، وأعلى جسمه عار إلا من خطوط ملونة دهن بها جلده . وكان شعره الخشن الأشعث يعلوه طرطور من ورق ملون بين أحمر وأصفر وأخضر ، وله ذؤابات من قصاصات الورق معلقة فى خيوط وترف على كتفيه مع كل حركة من حركاته .

ولم ينس كوكو فوق هذا أن يرشق وردة كبيرة حمراء من الورق الملون فى شعره الغزير فوق أذنه اليمنى ، وكان بين حين وآخر يرفع يده إليها فى تأنق ويحرك رأسه تيهاً وهو يرقص . وكانت حركات الراقصين رشيقة وغناؤهما مطرباً حتى إن جابر بك لم يتمالك أن ينسى حنقه ويكف عن الصياح منتظراً حتى يفرغا من تلقاء نفسيهما .

وكان أطفال الحارة قد سمعوا الضجة وأتوا مسرعين فوقفوا فى حلقة واسعة حول السيارة والراقصين وشاركوا فى الفكاهة والضحك والزياط والتصفيق . وبعد أن مضت دقائق طويلة ، توقف الرقص ورفع الأستاذ عطية يده عن كتفى صاحبه وتقدم إلى نافذة السيارة فخاطب صديقه جابر قائلا :

ــ أليس معك نقود صغيرة يا سعادة البك ؟

فأخرج جابر بك ما فى جيبه من القطع الصغيرة مستسلماً وقدمها إليه فى صمت، فألقاها الأستاذ عطية فى كف المهرج الذى انطلق فى رقصة جديدة تصحبها أغنية متجهاً نحو أقصى الحارة . وأسرع الأطفال يجرون وراءه ويصفقون ويضحكون.

وانطلق جابر بك بالسيارة فى شىء من الغضب وقال فى حنق :

ــ لقد هممت أن أنزل إلى هذا المجنون لأعيد إليه عقله بصفعة .

فقال الأستاذ عطية :

ــ ولماذا ؟ ألم يعجبك ؟

فقال جابر فى غيظ :

ــ هذه رقصة مجنونة . إنه سخف . إنه هراء . وهذا التنازل الزائد عن الحدود ! ثم تشجعه فوق هذا بإعطائه نقودى ؟ إنها رحمة زائفة وأولى بمثل هذا المهرج أن يوضع فى إصلاحية أو سجن ..

فقال عطية فى هدوء :

ــ ولم كل هذا ؟

فقال جابر فى دفعة :

ــ ألا تعرف لماذا ؟ ألا تراه يسير هكذا عارياً ويضيع وقته فى الرقص الأبله ؟ ألا تعلم أن أمثال هذا المهرج يجلبون على البلاد السخرية ؟ توحش !

واستمر جابر بك فى حنقه والأستاذ عطية مستمر فى صمته .

وقال جابر :

ــ لم لا يلسع البرد هذا المخلوق فيقضى عليه ويريحنا منه ؟ كيف يترك رجال البوليس هذا الرجل العارى يسير بغير حياء أمام الناس . وهذا السخف الظاهر ــ طرطور ــ وألوان ، ولم ينس أن يضع وردة فى شعره . هذه عودة إلى العصور المظلمة عندما كان الناس يتبركون بالبلهاء أصحاب الريالة ويتمتعون بمناظر السخرية .

ولما هدأ غضب جابر بك قال له الأستاذ عطية فى هدوء :

ــ إلى أين تسير بى ؟

فضحك جابر وقال فى ظرف :

ــ لامؤاخذة يا أستاذ عطية ! دعنا من هذا الفصل البارد ، لأننا ذاهبان إلى حفلة رائعة... ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة . جمال وفن وظرف وأناقة . ألا تعرف محمود بك صعبان؟ هو يعرفك وبعث إليك بهذه الدعوة.

وأبرز بطاقة أنيقة فى ظرف وردى اللون وقدمها إلى صاحبه قائلا :

ــ طبعاً جيران قدماء . ولا شك أنك تذكر الآنسة « بسمة » ، ومن حقى عليك أن تقدم لى الشكر على أنى أخذت هذه البطاقة من محمود بك صعبان لأوصلها إليك . سترى حفلة رائعة .

وأحس الأستاذ عطية بقبضة شديدة فى نفسه عندما سمع اسم الأستاذ

صعبان ، وتلفت حوله بغير وعى كأنه يريد أن يجد سبيلا إلى الخروج . ولكنه كان سجيناً فى سيارة تجرى بسرعة الريح الشديدة التى تصفر بين الأشجار التى على جانبى طريق الجزيرة المؤدى إلى بيت صعبان بك بالزمالك . وأخذ جابر بك يصف له الدار العظيمة التى يقيم فيها صعبان بك التاجر الكبير ، ويطنب فى وصف ما فيها من أثاث ورياش ، ويتحدث عن الثروة الواسعة التى جمعها ذلك الرجل العصامى فى مدة الحرب . ثم أخذ يتغنى بمحاسن الآنسة « بسمة » هانم التى ستكون نجمة الليلة فى الاحتفال الذى أقامه البك بمناسبة عيد الميلاد .

وكان الأستاذ عطية فى أثناء ذلك مطرقاً ينظر إلى البطاقة ذات الحروف الذهبية ، وهو شارد الفكر لا يكاد يسمع شيئاً من أقوال صاحبه .

وعادت إليه صورة قديمة عرفها عندما كان محمود صعبان جاراً قديماً منذ اثنتى عشرة سنة ، وعندما كان يقيم فى الشقة الأرضية من منزل قديم مجاور لبيته . وتمثل صورة « بسمه » وهى صبية صغيرة تحمل السلة لتشترى الخضر من الباعة المتجولين فى الحارة . كانت تعجبه لبساطتها ومحاسنها الساذجة كطفلة وديعة سوداء الشعر واسعة العينين ، تتدلى ضفائرها الغليظة على ظهرها معقودة بشريط من الحرير . فكيف أصبح محمود صعبان سعادة البك وكيف أصبحت بسمة نجمة لحفلة عيد الميلاد ؟ هذا ما لم يعرف سره . وأخذ يسأل نفسه :

هل يعرفهما إذا رآهما ؟ وهل يعرفانه إذا وقعت أعينهما عليه ؟ وهل يخاطبانه كما كانا يفعلان بالاحترام الذى كان أهل الحى جميعاً يوجهونه إليه؟

وقال لصاحبه فى صوت خافت :

ـــ كان ينبغى أن أستعد للذهاب إلى هذه السهرة .

فأجابه جابر مبتسما :

ـــ ما شاء الله ! ستكون أكثر المدعوين أناقة .

واستمر يتحدث عن صعبان بك منذ اشتغل بتوريد المؤن للجيوش المحاربة فى السنوات العشر الماضية ، وعن الحيل البارعة التى كان يحتال بها على أخذ أثمان بضائع لم يورد منها شيئاً ،وعن ذكائه الخارق فى اختراع الوسائل التى يقدم بها الرشى إلى أصحاب المناصب العالية بغير أن يجعلهم يسمونها رشى ، ثم أخذ يطنب فى تواضعه وكرمه ومحاسن أخلاقه كما أطنب فى وصف محاسن الآنسة « بسمة » .

ووقفت السيارة فى وسط الحديث، وكان القصر المنيف الذى وقفت أمامه مطلا على النيل فى قطعة خالية من المساكن، والأنوار الملونة المنبعثة من البستان المحيط بالقصر تخلع على المنظر ألوان الربيع وتتحدى السحب السوداء التى تغطى وجه السماء .

ودخل الضيفان من باب البهو الفسيح وكان المرح يشيع فى الجو الدافئ . ولمعت من وجوه الحسان بسمات عذبة كأنها منظر ثغور الأقاحى.

وكان عبير العطور يخفق فى الهواء ويبعث رسائل غامضة من الفتنة . وصافح جابر بك أصدقاءه من الجنسين ، وأما الأستاذ عطية فإنه اكتفى بالتحية من بعيد وكان يبدو عليه شيء من الوجوم ، وبعد دقائق مضى الجمع فى أحاديثه السابقة وكانت كل مجموعة تختلس النظرات إلى الأخرى . وأقبل صاحب الدار يتدحرج بقامته المكورة ووجهه السمين ، وكان يفيض بشاشة ورقة ، ولما حيا الأستاذ عطية انحنى له فى أدب وشكره على قبول الدعوة . ثم استأذن ليستقبل عدداً جديداً من الضيوف .

وجلس الأستاذ عطية فى الحلقة التى اختارها جابر بك ، وازداد فى صدره شعور الانقباض الذى كان يحسه من قبل . رأى الضيوف فى الحلقات المبعثرة فى البهو الفسيح يتهامسون ويميل كل اثنين منهم فى حديث خافت ضاحك . وأما الحسناوات فقد تعالت ضحكاتهن الوانية وهن يرسلن نظراتهن إلى الحلقات الأخرى . ورنت الضحكات المرحة فى سمع الأستاذ عطية كأنها أنغام ناشزة ، وزاده ضيقاً منظر الظهور العارية والصدور البضة البارزة من بين البنائق الصغيرة .

كانت المناظر كلها فاتنة ولكن الأستاذ عطية رآها بعين صاحية ، وكان وحده يجلس قابعاً فى مقعده بغير كأس فى يده ، وتمنى لو استطاع أن يتسلل خارجاً .

ثم أحس فجأة بعطش شديد إلى كأس من تلك الكؤوس التى تلمع

بين الأنامل الأنيقة ، فقام إلى البار وتشجع إذ لم يلتفت إليه أحد . ولما شرب الكأس الأولى أحس العطش يزداد به إلى أخرى ، وما زال حتى دب فى نفسه الأنس وبدأ ينظر إلى البهو بعينه النشوى . صار البهو فى عينيه ملهاة صاخبة ضاحكة ، وبدأ ينطلق من انطوائه ووحشته ، وتردد على الحلقات التى يعرف من فيها والأخرى التى لا يعرف أحداً فيها ، وأبهجها جميعاً بفكاهاته وضحكاته العالية. وانطلقت أنغام الموسيقى تتردد جريئة مطربة، وسال البهو بالراقصين والراقصات ، ولمعت جنباته بالوجوه الباسمة المشعة . وكانت القدود الرشيقة تتجاوب فى نعومة مع الأنغام السريعة ، كأنها تسبح فوق الهواء بخطواتها الخفيفة .

وتخاصر النساء والرجال ، بين شباب وكهول ، يتمايلون فى ليونة ويتناظرون بلحاظ وانية . وكانت ملابسهم تلمع تحت الأنوار كأنها قوس قزح مختلف الظلال ، والوجوه المضيئة تبرق بالأدهان مثل لوحات فى معرض فنى ، وأحاطت السواعد بالخصور ، واستدارت الظهور البضة العارية إلى الصدور الغضة السافرة تتطلع إليها أطراف الحلل الحريرية مترددة كأنها تريد أن تتساقط . وتدفقت الهمسات الرقيقة فى الأسماع واقتربت الأعناق من الأعناق .

وكان الأستاذ عطية قد عاد إلى ركن من البهو يرتشف من كأس

أخرى فى استرخاء . وعثرت عينه بصاحبه جابر بك يراقص غادة حسناء . كأنها جنية خرجت من البحر فى أقل ثيابها ، وكان ظهرها العارى يكذب برد الشتاء وقد لبست فى يديها قفازين من الجلد الرمادى يغطيان معصمها وبعض ساعديها . وكانت يمينها معتمدة فى رفق على كتف صاحبها ، ويسارها فى يمينه . ونظر جابر نحو الأستاذ عطية فتلاقت عيناهما وخيل إلى عطية أنه يبتسم . وكان على رأس الغادة طرطور من ورق ملون له ذؤابة تترجح بحركة ناعمة مع حركات الرقص، وقد عقدت فى شعرها شريطاً من الحرير الأحمر ورشقت فيه وردة حمراء كبيرة .

ووقف الأستاذ عطية ذاهلا يتطوح ويسأل نفسه من هذه الساحرة الجريئة ؟ ووثبت إلى ذهنه المخمور صورة صديقه كوكو المسكين وهو يراقصه بجسمه العارى وذؤاباته الملونة ووردته الكبيرة الحمراء . ثم لاحت له من ثنايا لمحات وجه الحسناء ملامح صورة قديمة يعرفها ، صورة الفتاة الصغيرةالوديعة« بسمة » الدعجاء. وصرخ فى مكانه صرخة خافتة وكاد يعيد صرخة عالية يناديها باسمها . وفى مثل لمح البصر ملأ الغضب قلبه على صاحبه الذى غضب على كوكو عندما رآه يرقص معه فى أول الليلة ؟

حقًّا كان كوكو عارى الجسم ولكن هذه أيضاً عارية . وهى تلبس طرطوراً أحمر وتضع فى شعرها وردة حمراء . لا فرق بينها وبين كوكو .

لا فرق بينهما سوى أنها حسناء وهو قبيح وأنها ابنة محمود بك صعبان وهو المهرج المسكين . أى فرق بين هذه الحسناء التى ترقص بين ذراعى جابر بك وبين كوكو عندما كان يرقص إلى جانبه ؟ ولماذا قال له جابر إنها رقصة مجنونة . ولماذا قال له إنه هم بأن ينزل ليعيد إلى كوكو عقله بصفعة ؟ ولماذا أراد أن يضع كوكو فى إصلاحية أو فى السجن ؟ فهل كوكو وحده المتوحش الذى يجلب على البلاد السخرية لأنه يسير عارياً ويرقص ضاحكاً ؟ ولم يدر ما هو فاعل عندما اندفع فى ضحكة مخمورة واخترق الصفوف بين الراقصين حتى وصل إلى صديقه وصاحبته .

وقبل أن يفطن جابر بك إلى وجوده قريباً منهما ، اندفع الأستاذ عطية نحو الآنسة صائحاً :

ـــ مساء الخير يا كوكو !

وبضحكة عالية انتزع الحسناء من بين يدى صديقه المذهول واندفع يراقصها كأن شيطاناً يقهقه فى جوفه . وفى لحظة قصيرة عم الاضطراب وانفلتت صرخة عالية من الفتاة الحسناء وأسرع جابر إليها لينقذها من بين يديه ، ولكن عطية اندفع فى عنف يرقص ويغنى كما كان يرقص ويغنى مع كوكو .

كانت حقاً رقصة مجنونة !

وسقطت الفتاة مغشياً عليها ، وسقط الأستاذ عطية قريباً منها لا يسمع شيئاً !

وفى تلك اللحظة انطفأت الأنوار بناء على برنامج الحفلة كما جرت العادة فى نصف تلك الليلة ، فتسلل جابر بك من البهو وهو يترنح ، وكانت تلك آخر مرة دخل فيها إلى قصر الوجيه محمود صعبان ، وآخر مرة سمحت له الآنسة بسمة بزيارتها — كخطيبة .

وأما الأستاذ عطية فقد خسر صداقة جابر بك إلى الأبد وكان فيما بعد لا يسمح لأحد أن يعيد ذكر تلك الحادثة على مسمع منه .

دعاء شعبان

« الكوارث قد تختفى فى طيها النعم »

هو شاب ساذج ضحى بكل شىء فى الحياة ولم يطلب من أحد جزاء على تضحيته ، وقليل هم الذين يعرفون قصته . كان حسين من رفاقى القدماء عندما كنا فى مكتب القرية، وطالما اجتمعنا على اللعب فى الليالى المقمرة فى جرن القمح ، لنلعب وننشد الأغانى القروية أو يقص أحدنا على الآخر ما سمعه من حكايات غريبة عن الجن أو مغامرات اللصوص. وطالما قضينا معاً صدور الليالى فيما بعد عندما كبرنا ، نستمع إلى قراءة القرآن فى شهر رمضان فى بيت العمدة أو من الراديو فى المركز الاجتماعى. وكان حسين يحرص فى كل عام على أن يأخذنى معه إلى المسجد فى ليلة نصف شعبان لنتلو الدعاء المعروف معاً ، لأنه كان يتيمن بقراءته ، ويعتقد أنه يحمى من كل عثرات المقادير ويوسع الرزق . وكان شاباً مرحاً حلو الفكاهة كما كان قوى الجسم وضىء الوجه ممتلئ القلب بالشهامة.

ومرت سنوات طويلة شغلتنى عنه المشاغل بعد أن تخرجت فى الجامعة وفتحت عيادتى فى القاهرة ، غير أنه كان يزورنى بين حين وآخر

فى عيادتى ، كما كنت أزوره فى بيته كلما ذهبت إلى القرية فى بعض أواخر الأسابيع . وكان قد اشتغل بتجارة الألبان ، واستطاع أن يشترى عدداً كبيراً من الأبقار ليطمئن إلى جودة الألبان التى يوزعها على زبائنه، ومع أنه جمع ثروة كبيرة ، لم يتكبر على أهل القرية ولم يغير طريقته الأولى فى الحياة ، فكان يطوف بدراجته مرة فى الصباح وأخرى فى المساء ليوزع الألبان الطازجة أو ليحمل الجبن والزبد إلى زبائنه من البقالين فى المدينة المجاورة . وكان أهل القرية يكلفونه قضاء بعض حاجاتهم من المدينة فيقوم بتلك الخدمات راضياً ولاينتظر من أحد شكراً . وكان نساء القرية أكثر جرأة عليه من الرجال ، حتى إنهن إذا طلبن منه خدمة خاطبنه بلهجة الأمر أو وجهن اليه بعض الشتائم ، وكن أحياناً يدفعنه فى ظهره بقبضات أيديهن فوق تلك الشتائم . ولكنه لم يظهر لإحداهن يوماً شيئاً من التأفف، كما أنه لم يوجه إلى إحداهن نظرة أو لفظة تخدش المروءة . وكانت له فى القرية خطيبة أخلص فى حبها كل الإخلاص وهى ابنة خالته واسمها « مبروكة » ، عقد عليها وكان يجهد نفسه فى العمل ليستطيع أن يبنى لها داراً واسعة فيها زريبة كافية لكل أبقاره حتى يجمعها تحت رعايتها بدلا من تفريقها بين نساء القرية بالمشاركة .

وكانت مبروكة حقًّا أجمل فتيات القرية وأبرعهن يداً . كانت مشهورة بين لداتها بمهارتها فى تطريز المناديل وعصابات الرأس وبتفننها فى صنع



أصناف الفطير والكعك وطواجن الأرز واللحم . وكان حب حسين لها أمراً معروفاً يتحدث به نساء القرية وفتياتها فيما بينهن ، ويتساءلن كلما مر قريباً من دارها هل عرج عليها وماذا حمل لها من الهدايا . وكن يتغامزن بها كلما مرت بهن بعد الغروب لتحمل الطعام لأبيها وأخيها فى الغيط ويتهامسن قائلات : « إنه هناك فى هذه الساعة يعزف على " سلاميته "

عند منحنى الترعة » . ولم يكن ذلك افتراء منهن لأن حسيناً كان يذهب حقًّا كل يوم إلى منحنى الترعة بعد فراغه من أعماله ويجلس فى جوار الساقية التى تروى غيط أسرة مبروكة، ينشد بعض الألحان القروية على سلاميته . وكان النسيم يحمل ألحانه العذبة إلى القرية الصامتة معلناً أنه هناك ينتظر مرور عروسه . وكانت مبروكة تعرف مالها فى قلب ابن خالتها وتعرف أن تلك الألحان العذبة موجهة إليها وحدها ، ولكنها لم تشعر فى وقت من الأوقات بشىء من التكلف. كانت إذا اقتربت منه ألقت عليه تحية المساء ووقفت حتى يجىء إليها ليذهبا معاً إلى الغيط ويقطعا معاً مسافة الطريق فى حديث ساذج يفضى فيه كل منهما إلى الآخر بما عنده من أخبار اليوم ومع أنها كانت تراه فى كثير من الأحيان يتحدث مع نساء القرية وفتياتها ويقوم بأداء الخدمات التى يطلبنهامنه ، فإنها لم تقل له يوماً كلمة تنم عن لوم أو غيرة ، بل لعلها كانت تزداد تعلقاً به وثقة بنفسها كلما سمعت عن الهمسات الغيرى التى كانت الفتيات يتهامسن بها من وراء ظهرها .

ومرت سنتان تمكن حسين فى خلالهما من جمع المال الذى يكفى لبناء الدار الواسعة، وعزم على أن يحقق أمنيته العزيزة بالزواج من مبروكة ، واختار قطعة أرض فى جوار الساقية التى تعود أن يجلس عندها لينشد

ألحانه ولم يبخل بالثمن الغالى الذى طلبه منه زوج خالته صاحب تلك الأرض .

وفى يوم من أيام آخر الأسبوع ذهبت إلى القرية كعادتى ، وأتى إلىّ كثير من أهل القرية بين أهل وأصدقاء وجلسنا نتسامر ، وكان النسيم يرف بين أغصان الحديقة المزدهرة فى فصل الربيع ويحمل إلى مجلسنا عطر زهر البرتقال ممتزجاً برائحة دخان الخشب الذى يوقد به الخدم لإعداد الشاى المستمر لطائفة بعد أخرى من الضيوف . وجاء حسين محجوب بعد مضى ساعة طويلة من الليل وكان وجهه ينطق فصيحاً بأنه سعيد . وتحول حديث المجلس إليه سريعاً وأخذ كل من هناك يوجه إليه كلمة مفاكهة فيها شىء من الخبث وشىء من الدعابة الخشنة . وكان حسين يجيب على تلك الكلمات بمرحه الطبيعى وبفكاهات طريفة تثير الضحكات العالية ، وكانت أكثر المفاكهات دائرة حول زواجه القريب وليلة عرسه المنتظرة .

ولما انقضت السهرة قلت له معتذراً :

ــ أنا آسف لأنى لن أستطيع أن أحضر ليلة زفافك لأنى سأسافر بعيداً .

فقال حسين متبسما :

ــ ولماذا لاننتظر ؟ لست مستعجلالهذه الدرجة .

فقلت جادًّا :

ــ قد يطول غيابى شهراً وقد يمتد إلى أكثر من ذلك .

وسكت لحظة ثم تبسمت قائلا :

ــ وقد يكون إلى الأبد !

فانتفض حسين قائلا :

ــ ماذا تقول ؟

فقلت فى صوت هادئ :

ــ سأذهب إلى فلسطين لمواساة المجاهدين . ومن يدرى ؟

فانتفض حسين قائلا فى دفعه :

ــ والله يادكتور لن تذهب وحدك .

فشعرت بارتباك شديد وقلت فى شىء من الضيق :

ــ وما معنى هذا ؟

فقال حسين فى ثبات :

ــ لن أحتفل بعرسى حتى نعود معاً . سأذهب معك إلى فلسطين .

فقلت فى رنة أسف :

ــ لم أقل لك إنى مسافر لتفاجئنى بهذا العزم السريع . إذا شئت

فأجل العرس حتى أعود ولا حاجة بك إلى اتخاذ قرار سريع كهذا .

فقال فى شدة :

ـ ولماذا تمنعنى ؟ أنت مسافر لأداء عمل تراه واجباً ، ولماذا لا أذهب أنا كذلك لأؤدى واجبى ؟ سأكون معك إذا شئت أن أرافقك وإلا فإنى أذهب وحدى .

فقلت باسماً :

ـ ومبروكة !

فقال فى حماسة :

ـ سأعود إليها ، بل سأذهب من أجلها . سأحمل السلاح مع المجاهدين من أجلها . دعنى أذهب معك لأسند لك الجرحى على كتفى أو لأخترق صفوف النار لأحملهم إليك . قلت لك إنى ذاهب .

فمددت إليه يدى مصافحاً وأنا صامت فى تأثر شديد من إخلاصه وشهامته الساذجة . وانصرف على موعد ليقوم معى إلى القاهرة فى صباح اليوم التالى .

ومن القاهرة بدأنا الرحلة إلى أرض فلسطين بعد أسبوع ، وكان حسين محجوب سائق السيارة التى أقلتنى مع رفاقى لأنه كان من أمهر سائقى السيارات .

ولاحاجة بى أن أفصل مشاهد الحرب التى خضناها معاً فى فلسطين فإنها تذكرنى بآلام تدمى القلب وتثير الحقد والحنق ، لا لما كان فيها من أعباء ومشقات فى الجهاد بل لسبب آخر يعرفه الجميع . لم نشعر فى حرب فلسطين بالأعباء ولابالمشقات لأننا كنا نجاهد فى سبيل خدمة إنسانية يرتاح الإنسان فيها إلى بذل كل تضحية . ولكن الذى يدمى القلب هو رؤية ضحايا أرض فلسطين الذين جاء إليهم قوم من وراء البحار لينزعوا منهم وطنهم ويطردوهم منه . كنا نرى النساء والأطفال يسيرون فى الفضاء بلا مأوى ولا طعام ، والخوف يذهلهم عن المأوى والطعام . لم نشعر بألم ولا بمشقة ونحن نجاهد لنرجع هؤلاء المساكين إلى ديارهم التى طردوا منها حتى نزيل عن أهل هذا العصر معرة اعتداء شنيع لم يسبق للعالم أن شهد مثله . لم يسبق لجنكيزخان ولا لتيمورلنك ولا أتيلا أو أى همجى وحشى أن يغزو بجموعه أرضاً لكى يطرد منها أهلها حتى يموتوا فى العراء . كان الموت نفسه هيناً فى أنظارنا لو استطعنا أن نضحى بحياتنا فى سبيل إعادة الأطفال والنساء المساكين إلى ظل المنازل التى أخرجوا منها وإلى حظائر أسراتهم التى شردت أبداداً .

ولا أريد أن أطيل فى وصف مشاهد البطولة التى كانت تتكرر كل يوم فى ميادين الجهاد، فقد كانت حرب فلسطين جهاد أبطال بالرغم مما

يقوله الثرثارون فى سخافاتهم . وحسبى أن أقول إن تلك الحرب كانت نعمة علينا وإن كانت فى صورة كارثة، فإن الأمم لاتخلق على مهود السلام، والآلام وحدها هى التى تحفز الأمم لمواجهة الحياة . وقد أظهر حسين محجوب من آيات البطولة ما لا أستطيع وصفه إلابقولى إن بطولته كانت جديرة بأرض الأنبياء .

ولكن بطولته كلفته ما هو أثمن من الحياة . وعدت من فلسطين وحدى وخلفت صديقى حسين فى أرض فلسطين حيث لا أدرى ، فقد خرج وحده ذات ليلة إلى صفوف القتال ليسعف بعض المجاهدين الذين سقطت بهم طائرة وراء خط النار ، ولكنه لم يعد ولم نقدر أن نعثر له على أثر فى المكان الذى وقعت فيه الطائرة المحطمة .

ولا أستطيع أن أصف الحزن الذى أصاب القرية ولاأثر تلك الكارثة على قلب مبروكة المسكينة . لقد خلا مكان حسين فى القرية وأحس كل فرد من أهلها وحشته ، وأما مبروكة فإنها انطوت صامتة على قلبها الدامى لم تصرخ البائسة ولم تلطم وجهها بل كانت تئن أنيناً متقطعاً فى صمت، واعتزلت وحدها فكانت لاتكاد تخرج من بيتها إلا لتحمل الطعام إلى أبيها وأخيها بعد الغروب إذا سهرا على الماء لرى الزراعة . وحال لون وجهها وذبلت عيناها وفارقتها ابتسامتها فأصبح وجهها ساهماً يزيده كآبة لون

ثيابها السود التى استمرت تلبسها .

وفى ليلة نصف شعبان ذهبت إلى القرية لأصلى وأقرأ الدعاء المعتاد فى مسجد القرية ترحماً على صديقى المسكين وحفظاً لذكراه ، وسمعت فى تلك الليلة قصة عجيبة :

كان القمر يشرق على الفضاء من بين رؤوس النخيل الذى يحف بالطريق الذاهب من القرية إلى منحنى الترعة حيث الساقية التى اعتاد حسين أن يجلس إلى جوارها لينشد ألحانه . وكان النسيم يهز أوراق أعواد الذرة التى فى الحقول على جانبى الطريق فيسمع لها حفيف كأنها أرواح يوشوش بعضها بعضاً . وخرجت مبروكة من القرية تحمل على رأسها طبقاً من الخوص تبدو منه أطراف الأرغفة الواسعة التى أعدتها قبل المساء . وسارت تتلفت على الجانبين وحفيف الأوراق يخيل إليها أنها أصوات خافتة تناديها باسمها ، وخيل إليها أن تلك الأصوات تشبه صوتاً تعرفه عندما كان حسين يناديها وهى تمر من هناك . فأخذت تقرأ آية الكرسى لتثبت قلبها ، ولكن الدموع طفرت من عينيها وغاص قلبها فى أعماق صدرها . ولما مرت بقرب الساقية خيل إليها أنها تسمع صوت سلاميته تعزف لحناً حزيناً كأنه ينبعث من العالم السماوى . وأسرعت مبروكة فى خطاها لتصل إلى الحقل ، وخيل إليها أنها تسمع صوتاً يناديها باسمها مرة أخرى . وأسرعت أنفاسها من الخوف وصاحت تنادى أخاها من بعيد لتشعر بالأنس

إذا سمعت صوته يرد عليها . ولكنها سمعت الصوت الذى يناديها يعود مرة أخرى فالتفتت مذعورة نحو الساقية وخيل إليها أنها ترى شبحاً يقترب نحوها فى ضوء القمر وهو يتكئ على عكازة . كان بغير شك يشبه صوت حسين ابن خالتها ، ولولا أن الشبح كان يتكئ على عكازة تحت إبطه ويقبل نحوها يعرج فى مشيته لقالت إنه هو . وسمعت أو خيل إليها أنها تسمع صوته يقول : «أنا حسين يامبروكة ! » فخانها التجلد وانطلقت منها صرخة عالية شقت الليل الساكن كما يشق الشهاب النارى جوف السماء ، وألقت الطبق عن رأسها وولت تجرى نحو الحقل وهى تكرر صرخاتها وترتعد كورقة فى مهب الرياح .

وأسرع الأب والأخ إليها فأسنداها وهى تترنح حتى أقعداها على جانب المسقاة ، واغترف لها أبوها حفنات من الماء لتشرب حتى يزول عنها أثر الذعر ، وأخذ يمسح على رأسها ويقرأ اسم الله وسورة الفلق وبعض تعاويذ يحفظها . ولما استطاعت أن تنطق وقصت عليهما ما رأت وما سمعت أخذ الرجلان هراوتيهما وأسرعا بها نحو القرية وهما يقرآن اسم الله فى أذنيها . ولما مرا بالساقيه لم يكن هناك سوى البقرة تدور مغمضة العينين خاشعة تحت النير الغليظ ، وقال الأب لابنته : « ليس هناك شىء يامبروكة » فلم تجب بل سارت مطرقة حتى وصلت إلى القرية فرقدت على فراشها

فوق الفرن والتف حولها النساء يتحدثن عن قصص الأرواح التى تظهر أحياناً بعد الموت للأعزاء . وهل عجب أن يعود روح حسين محجوب من العالم الآخر ليزور معاهد حياته الأولى وينادى الذين تعلق بهم فى هذه الدنيا ؟ واعتقد الجميع أن تلك آية جديدة على صدق محبة حسين المسكين لابنة خالته مبروكة . وقالوا إنها زيارة قصيرة ثم عاد إلى عالمه السماوى .

ولكن الفتاة المنكوبة كانت أرهف بصراً وحساً من كل من هناك وقالت بصوت خافت :

ــ رأيته مرة أخرى على الطريق . كان يسرع وهو يعرج على عكازة.

فصاح أبوها :

ــ اسكتى يامبروكة

وأخذ يقرأ الآيات فى حزن ويده فوق رأسها .

وجاء أهل القرية إلى بيتى مسرعين ليحملوا إلىّ قصة مبروكة المسكينة وهم يتعجبون من المعجزة . غير أنى كنت أعرف أن الأرواح تؤثر البقاء فى عالمها السماوى ولا تعود متجسدة إلى القرى ومعها عكازاتها ، وخطرت لى خاطرة سريعة فقمت مبادراً إلى سيارتى وسألت عن الاتجاه الذى قالت مبروكة إنها رأت الشبح يسير فيه ، وما هى إلا دقيقة حتى انطلقت إلى الطريق المؤدى إلى القرية المجاورة ، وصدق حدسى آخر الأمر لأنى

رأيت الشبح مايزال يعرج على الطريق أمامى مقترباً من القرية، وكان حقيقة يتكئ على عكازة تحت إبطه . وأدركته بعد لحظة قصيرة فنزلت من العربة لأفتح ذراعى لصديقى حسين محجوب ، ومال كل منا على عنق صاحبه يبكى . وانتحينا جانباً من الطريق فجلسنا تحت أشعة القمر نتحدث ، وقص على قصته :

نجا من الموت بعد أن انفجر فيه لغم وهو ذاهب لإسعاف الطائرة المنكوبة، وعثرت به « دورية » فحملته معها إلى غزة ، وهناك أجريت له عملية مدت له الحياة بساق واحدة . ولما رجع إلى الوطن بادر إلى القرية وكانت ليلة نصف شعبان . فذهب ليصلى المغرب إلى جوار الساقية قبل أن يرى أحداً من أهل القرية ، وقرأ الدعاء لعل الله يمحو عنه شقاوته وحرمانه وطرده ! ولكنها عندما مرت به لم تعرفه . وناداها باسمها قائلا: « أنا حسين يامبروكة » ولكنها صرخت وولت هاربة مذعورة .

فقلت له وقلبى يسيل عطفاً :

ــ لاتحزن ياصديقى فسوف يمحو الله شقاوتك وحرمانك وطردك .

فهز رأسه فى شك وقال :

ــ هيهات يادكتور : ليتنى مت فى الموقعة .

ولم أشأ أن أطيل معه المناقشة ونحن هناك على الطريق كما أنى لم

أشأ أن أعود به إلى القرية فى تلك الليلة بالذات ، لأن شعوراً غامضاً كان يوحى إلىّ بأن أذهب به من ساعتى إلى القاهرة .

وتحدثنا طويلا فى الطريق . كما تحدثنا طويلا فى الأيام التى أقامها فى عيادتى تحت العلاج ، وحمدت الله كثيراً على أن إصابته لم تكن يائسة كما كنت أحسب . واستطاع بعد شهر ونصف أن يسير على قدميه سوياً بغير عكازة بفضل ساق مصنوعة اخترناها له من أجود الأصناف التى لاتكاد مشيتها تختلف عن المشية الطبيعية .

وعدنا إلى القرية فى يوم من أيام عيد الفطر وكانت حقاً ليلة عيد عند أهل القرية جميعاً . وجاءت مبروكة إلى بيتى لأول مرة منذ مدة طويلة لكى تقبل يدى على أنى أعدت حسيناً إليها . ولست أنسى أن أذكر هنا أننى لم أملك نفسى من البكاء وأنا أرى العروسين واقفين جنباً إلى جنب ومبروكة تضع يدها تحت ذراع زوجها وتبتسم سعيدة ، لألتقط لهما صورة شمسية تذكاراً للعودة .

ولما أقمنا العرس بعد ستة أشهر وجاء حسين ليسلم علىّ قبل الذهاب بزوجته إلى داره الجديدة بجوار الساقية سألته قائلا :

ــ أرأيت كيف محا الله شقاوتك وحرمانك ؟

فضمنى إلى صدره قائلا :

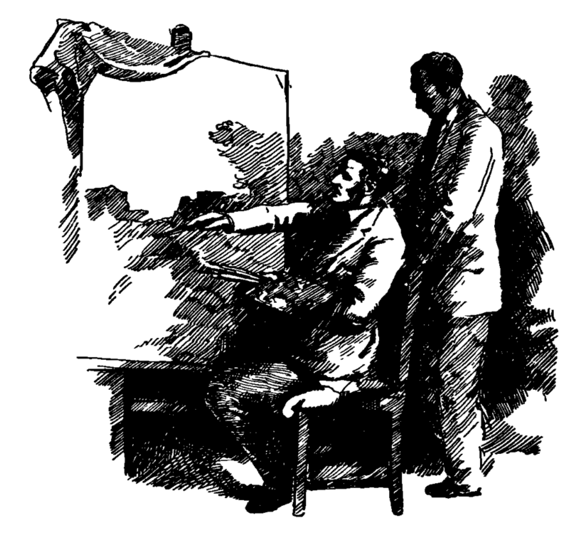
ــ سنتلو الدعاء معاً كل عام !

العودة . .

«العناصر واحدة والعبرة بالألوان ،
والحياة واحدة والعبرة بالروح »

صديقنا الفنان «على المصرى» رجل فذ فى شخصيته ، وفذ فى فنه. وكان يتخذ له مرسماً فى قلب حى من أحياء القاهرة القديمة ، ويحيطه بجو غامض يناسب جو قاهرة العصور الوسطى الغامضة . فالحى القديم تحيط به من كل جانب بيوت متهدمة ومئات من المساجد الأثرية ذات المآذن العالية وأزقة ضيقة متعرجة تحرسها بوابات ضخمة ما تزال تحتفظ بقوامها الشامخ مع كل ما أصابها من خدوش السنوات الطويلة . والمرسم نفسه يمثل الحى أصدق تمثيل إذ يحتوى على قطع مختلفة من أثاث قديم يجمعه الفنان قطعة قطعة من متاجر التحف البالية ، ومن فوقها قطع مهلهلة من المنسوجات والسجاجيد التى مضت عليها مئات السنين وتناولتها مئات الأيدى .

وكنت أذهب مع صديقى إلى ذلك المرسم لأقضى يوماً فى جوه الغريب فأنتقل فيه من عالم الحياة الحاضرة إلى عالم بعيد مندثر أقطعه عبر الأجيال وأجد فيه مجالا واسعاً للتأمل . وكانت المناظر التى يرسمها صديقى تلائم



جو المرسم والحى ، إذ كان يختارها من الأطلال الدارسة والجدران المتهدمة ويجعل أشخاصها من سكان الأحياء الفقيرة ذوى الوجوه المعروقة والثياب الممزقة .

ولست أدرى لماذا كنت أشعر برغبة شديدة فى الذهاب إلى ذلك المرسم برغم ما فيه وماحوله من المناظر المحطمة ،وكنت — كلما ذهبت إليه — أستغرق فى تفكير عميق عن الماضى والحاضر وعن الآلام والآمال ويمضى

اليوم فيه سريعاً حافلا بالأحلام .

وأما الفنان نفسه فقد كان عالماً قائماً بذاته لايشبه أحداً ولايشبهه أحد سواء فى صورته الجسمية أم فى تكوينه العقلى والنفسانى . كان قصير القامة بدين الجسم ، يتدحرج فى مشيته السريعة ذات الخطى القصيرة ، وأينما سار يتلفت حوله إلى الأشخاص والأشياء كأنه يريد أن يطبع فى ذهنه كل ما يقع عليه بصره، ولكنه كان لا يقول شيئاً كأنه لم يلاحظ شيئاً . وكنت أحياناً أسأله لماذا لايسير فى طريقه بغير تلفت ، فلا يجيبنى إلا بابتسامته الساذجة قائلا :

— ولم خلق الله لنا عيوناً ؟

وكان من عادته أن يمسك فى يده مسبحة سوداء من خشب اليسر كما كان دائماً يلبس ثياباً قاتمة وربطة عنق سوداء . وكلما سألته عن السر فى هذا السواد وهل هو حزين أجابنى بابتسامته المعهودة قائلا : إنه مزاج !

وأبرز ما يتصف به ذلك الفنان العجيب أنه يحمل فى صدره أنقى قلب إنسانى عرفته فى حياتى ، فكلما مر بالحارات الضيقة ورأى أطفالها المساكين وقف يتأمل وجوههم النحيلة فى تأثر شديد وأخرج من جيبه كل ما يكون معه من النقود أو الحلوى ووقف ينظر إليهم فى عطف وهم يصفقون طرباً ويحيطون به يطلبون المزيد . فإذا انصرف عنهم بلغ منه

التأثر مبلغاً شديداً وأخذ يتمتم لنفسه ببعض كلمات الرثاء ، وله حسن مرهف يدرك من المشاعر ما يخفى على أذكى الأذكياء ، ولكنه قلما اهتم بأن يعبر عن تلك المشاعر بالأقوال ، وإذا قال شيئاً كانت أقواله غير مفهومة كأنه يستخدم لغة خاصة . وأما مقدرته على اختيار الألوان فقد كانت ممتازة ، كأنه يدرك ببصره ما لا تدركه العيون الأخرى .

ومع كل إعجابي بصديقي الفنان ومحبتي له كنت في كثير من الأحيان أضيق بغرابة أطواره لأنه كان يطيع بدواته إذا بدت له ولا يعبأ برأى أحد من الناس . وكان لا يهتم بما تعارف عليه المجتمع ويعتقد أن أهل العصر كلهم لا يستحقون أن يقام لآرائهم وزن . كان ثائراً بطبيعته على كل الأوضاع وكل القيم التى وضعها الناس فى هذا الزمن ولا يحاول أن يدارى ما يشعر به مهما كانت الظروف . وكانت صراحته أحياناً تبلغ حد الإهانة والإيلام؛ وكثيراً ما أحرجنى عندما كنا نجتمع فى مجلس يضم بعض الأغراب الذين لا يعرفونه، لأنه كان لا يتردد فى الجهر بآرائه وإن كانت مؤلمة لهم .

وأذكر أننا اجتمعنا يوماً فى بيت صديق لنا وكان عنده ضيف من أعضاء حزب سياسى كبير ، فلما تناول الحديث بعض المسائل العامة تدفق الأستاذ على المصرى حانقاً يتهم فيه زعماء الحزب بأشنع التهم حتى أحرج الضيف وجعله يخرج من البيت غاضباً . وكثيراً ما كان يحرجنى

فى مواقف كثيرة أخرى إذ كان لايعبأ بالأصول المرعية فى السلوك ، فقد يعرج فى الطريق على بائع عرقسوس متجول ليشرب كوباً مثلجاً إذا شعر بأنه عطشان ، كما قد يعرج على دكان بائع أثاث قديم ليشترى آنية محطمة أو قطعة من نافذة مهشمة أو قنديلا من النحاس تعلوه طبقة كثيفة من الصدأ . ولست أذكر أنى رأيته يوماً عابساً أو غاضباً ، وكان دائماً عظيم الأمل فى المستقبل . لم يشعر يوماً بالقلق لأنه مفلس ، بل كان يؤمن بأن رزق الغد سوف يأتى ، ولم يشعر باليأس من صلاح أحوال الناس بل كان يعتقد أن الأمور سوف تتغير . كان مؤمنا بأن فى الجو ثورة لابد من انطلاقها فى يوم من الأيام لأنها أصبحت ضرورة لازمة ، فإذا سألته عن الأسباب التى تدعو إلى ذلك الاعتقاد تبسم وهز كتفه قائلا : « سوف ترى » .

وقلت له يوماً على سبيل المزاح :

ـ إن مرسمك هذا يذكرنى بهياكل الجثث فى المتحف .

فاتسعت ابتسامته وأجاب قائلا :

ـ لأنك لا ترى الأرواح التى ترفرف فوقها .

وكنت فى يوم من الأيام عنده وهو يرسم إحدى لوحاته ، وكانت تشبه لوحاته الأخرى فى منظرها ، فكل ما فيها محطم مهلهل متهدم ،

كانت تمثل تلاً من الأطلال فى أعلاه دار متهدمة ليس فيها سوى جدار واحد قائم إلى اليمين مستند إلى مئذنة مسجد صغير . وإلى الجهة الأخرى كوخ صغير تقف عند بابه طفلة صغيرة تشبه الأطفال المساكين الذين يقدم لهم قطع النقود والحلوى فى الحارات المجاورة للمرسم . كانت جميلة الصورة كأنها ملاك غير أنها فى ثياب ممزقة وتقف حافية القدمين . وأمام الكوخ شيخ كبير السن تبدو على وجهه علائم القناعة والحزن والطيبة ، وهو يتحامل على نفسه ليرمم جدار الكوخ المتداعى للسقوط .

فجلست أتأمل الصورة وأنا خاشع ، وامتلأ قلبى ظلاماً من ألوانها القاتمة التى لايتخللها شعاع مشرق إلا فى وجه الطفلة الصغيرة . ولم أدرِ كم مضى على من الوقت وأنا أتأمل الصورة وأتحدث إلى نفسى صامتاً فلم أنتبه إلا على صوت أذان المغرب الذى انطلق من المسجد الأثرى المجاور . ورأيت صاحبى يقف مصغياً إلى صوت الآذان فى اهتمام ، حتى إذا ما انتهى رفع « فرشته » وأضاف بها بعض لمسات إلى صورة المئذنة فجعلها تشبه منارة تبعث شعاعاً خافتاً متردداً يجاهد فى اختراق ضبابة رقيقة من الغبار المتصاعد من تلك الأطلال .

وشعرت برغبة شديدة فى أن أحدث صاحبى عن الصورة ولكنه كان منصرفاً إلى إضافة لمسات جديدة إلى الضوء المنبعث من المئذنة .

فقلت له مداعباً :

ــ أراك ترسم صوت الأذان ياصديق .

فالتفت إلى بابتسامته قائلا :

ــ ولم لا ؟

فقلت له فى اهتمام :

ــ ألا تخبرنى عن معنى هذه الصورة ؟

فضحك قائلا :

ــ المعنى دائما ؟

فقلت فى إصرار :

ــ أكاد أقول إنك تقصد بها شيئاً أكثر من مجرد صورة . أنت ترمز بها إلى معنى فى ضميرك .

فالتفت إلىّ فى دهشة قائلا :

ــ ماذا تقصد أنت ؟

وكان تعبير وجهه فى دهشته صادقاً حتى وقع فى وعيي أنه لم يقصد شيئاً سوى تلك الصورة ، سوى الطلل والطفلة والشيخ والمئذنة ، التى استرعت اهتمامه لسبب يجهله هو أيضاً .

فسألته :

ــ بماذا تريد أن تسميها ؟

وكنت أعرف أنه يحب أن يسمى كل صورة باسم غامض .

فهز كتفيه قائلا : ربما سميتها الانتظار .

فقلت :

ــ وما معناه ؟

فهز كتفيه مرة أخرى قائلا :

ــ الانتظار ؟!

ولم أفهم من قوله شيئاً فعدت أنظر إلى الصورة واكتفيت منها بالأثر العميق الذى وقع فى نفسى .

وكانت تلك آخر جلسة طويلة معه فى المرسم، لأنى نقلت من القاهرة بعد ذلك ، وقضيت عدة سنوات أجوب البلاد فى الشمال والجنوب ، وصرت لا أرى صاحبى إلا فى مقابلات عابرة يفصل بين كل منها والأخرى سنة كاملة أو عدة أشهر .

واتفق لى أن رجعت إلى القاهرة لأشهد الاحتفال الكبير الذى أقيم فيها لذكرى الثورة، وذهبت إلى ميدان التحرير لأشترك مع الألوف المؤلفة التى جاءت من كل البلاد لتحتفل بالحادثة التاريخية الكبرى . وهناك قابلت صاحبى مصادفة وهو يجوس خلال الجموع المتزاحمة . وكان أول ما أدهشنى منه أنه كان يمسك فى يده سبحة من الكهرمان الأصفر اللامع ويلبس ربطة عنق ذات ثلاثة ألوان، الأسود والأحمر والأبيض ، وهى ألوان الثورة كما هو معروف.

وقال لى ونحن نتعانق :

— أنا سعيد بلقائك . ألم أقل لك إنها آتية ؟

فقلت :

— من هى ؟

فقال : الثورة .

وكان شوقى إليه عظيماً فسحبته من يده إلى أقرب قهوة وجدنا بها مكاناً خالياً وجلسنا نتحدث ، وكان مرحاً مستبشراً أكثر من عادته . كان يتحدث عن الثورة كأنه هو الذى أحدثها ، وأخذ يتكلم على غير عادته كلاماً مفهوماً . ودعانى إلى قضاء يوم معه فى المرسم لنتغدى معاً ونتحدث ، وكنت مشتاقاً إلى رؤية مرسمه مرة أخرى بعد غيبتى الطويلة عنه. ونحن نعرف مقدار حنين الإنسان إلى الأماكن التى تعود الذهاب إليها فى شبابه .

وفى اليوم التالى تلاقينا فى الصباح على موعدنا فى قهوة الفيشاوى ، ثم سرنا فى الطريق إلى المرسم ، وكنت أنا فى هذه المرة أتلفت حولى إلى مناظر الناس والدكاكين التى لم تقع عينى عليها منذ خمسة عشر عاماً وإلى الأطفال فى الأزقة الضيقة والمنازل القديمة المتهدمة وشعرت بحنين يشبه حنين الذى يعود إلى وطنه بعد غربة طويلة . وسار صاحبى فى نشاط بخطواته السريعة ، يحيى أصحاب الدكاكين الصغيرة ويدعوهم بأسمائهم ويبادلهم الفكاهة ،

ثم عرج بى فجأة على دكان « مسمط » ليعد الوليمة التى دعانى إليها . واشترى شيئاً من لحم الرأس واللسان والمخ ولفه فى كيس من الورق وسار يهزه فى يمينه ، ثم عرج على دكان بائع « طرشى » ثم على مخبز وعربة برتقال حتى جهز كل أصناف الغداء ، وسرنا نحمل فى أيدينا لفائف كثيرة . ولست أنكر أنى شعرت بكثير من الحرج ونحن نعرج على جانبى الطريق لشراء طعامنا ، إذ كانت الطرق مزدحمة بالمارة الذين ينظرون نحونا . وزاد حرجى حتى شعرت بأن الدم يتصاعد إلى وجهى عندما مر بنا أحد المعارف القدامى وسلم علينا من بعيد ونحن نشترى رطلا من السكر لإعداد الشاى بعد الغداء . وخيل إلى أنه يتبسم فى شىء من السخرية عندما لمح القراطيس فى أيدينا ، فشعرت بكثير من الخجل ولكن صديقى الفنان صاح به قائلا :

ـ تفضل معنا .

وجعل يكرر دعوته فى إصرار حتى جعل ذلك الصاحب القديم يرفع يديه إلى رأسه شاكراً ويسرع متباعداً عنا . واخترقنا ما بقى من العطفات حتى بلغنا المرسم وصعدنا فى سلمه ذى الدرجات العالية . وألقيت القراطيس التى كانت فى يدى على منضدة عرجاء من الأبنوس المطعم بالصدف ، وهى إحدى التحف العزيزة على صديقى . وجلست على الكرسى « الأربسكة » الذى تعودت أن أجلس عليه من قبل وأخذت أنظر فى دهشة إلى المرسم .

كان منظره العام مختلفاً عن منظره الكئيب الذى عرفته ، وكان جوه العام غير جوه الأول القاتم . وبعد لحظة فطنت إلى السر فى ذلك التغيير الكبير إذ رأيت فى صدر الغرفة الكبيرة صورة تضىء بألوانها الزاهية . فوقفت أنظر إليها وأتعجب من الأثر الذى أحدثته فى الغرفة . كانت الأركان هى الأركان التى عهدتها من قبل،وكان الأثاث هو الأثاث القديم ولكن الصورة الجديدة خلعت على المرسم كله شخصية أخرى . وتأملتها طويلا وخيل إلى أنى رأيتها من قبل ولكنى لم أذكر أين رأيتها . كانت تمثل ربوة خضراء عليها خمائل ذات ظلال رائعة وينحدر منها جدول من الماء المتألق منساباً إلى أحواض مزدهرة . وإلى جانب الربوة من اليمين صورة مسجد يصعد بمئذنته الرشيقة كأنها تبتسم لضوء الشمس . وإلى الجانب الأيسر كانت دار صغيرة متواضعة ، ولكنها بديعة فى بساطتها ، وعلى جانبها تصعد كرمة تتدلى منها قطوف العنب .

ووقفت عند باب الدار طفلة متهللة الوجه كأنها ملاك يسبح فى السماء ، تفتح ذراعيها لجدها الشيخ الذى كان يميل أمامها ليرفعها بين ذراعيه . عند ذلك فقط هجمت على ذكرى المنظر القديم الذى رأيته من قبل ، وتذكرت تلك الأطلال المتهدمة والكوخ الحقير المتداعى والجدار المستند إلى المئذنة وشعاعها الخافت الذى يجاهد ليخترق سحابة الغبار ، وقلت فى شبه صيحة :

– إنها هي هي !

فقال صاحبي :

– ماهي ؟

فقلت في حماسة :

– هذه الصورة . الطفلة هي الطفلة والشيخ هو الشيخ ولكن ماذا حدث ؟ بعض الألوان يتغير فتصير الأطلال ربوة مزدهرة وتصير المئذنة المتصدعة رشيقة مبتسمة للضوء ، ويصبح الكوخ الحقير داراً سعيدة ! أليست هذه هي الصورة . ؟

فابتسم صاحبي ابتسامته العريضة الطيبة وقال :

– كانت الأخرى تملؤني انتظاراً .

فقلت :

– وأين هي ؟

فقال :

– لم أستطع الإبقاء عليها ، طمستها لأنها كانت كئيبة . ولماذا أبقي عليها ؟ .

فقلت :

– هي أثر من أعمالك .

فقال :

ــ لم تكن سوى بداية كنت دائماً أنتظر لأتمها . كنت دائماً أعتقد أنه سيأتى يوم أستطيع فيه أن أتمها .

فقلت :

ــ لست أفهم .

فقال :

ــ أما قلت لك إنها ستتحدث يوماً ؟ أما قلت لك إن الثورة آتية ؟ كنت أنتظرها وانتظرت طويلا ولكنها حدثت . وكان لابد لى أن أتم الصورة كما أردتها . كان عاماً سعيداً قضيته فى تجديدها منذ قيام الثورة . وانقطعت لها مدة عام من الصباح إلى المساء أضيف فى كل يوم لمسة . بدأت فى يوليو ونحن الآن فى يوليو ، أليست تعجبك ؟

فقلت فى حماسة :

ــ إنها رائعة .

فقال وهو ينظر إليها فى ارتياح :

ــ عندما أتممتها شعرت بأن عبئاً ثقيلا أزيح عن صدرى . كانت الصورة القديمة تملأ قلبى ظلاماً ، فلما جددتها شعرت بالسعادة تغمرنى ، انظر إلى المئذنة وإلى الشيخ . لم أضف عليهما إلا لمسات صغيرة ومع ذلك فقد تغيرت كما ترى .

توقفت أتأمل الصورة فى نشوة ، وكان منظر الشيخ والطفلة يجتذب بصرى كأن فيه سحراً .

وقلت له بعد حين :

ـــ وماذا سميتها ؟

فتبسم قائلا :

ـــ « العودة »... كانت الأطلال تنتظر أن يعود الروح إليها .

فقلت :

ـــ ولم لا تسميها الثورة ؟

فهز رأسه فى ثبات قائلا :

ـــ ليست ثورة . هكذا يسميها الناس ولكنى لا أسميها إلا « العودة » . ألا تراه اسماً طريفاً ؟ فتعال لنتغدى فإنى لم أتناول طعاماً فى الصباح .

ونزعت عينى من الصورة وذهبت معه إلى المائدة الأبنوسية العرجاء ، وأخذنا نفك اللفافات واحدة بعد واحدة ونحن نقتطع منها قطعاً شهية . . .

فهرس

صفحة



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

